

UNIVERSAL
LIBRARY

OU 190687

UNIVERSAL
LIBRARY

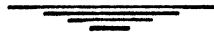
الجهاد والجهادون

في صدر الإسلام

تأليف

الدكتور م. محمد حسين

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول



الناشر : مكتبة الآداب بالجمايز تليفون ٤٢٧٧٧

الطبعة رقم ١٠٠٠

٦ بيعة الشاوي بالحياتية الجديدة

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ۱۵۰ - ۸۹۲۵۷۷ Accession No. ۱۸۹۵۱

Author محمد حسين محمد الكتور

Title الحجارة والحجارة في صدر الاسلام ۱۹۲۸

This book should be returned on or before the date last ma

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا هو القسم الثاني من تاريخ فن الهجاء . وهو يؤرخ هذا الفن في العصر الإسلامي . وأقصد بالعصر الإسلامي عصر النفوذ العربي الذي انتهى بغلبة النفوذ الفارسي ، وتقويض هذه الدولة العربية ، التي كان من أبرز صفاتها التعصب للعروبة في شتى مظاهرها الأخلاقية والاجتماعية والأدبية .

والعصر الأدبي الذي تؤرخ هذا الفن فيه ، لا يساير التقسيم التاريخي ، ولا يجري على ما جرى عليه جمهور مؤرخي الآداب ، من تقسيمها تبعاً للتقسيم التاريخي . فهو يبدأ منذ وفاة النبي ، وينتهي بانتهاء القرن الأول الهجري . والواقع أن المطابقة التامة بين تاريخ الأدب وبين التاريخ السياسي ، تعرض الباحث لأخطاء كثيرة ، وتورطه في تعسف غير قليل . فدارس الأدب — وهو مرآة صادقة دقيقة لحضارة العصر ولمزاج أفراده — لا يلاحظ فرقا كبيرا بين لون هذا الأدب في عصر الخلفاء ، وبين لونه في الصدر الأول من العصر الأموي . بيد أنه يلاحظ هذا الفرق واضحا إذا قارن بين الصدر الأول من العصر الأموي وبين الشطر الأخير من حياة هذه الدولة . فالأدب في عصر الخلفاء ، وفي الصدر الأول من العصر الأموي — وهو ما نسميه بالعصر الإسلامي — أدب عربي خالص ، يجري على ما جرى عليه الأدب العربي القديم ، في أسلوبه ، وفي أغراضه وفي صوره ، وفي أوزانه ، مع بعض التطورات التي اقتضتها طبيعة الظروف . فهو أدب عربي خالص . أما الأدب في القسم الثاني من ذلك العصر ، فهو

متأثر بالحضارة الفارسية ، وبالترف والملاعة ، الذين نشأ من شيوع الغناء والمجون ، وكثرة الجوارى وغلبتهن على قلوب العرب .

ولسنا هنا في مقام المقارنة بين العصرين ، وتفصيل الفوارق بينهما . ولكننا أحببنا أن نوضح السبب الذي جعلنا نعدل عن التقسيم المألوف ، فنخلط بين عصر الخلفاء وبين قسم من العصر الأموي من جهة ، ونفصل بين شطر هذا العصر الأول وشطره الثاني من جهة أخرى .

وليس يفهم من هذا أننا ننكر الصلة القائمة بين التاريخ السياسي وبين تاريخ الأدب . فهذه الصلة قائمة بينهما ، قياها بين الأدب وبين ألوان المعارف الإنسانية . ولكن الذي ننكره هو وضع العصور الأدبية في حدود التواريخ التي تعين قيام الدول وسقوطها . فليست العبرة في ذلك بقيام دولة وسقوط أخرى . ولكن العبرة في شكل الحضارة السائدة ، وألوان الثقافة الغالبة ، وحالة المجتمع القائمة . وليس هناك ما يمنع أن تتقارب هذه العناصر جميعا وتتشابه في دولتين ، هما عصران مختلفان عند المؤرخ ، بينما تتباين أشد التباين في دولة واحدة ، هي في عرفه عصر واحد . م

رمل الاسكندرية ٢٣ أبريل سنة ١٩٤٨

نشأة الأحزاب السياسية

رأينا فيما سبق أن الاسلام لم يستطع أن يقضى على العصبية القبلية بين العرب ، أو يخفف من حدتها ، وكل الذى حدث أن شخصية النبي القوية ، قد استطاعت أن تدبرها ، وتتفادى شرورها ، وتوجهها توجيهاً نافعاً لصالح الدعوة . لم تستطع العقلية الجاهلية أن تسيغ هذا النظام الذى جاء به الاسلام ، وأن تنسى وطنها الأول الصغير ، لتتفانى في هذا الوطن الكبير ، والاتحاد الجديد ، الذى نشأ من ضم هذه الأوطان الصغيرة ، تحت سلطة مركزية واحدة . لم يكن العربى يحمل لهذا الوطن الجديد شيئاً من الحب أو التقديس ، وكل الذى فهمه أن قريشا قد فرضت سيادتها على بقية القبائل العربية . وكان أثقل شيء على نفسه ، هذه الأموال التى فرضها عليهم الاسلام ، وسماها « زكاة » . ولم تكن الزكاة فى حقيقة الأمر ، إلا نوعاً من الضرائب ، التى يدفعها الأفراد للدولة الآن ، مقابل حمايتهم وتدير شؤونهم ، بما يكفل لهم حياة مطمئنة ، قريبة غاية الجهد من تحقيق السعادة لسائر الأفراد . ولكن العربى لم يفهم هذا الوطن الجديد ، ولم يعرف شيئاً عن الدولة ، ولم يستطع شعوره البدائى أن يفهم الحكمة فى وجودها ، أو الفوائد التى تحققها . فهو يختص القبيلة بكل حبه وعواطفه ، ويرى قوتها كقبيلة بتحقيق غاياته ، ويرى أن فناءها فى هذا المجموع الكبير ، تضحية لا مبرر لها . فالزكاة فى نظره ، ليست إلا أناوة تدفع لقريش ، وتوضع تحت تصرفها ، لتنفقها حيث تشاء . لذلك لم يكذب النبي يموت ، حتى انبعثت هذه العصبية قوية جارفة ، تريد أن تتحلل من كل قيد ، وأن تعود إلى حياتها الأولى الحرة الطليقة . منكرة حق قريش فى الزكاة ، ممتنعة عن أدائها لهذا الأمير القرشى الجديد . الذى يسمى نفسه خاتمة . وخير ما يصور هذا التفكير البدوى ، الذى ينفر من النظام ، ويأبى الاعتراف

بالسلطان ، ولا يرضى إلا حياة الخلاف والتناحر ، أبيات الخطيئة التي قالها في الردة :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا عجبا ما بال دين أبي بكر
أيورها بكراً إذا مات بعده ؟ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر !
ورأت القبائل أن قريشاً لم تفضلهم وترجع عليهم إلا بالنبوة . فليكن
فيهم إذن أنبياء . ففي ربيعة نبي من حنيفة هو مسيلة . وفي مضر نبي ونبية .
أما النبي فمن أسد وهو طليحة من خويلد ، وأما النبوية فن تميم وهي سجاح .
وفي اليمن نبي هو الأسود العنسي .

وينهض رجل الإسلام الكبير للجهاد في سبيل إعادة بناء الدولة
الإسلامية ، بعزيمة لا تعرف وهنا ولا فتوراً ، وإيمان صادق عنيف ، ينتهي
آخر الأمر بالظفر على هذه الفتنة . وإعادة القبائل المنشقة إلى الطاعة
والخضوع للدولة . والقارى لشعر القبائل في حركة الردة لا يجد فيه معارضة
لمبادئ الإسلام . فالحركة ليست ثورة على الدين الجديد . ولكنها محاولة
لاسترداد سلطة القبيلة المسلوقة . فالشعر منصب كنه على القبائل والأفراد .
والمسألة في حقيقتها عصبية خالصة .

يقول الخطيل بن أوس أخو الخطيئة (١) :

فدى لبني ذبيان رحلى وناقتي عشيةً يجدى بالرماح أبو بكر
ولكن يد هدى بالرجال فهبنه إلى قدر ما إن تقيم ولا تسرى (٢)
ولله أجناد تذاق مهانة لتحسب فيما عد من عجب الدهر (٣)

(١) الطبرى ٤٧٧١٢

(٢) دهديت الحجر فتدهدى دحرجته ، هبنة كذلك هي بالنص لعلها من أماب
بالابل والحيل اذا زجرها قاعلا هاب هاب ، فيكون المقصود ان هؤلاء الرجال يزجرون
أبا بكر وجيوشه ويدفونهم الى قدرهم وحينهم

(٣) يسخر بهم فيما يزعمون من أنهم جنود الله ؛ يقول هل رأيتم أعجب من هذا ؟
جنود الله تذوق الذل والهوان !

ويقول أبو تجرة بن عبد العزى وهو ابن الحنساء^(١) :

صحا القلبُ عن مَيِّ هواه وأقصرا وطاوع فيها العاذلين فأبصروا
وأصبح أدنى رائدِ الجهل والصبا كما ودُّها عنا كذاك تغيرا
ألا أيها المذلي بكثيرة قومه وحظك منهم أن تضام وتُقهرأ
سَلَّ الناسَ عنا كلَّ يومٍ كربةٍ إذا ما التقينا دارِعين وحُشرا
ألسنا نعطِي ذا الطَّماحِ لجامه ونظعن في الهيجا إذا الموتُ أقفرا
وعارضةُ شهباءٍ تخطرُ بالقسا ترى البلقُ في حافاتها والسنورا^(٢)
فرويتُ رُحى من كتيبةِ خالد وإنى لأرجو بعدها أن أُعمرأ

وما يصور أن العصية روح هذه الحركة والدافع إليها ، ما يروى الطبرى من خروج الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس إلى أبي بكر ، وفولهم له (اجعل لنا خراج البحرين ، ونضمن لك أن لا يرجع من قومنا أحد) . وقد رضى أبو بكر بهذا الشرط وكاد ينفذه . لولا أن عمر اعترض ومزق الصحيفة غاضباً^(٣) .

ويمضى أبو بكر بعد سنتين من خلافته ، ويخلفه عمر ، فيحكم الجزيرة بحزمه الصارم . مندفعاً في الفتوح كالسيل لجارف . لا يقف في سبيله شيء . ثم ينتهى حكمة بهذه المأساة المروعة ، التى ذهب الخليفة الكبير ضحيتها ، فتنتهى الخلافة إلى بيت من قریش ، عريق النسب فى الجاهلية ، كانت المنافسة قائمة بينه وبين بنى هاشم . وقد امتدت الدولة العربية ، واتسعت رقعتها ، حتى أصبحت إمبراطورية كبيرة ، قد ابتلعت دولتين عريقتين . هما الفرس والروم . ولم تعد النظم العربية الساذجة ، التى تركز السلطة فى يد الخليفة ،

(١) الطبرى ٢ : ٤٩٣

(٢) عارضة قابلة بمثل ما أتى . شهباء كتيبة شهباء . السنور كل سلاح جديد .

(٣) الطبرى ٢ : ٥٠٠

والتي تقوم على الزهد المطلق ، وتنفر من ادخار المال ، وتتحرج من إنشاء خزينة للدولة . لم تعد هذه النظم كافية لضبط ذلك الملك العريض . ولم يعد الأمر كما كان ، مقصوراً على إقامة حدود الدين ، وحمل الناس عليه بالاقناع أو التهديد . والتمسك بقانونه الأخلاقي القويم . فالعرب الذين كانوا يعيشون منذ سنوات قلائل على النظام القبلي . قد أصبحوا أمام مشاكل جديدة خطيرة ، هي سياسة هذه الأباطورية المترامية الأطراف ، وتدير أمرها . وضبط شؤونها . فهم أمام مشاكل مالية واجتماعية وسياسية ، لا عهد لهم بمثلها في عزلتهم القديمة .

وتضطرب الأمور وتتعدد في يد عثمان بن عفان ، ويفلت زمام الأمر من يده ، وقد غلت الأمصار بالفتنة . ويندفع الدهماء في طوفان مدمر ، يخوف في طريقتة هذا الخليفة الطيب القلب ، الذي ذهب ضحية الانتمال المفاجيء ، من العزلة العربية القديمة إلى الملك الواسع العريض . وكان قتله وقتل عمر من قبله ثم قتل علي بعد ذلك ، برهاناً قاطعاً على أن نظام الحكم القديم لم يعد صالحاً للبقاء . فلم يعد العرب في حاجة إلى رجل دين وتقوى . ولكنهم أصبحوا في حاجة إلى رجل حزم وسياسة قبل كل شيء . بل هم في حاجة إلى عبقرية سياسية . تستطيع أن تنشئ قواعد للحكم إنشاء . وتخلق من العدم نظماً وقوانين ، تستطيع أن تسير التوسع الحديدي . وقد وجد العرب ضالتهم آخر الأمر ، في عاهل العرب الأول ، ومنشئ الأباطورية الإسلامية معاوية بن أبي سفيان .

وكان بين قتل عثمان وبين ما يسميه المؤرخون عام الجماعة الأول ، الذي انتهى فيه الأمر إلى معاوية ، ست سنوات ، اضطرت فيها الجزيرة بالفتن ، واجتاحتها موجة من الحروب المدمرة في كل مكان ، كانت كلها قتالا حول شخص الحاكم ونظام الحكم . وقد ظهر في هذه الحروب لون جديد من العصية

هو العصية الإقليمية ، فقد أصبح الشام حزب معاوية ، وأصبح العراق حزب علي ، وأصبح الحجاز موطناً للمعارضة ، يقودها زعماء قريش الطامعون في الخلافة الذين لا يقرون عليها علي بن أبي طالب ، فيهم طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين . وفي هذه الحروب ، وضع أساس الأحزاب الثلاثة التي كان لها أعمق الأثر فيما يلي من الناحيتين التاريخية والأدبية ، وهي حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الأمويين .

لم يكن علي رجل الساعة ، فقد كانت عقليته السياسية من هذا الطراز القديم ، الذي تقوم شهرته على التقوى والورع ، والفقه بأمر الدين ، والنزاهة المطلقة ، والصراحة السافرة التي لا تعرف مكرراً أو مخاتلة . وهذه صفات خلقية سامية ، قد ترفع صاحبها إلى مرتبة القديسين المطهرين ، ولاسكنها لا تجعل منه حاكماً أو زعيماً . فقد كان مع هذه الصفات السمحة ، بعيداً عن المرونة التي تنبغى لرجل السياسة . وكان بعيداً عن الإدراك الصحيح لروح الجماعات ، والفهم الدقيق لدوافعها العقلية والنفسية — وهي تختلف عن دوافع الأفراد اختلافاً كبيراً — خسر كثيراً من الزعماء ، وكان يستطيع أن يكسبهم ، كالزبير وطلحة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة . ونهى أهل العراق عن نهب أموال أهل الشام ، لأنهم مسلمون لا يحل منهم سبي أو غنم . فمل الناس القتال ، وسئموا هذه الحروب التي لا مطمع فيها . ونهى عن شتم معاوية وشيعته ، ضاربا صفحاً عن آثار ذلك في الدعوة السياسية . ولم يقبل نصيحة المغيرة في إقرار معاوية وعمال عثمان على أعمالهم ، حتى تأتي بيعتهم . وكان شديد التزم في أمور الدين ، مدققاً في تحرى العدالة ، وفي توزيع الأموال والصدقات ، قليل الاهتمام بالشعر وإغراء الشعراء بالمال ، حتى لقد جلد شاعره النجاشي ، حين رفع إليه وقد أفطر في رمضان مع صاحب له ، وشربا حتى علاصرتهما ، فجلده سبعة وثمانين سوطاً — وحد

الشارب ثمانين - فقال النجاشي : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ فقال :
هذا لجرأتك على الله في شهر رمضان . فهجا النجاشي أهل الكوفة قائلاً (١):

إذا سقى الله أرضاً صوبَ غاديةٍ فلا سقى الله أرضَ الكوفةِ المطرا
التاركين على طهرٍ نساءهم والناكحين بشطىٍ درجَه البقرا
والسارقين إذا ما جنَّ ليلهم والتاليتين إذا ما أصبحوا السورا

أما معاوية . فقد مرن على السياسة في هذه الحقبة الطويلة التي ولى فيها
أمر الشام ، وأعانه على ذلك أنهم أهل طاعة ، قديمو العهد بالنظام والملك .
وقد استطاع بحلمه وسعة صدره ونعومة مكره ، أن يكسب حبههم وإعجابهم .
وكان مع هذا داهية عارفا بالرجال ، يحسن اختيار بطانته ، ويعرف أين يضع
ثقتَه . وكان بعد هذا مرنا ، لا يأخذ جانب الدين كله ، ولا يميل عنه دفعة ،
ولكنه يتوسط بين الدين والدنيا ، يأخذ بأحسنهما ، ويكمل أحدهما بالآخر .
وقد علم منذ اللحظة الأولى ، أن هذه الدولة الناشئة ، لا تصلح إلا بالملك ،
الذى يكفل لها الاستقرار والثبات ، ويكفيها شر هذه المحن والثورات ، التي
تتعرض لها فيما يقع بين الناس من خلاف عند موت كل خليفة . فبايع لابنه
يزيد ، وعنى بوضع أركان حزب سياسي ، قوامه الشعراء . يندق عليهم العطاء ،
وتألف قلوب أعدائه من أصحاب النفوذ . ولم يتورع عن لعن على من فوق
المنابر ، إقراراً له بفضه في قلوب الناس . وأحسن اختيار ولاته من أصحاب
الحزم ، ثم أطلق يدهم في أقاليمهم ، إلا فيما يمس السياسة العامة . ثم أوجد
نظام البريد ، ليسهل الاتصال بينه وبين عماله . وأوجد ديوان الخاتم ، ليكون
سجلاً لتوقيعات الخليفة التي يبعث بها إلى الأقاليم . واتخذ الحجاب والحرس ،
لأن من في مثل مكانه ، لا يأمن أن يكون بين رعاياه موتور مهوس ، ينهز

منه غرة فيقتله . كل هذه السجايا . جعلت معاوية خليفاً بما وصفه به ابن عباس حين قال : ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالرياسة والملك .

ولكن هذا الاستقرار لم يطل عهده بعد معاوية ، فقد كان من سوء حظ الناس : أن جاء بعد يزيد ابنه معاوية الثاني وكان ضعيفاً زاهداً ، فأبى أن يستخلف ، وترك أمر الناس فوضى ، فثارت الفتنة من جديد ، وكثر المطالبون بالملك والخارجون في كل مكان ، من زبرية وشيعة وخوارج .

وتفرقوا شيئاً فكلُّ مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبرٌ واحتكم الناس إلى السيف من جديد وأصبح الملك للغالب ، كما يقول كعب بن جعيل التغلبي .

أصبحت الأمة في أمر عجب والملكُ مجموعٌ غداً لمن غلب
قتلتُ قولاً صادقاً غيرَ كذِبٍ إنَّ غداً تَهْلِكُ أعلامُ العرب
وأسرف الناس في القتل وفي إراقة الدماء ، حتى ملوا الحرب ، ورأوا أنهم إنما يقاتلون من أجل قريش ، كما تقول هذه المرأة الشكلى ، التي فقدت أولادها الثلاثة في صفين (١) .

أعينيَّ جوداً بدمعٍ سَرَبٍ على فنيةٍ من خيار العرب
وما ضرَّهم غيرُ جنى النفوس بأى امرئٍ من قريشٍ غَلَبَ
وكما يقول الشاعر الطائي :

وإن امرئاً يعطى الأسنَّة نحره وراء قريشٍ لا أعدُّ له عقلاً
يذمون لى الدنيا وقد ذهبوا بها فما تركوا فيها لمُلتَمِسٍ تُعَلَّا
تم يقرر السيف للمرة الثانية ، أن بنى أمية هم أولى الناس بالملك ، فيستقر لهم الأمر على نظام ملكي ثابت الأركان ، وطيد الدعائم .

كان لهاتين الثورتين الكبيرتين آثار خطيرة في التفكير العربي ، لا تخلو من خير . فقد صحبتهما حركة فكرية عنيفة ، لا تتعارضها إلا هذه الحركة التي صحبت ظهور الإسلام . وللرة الأولى بدأ الناس يناقشون نظام الحكم ، وأتيح لهم أن يروا ألواناً مختلفة من البراج السياسية ، يعرضها عليهم المرشحون للحكم ، كل منهم يحاول استمالتهم إلى جانبه . وبدأت العصبيات الجاهلية القديمة تتخذ صورة حزبية مهذبة ، تقوم على نظريات سياسية واضحة محددة . فأتباع بني أمية في الشام — ومعظمهم من اليمنية ، الذين أصهر معاوية إلى قبيلة كبيرة منهم هي قبيلة كلب — يقرون النظام الملكي الجديد ، الذي يقوم على التوريث ، وتأخذ فيه الشيعة شكلاً صورياً . وأتباع ابن الزبير في الحجاز متمسكون بالنظام الجمهوري القديم ، الذي يقوم على الانتخاب ، ولكنهم يحصرون حق الخلافة في قريش . والشيعيون في الخلافة أو الإمامة كما يسمونها شيئاً من القداسة التي لا تسكتسب اكتساباً ، ولكنها تورث تورثاً ، فهناك دم ملكي مقدس ، ورث هذه القداسة عن النبي ، وهم وحدهم أصحاب الحق في الملك ، وحقهم في ذلك ثابت من عند الله ، ليس للناس فيه رأى أو خيار . والخوارج يمثلون التفكير الديمقراطي المتطرف ، فهم لا يرون الخلافة حقاً لقريش أو لفرع معين منها ، بل لا يرونها حقاً للعرب مقصوراً عليهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم . فالخلافة عندهم تصلح في أفناء الناس كلهم ، من كان منهم قائماً بالكتاب والسنة عالماً بهما ، ثم هم بعد ذلك يخالفون بقية الأحزاب ، في حق سحب الثقة من الإمام الجائر ، فالخلافة عندهم ليست بالحق الذي يوهب مدى الحياة ، وهناك فرقة من الخوارج هم النجدية ، يمثلون الفوضوية اللاحكومية ، فهم يرون أن الناس يستطيعون أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وأن ينظموا أمورهم ، من غير حاجة إلى إمام .

وقد كان للعصبيات الجاهلية أثر واضح في نشأة الأحزاب الجديدة وتكوينها ، فخروب العراق والشام ليست إلا امتداد للنزاع القديم بين المناذرة

والغساسنة من ناحية ، وبين الزارية والقحطانية من ناحية أخرى . شاعت الظروف أن يكون جند معاوية يمينين ، لأنهم معظم أهل الشام ، فلم يكن لأهل العراق بد - ومعظمهم زارية - من أن يكونوا جند المعارضة . وانساق اليمينيون منهم مع جمهور الناس متأثرين بعصية الأقليم ، ولسكنهم ظلوا متمسكين بعصيتهم اليمينية لا ينسونها . فالأشعث بن قيس لا يرشح في التحكيم بين علي ومعاوية إلا أبو موسى الأشعري : فإذا اعترض علي عليه ورشح ابن عباس ، قال الأشعث وأصحابه : والله لا يحكم فينا مضرى (١) . ثم هو يثبب الناس عن علي ، حين طلب إليهم أن يمضوا لقتال معاوية في الشام ، بعد أن هزموا الخوارج ، قائلاً : قد كلت سيوفنا ، ونفدت نبالنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فدعنا نستعد بأحسن منها (٢) . والعداء بين الأمويين وبين الأنصار - مع أنهم يمنية - ليس إلا أثرًا من آثار العداوة القديمة بين يثرب وبين مكة ، التي كان يتزعمها في ذلك الوقت أبو سفيان بن حرب .

ولم تنته هذه العصبيات بانتهاء الفتن واستقرار الأمور ، فقد ظل الأمويون على كرههم للقيسية وأهل العراق . دخل رجل من قيس على عبد الملك بن مروان فقال : زبيرى ! والله لا يحبك قلبى أبداً . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب النساء . ولكن عدل وإنصاف (٣) ودخل مسكين الدارمي هل معاوية ، وسأله أن يفرض له ، فأبى - وكان لا يفرض إلا لليمن (٤) . فاليمينية لم يقاتلوا مع معاوية ، ثم مع مروان ، إلا بعد أن اشترطوا عليهما شروطاً . يقول المسعودى : واشترط حسان بن مالك - وكان رئيس قحطان وسيدها في الشام - على مروان ، ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٨

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٨

(٣) العقد الفريد ٤ : ١١٤

(٤) خزائن الأدب ٢ : ٢٥٥

يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، ومنها أن يفرض لهم لآلني رجل ألفين ألفين ، وإن مات قام ابن عمه مكاة ، وعلى أن يكون لهم والنهي وصدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد ، فعن رأى منهم ومشورة . فرضى مروان بذلك وانقاد إليه . وقال له مالك بن هبيرة اليشكري : إنه ليست لك في أعناقنا بيعة . وليس نقاتل إلا عن عرض دنيا ، فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وإن تكن الأخرى ، فوالله ما قرئش عندنا إلا سواء^(١) . وظل الأمويون على بغضهم للأنصار ، ولكنهم كانوا يصانعونهم ويدارونهم . لسابق صنيعهم في الإسلام ، ولوصية رسول الله . دخل قيس بن سعد بن عبادة على معاوية بعد وفاة علي ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار . فقال لهم : يامعشر الأنصار . بم تطلبون ما قبلي ، فوالله لقد كنتم قليلا معي كثيرا على ، ولقد فلتتم حدى يوم صفين ، حتى رأيت المنايا تتلظى في أستكم ، وهجوموني في أسلافي بأشد من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله قلت : ارع وصية رسول الله ! هيهات ، ياأبي الحقير الغدرة^(٢) . وحضرت الوفود بباب معاوية ، فاستأذن لهم حاجبه وقال : الأنصار بالباب ، وكان عمرو بن العاص حاضر آفغاظه هذا اللقب ، فقال لمعاوية ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد القوم إلى أنسابهم . وخرج الحاجب فقال : من كان هنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فلم يدخل الأنصار ، ثم خرج فقال : من كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل ، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير ، وهو يقول :

يا سعدُ لا تُجِبِ الدُّعاءَ فما لنا نَسَبُ نُجِيبُ به سوى الأنصار
نَسَبُ تَخَيَّرُهُ الإلهُ لقومنا أَثْقَلُ به نَسَبًا على الكفار
إن الذين تَوَوَّأوا بيدِ منكم يومَ القامِيبِ همُ وقودُ النار

(١) مروج الذهب ٢ : ١٠٦

(٢) مروج الذهب ٢ : ٦٣

فنظر معاوية لعمر وقائلا : إن كنا لأغنياء عن هذا (١) .

هذه العصيات القديمة التي انتهت إلى الصورة الحزبية الناضجة التي قدمناها ، قد أوجدت في العصر الأموي معارضة قوية فعالة ، تخشى الحكومة بأسها ، فتأخذها باللين تارة ، حريصة على إرضائها ، وتأخذها بالعنف أخرى حين لا يكون بد من العنف . وكان موطن هذه المعارضة في الغالب هو العراق ، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة ، منها بعده عن مركز السلطان ، فالخارج على الحكومة ، يستطيع أن يجد له مهرباً إلى الشرق أو إلى الصحراء إذا انهزم ، فهو في مكانه هذا أبعد عن يد السلطان . وآمن على سلامته . لذلك اضطرب العراق بالثورات والحروب طوال العصر الأموي . ولم يعرف الاستقرار . إلا بعد إنتقال عاصمة الملك إليه ، بتيام الدولة العباسية . وقد أعان على هذا الاضطراب تباين البيئات فيه ، واختلاف المذاهب والآراء ، من زيرية وخوارج وشيعة . فهو مثابة الثأرين ، ومعقل الخارجين . وملجأ الهاربين . هذا والنازحون إلى العراق من البدو كثير . والجفاء وحب الخلاف غالب على خلقهم . فهم ينفرون من قيود القانون ، ولا يحتكمون إلا إلى السيف ، لأن اقتصاص السلطان لا يشفي صدورهم . فهو عندهم من مظاهر العجز . وخير ما يصور ضيق هؤلاء البدو بالقانون والنظام ، قول شبيب بن عرانة الطائي :

قضى بيننا مروانُ أميسَ قضيةً فما زادنا مروانُ إلا تنائياً
فلو كنتُ بالأرضِ النضاءِ لعفتُها ولكن أتتْ أبوابه من ورائيا

والبدوى لا يعتقد أن للسلطان حقاً فيما يستمتع به من سلطات . ولا يراه

إلا مغتصباً قد أكل أموال الناس . وراح يتصرف فيها على حسب ميله
وهواه . يقول عتبة الأسدى (١) :

معاوىَ إننا بشرٌ فأسجِحْ فلسنا بالجبال ولا الحديد (٢)
أكلتم أرضنا وجددتمونا فهل من قائمٍ أو من كصيد
فهبنا أمةً هلكت ضياعاً يزيدُ أميرها وأبو يزيد
أتطمعُ بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
ذرُّوا حَولَ الخِلافةِ واستقيموا وتأمينَ الأراذلِ والعبيد (٣)

(١) العقد الفريد ٦ : ١٦٨

(٢) السجح بضم السين والسجج اللين السهل .

(٣) الحول محرّكة ما أنعم الله على الرجل من النعم والعبيد والأماء وغيرهم من

الحاشية ، يستعمل للواحد وللجمع وللمذكر والمؤنث .

الهجاء السياسى

كان الهجاء السياسى من أظهر فنون الشعر فى العصر الاموى : فقد عرف معاوية وخلفاؤه ما للشعر من أثر فى نفوس الناس ، فحرصوا على أن يجمعوا حولهم أكبر قدر ممكن من الشعراء . ولم يحدوا حرجا من أن يتألفوا قلوب أصحاب النفوذ والجاه بالمال والعطاء ، وكان لهم فى رسول الله أسوة حسنة بما فعل من تشجيع الشعر ، وتألف الناس بالمال ، فى سبيل نشر الدعوة وإقرارها . ولازم هذه الحركات العنيفة والحروب المضطربة شعر كثير مضطرب عنيف يؤيد الطامعين فى الحكم والمخاربين فى سبيله ، ويهاجم خصومهم وأعداءهم . وبذلك عاد الشعراء مرة ثانية للظهور ، بعد أن اختفى أثرهم وخفت صوتهم منذ وفاة النبي . عادوا يحتلون من الحياة السياسية مكانا ممتازا ، ويشرفون على توجيه الرأى العام ، بما يذيعون من شعر ، فى تأييد أحزابهم ومعارضة أعدائهم ومنافسيهم . وحرص التمداد والزعماء والمطالبين بالملك عليهم . فاصبح الشعر - كما كان فى الجاهلية - نظير الرحم وقرينة . وشطر عدة المحارب وروح دعوته . وصحبرهم فى حربهم ، كما فعل عبد الرحمن ابن الأشعث ، حين خرج من سجستان مقبلا إلى العراق ، وبين يديه أعشى همدان ، قد تقدم الجيش على فرسه يرتجز : (١)

شطت نوى من داره بالايوان إيوان كسرى ذى القرى والريمان
فالبندنجين إلى طرد استنان فالجسر الكوفة فالغريتان
من عاشق أضحى بزابلستان إن ثقيفا منهم الكذبان
كذابها الماضى وكذاب ثان أمكن ربي من ثقيف همدان (٢)

(١) الطبرى ٥ : ٤٧ وديوانه ٣٤١

(٢) الكذاب الاول هو المختار بن عبيد الثقفى ويقصد بالكذاب الثانى الهجاج بن

يوسف الثقفى .

يوماً إلى الليل يُسَلَّى ما كان
 حين طغى في الكفر بعد الإيمان
 سار بِجَمْعِ كالدَّبِّي من قحطان
 بِجَحْفَلِ جَمِّ شديداً الأرنان
 يَنْبُتُ كالجَمِجَمِ مَذْحِجٍ وَهَمْدَانَ
 والحَيُّ من بكرٍ وقَيْسِ عِيلَانَ
 فَانْهَمُ ساقوه كَأَسِ الذَّيْفَانَ
 ومُلْحَقُوهُ بقرى ابن مروان (٣)

واعتمد الزعماء على الشعراء في إعداد الناس لما يدبرون من مشاريع ،
 يهدون لها بالشعر ليتحسسوا رأى الناس ، ومدى استعدادهم لقبولها ، قبل أن
 يفجئوهم بها ، كما فعل معاوية ، حين هم أن يباع لابنه يزيد ، مستحدثنا بذلك
 سنة ولاية العهد فأوعز إلى مسكين الدارمي أن يتكلم في ذلك فقال : (٤)

ألا ليتَ شِعْرِي ما يقول ابنُ عامرٍ
 ومروانُ أم ماذا يقول سَعِيدُ
 بَنِي خَلْفَاءِ اللَّهِ مهلاً فإنما
 يَبُوءُهَا الرَّحْمَنُ حَيْثُ يَرِيدُ
 إِذَا الْمَنْبَرُ الْغَرْبِيُّ خَلَّاهُ رَبُّهُ
 فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ

وحرصوهم على هجماء معارضتهم : عاملين على إذاعة هجائهم في المجالع
 والمحافل ، كما فعل عبد الملك بن مروان بأبي العباس الأعمى ، حين حج فطلب
 إليه أن ينشده هجماء ابن الزبير على ملامن الناس ، يقصد بذلك إلى التأثير فيهم ،
 وهو يعلم أن الحجاز معقل صحبه وأتباعه ، ومنشأ المعارضة القوية للحكم

(١) الدبى أصغر الجراد والنمل ، يريد كثرة هذا الجيش ، كما نقول نحن اليوم في
 تشبيها العامى عددهم كثير كالنمل .

(٢) الأرنان الصباح والماضي رن وأرن صاح .

(٣) الذيفان السم القاتل . ملحقوه بقرى ابن مروان يعنى الشام حيث يقيم الخليفة

عبد الملك بن مروان .

(٤) الأغانى ١٨ : ٧١

الأموى . قال صاحب الأغاني : حجج عبد الملك بن مروان ، فجلس للناس بمكة فدخلوا على مراتبهم ، وقامت الشعراء والخطباء فتكلموا ، ودخل أبو العباس الأعمى ، فلما رآه عبد الملك قال ، مرحباً بك يا أبا العباس ! أخبرني بخبر الملحد المحل . حيث كسا أشاعه ولم يكسك ، وأنشدني ما قلت في ذلك . فأخبره بخبر ابن الزبير ، وأنه كسا بنى أسد وأحلافها ولم يكسه ، وأنشده الأبيات : (١)

بني أسد لا تذكروا الفخرَ بينكم	متى تذكروه تكذبوا وتُحَمِّقُوا
بعيدات بين خيركم لصديقكم	وشركم يغدو عليه ويَطْرُقُ (٢)
متى تُسألوا فضلاً تَضِنُّوا وتبخلوا	ونيرانكم بالشر فيها تَحْرَقُ
إذا استَبَقَتْ يوماً قريشٌ وُجْدُكُمْ	بني أسدٍ سُكْتاً وذو المجد يسبقُ (٣)
تجيثون خلفَ القومِ سُوداً وجوهكم	إذا ما قريشٌ للأضاميمِ أَصْفَقُوا (٤)
وما ذاك إلا أن للؤم طابعا	يُلوح عليكم وَشْمُه ليس يَخْلُقُ

فقال عبد الملك ، أقسم على كل من حضر من بنى أمية وأحلافهم ومواليهم ثم على كل من حضر من أوليائى وشيعتى على دعوتهم ، إلا كسا أبا العباس . وبذلك أصبحت السياسة والحزبية حرفة يتكسب منها الشعراء . وهذا هو أعشى همدان ، يذكر ابن الأشعث ببلائه وصبره معه فى الشدة ، ويطالبه بشمن شعره وولائه . فى قصيدة طويلة منها : (٥)

(١) الأغاني ٥ : ٦٢

(٢) الطرق والطروق الاتيان بالليل ، والندو ضد الرواح ، والندوة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، بعيدات بين خيركم كذلك هى بالأصل ولعله محرف .

(٣) سكت جمع سكيت يوزن كيث وقد تشدد الكاف وهو آخر خيل الحلبة .

(٤) الضمة الحلبة فى الرهان والجمع أضاميم وهى جماعات الخيل . أصفقوا اجتمعوا .

وأصفق القوم على الشئ أطبقوا عليه .

(٥) ديوان أعشى قيس والاعشون الآخرون ص ٣٢٤ .

كم قد أُسدي لك من مدحة تُروى مع الصادر والوارد
وكم أجبنا لك من دعوة فاعرف فما العارف كالجامد
مالك لا تعطى وأنت امرؤ مُنرٍ من الطارف والتالد
تجبي سجيناً وما حولها مُتَكِنًا في عيشك الراغد
لا ترهبُ الدهرَ وأيامها وتجرُدُ الأرضَ مع الجارد
إن يكُ مكروهٌ تمجنا له وأنت في المعروف كالراقد
ثم ترى أنا سنرض بذنا كلا وربُّ الراكع الساجد
وحُرْمَةِ البيتِ وأستاره ومَن به من ناسك عابد
ما أنا إن هاجك من بعدها كهيجُ بآتيك ولا كابد
ولا إذا ناطوك في حلقة بجاملٍ عنك ولا ناقد
فأعط ما أعطيته طيبًا لا خير في المنكود والناكد (٦)
وأنجز الوعد إذا قلته ليس الذي يُنجزُ كالواعد

وقد أعان التشجيع من جانب الخلفاء والزعماء ، والطمع من جانب الشعراء ، على استحفال الهجاء السياسي ، فاستطار شره بين الناس ، حتى أصبحوا يجتمعون لذلك فينشدون أهاجيهم ، ولا يفترقون إلا بعد قتال ، كما كان يفعل سديف (١) مولى بني هاشم وشييب مولى بني أمية . قال أبو الفرج في أخبار سديف : شاعر مقل من شعراء الحجاز . ومن مخضرمي الدولتين . وكان شديد التعصب لبني هاشم ، مظهرًا لذلك أيام بني أمية . وكان يخرج إلى صحار صغار في ظاهر مكة ، يقال لها صغار الشراب (٢) ويخرج مولى لبني

(١) نكد فلان فلانا منعه ما سآله أو لم يطمه لا أكلة .

(٢) الأغاني ٤ : ٦٢

(٣) كذا بالنس . وفي الأغاني ٩ : ٧٥ ط . دار الكتب صفا السباب وهو أصح .

أمية معه يقال له سباب^(١). فيتشائمون ويذكران المثالب والمعائب. ويخرج معهم من سفهاء الفريقين من يتعصب لهذا ولهذا. فلا يرحون حتى يكون الجراح والشجاج، ويخرج السلطان إليهم فيفرقهم ويعاقب الجناة. فلم تزل العصبية بهم. حتى شاعت في العامة والسفلة. وكانوا صنفين، يقال لهم السديفية والسبائية^(٢). وقال في موضع آخر^(٣)، في قول الشاعر:

سكنوا الجزع جزع بيت أبي مو سى إلى النخل من صنى السباب

(وصنى السباب بفتح الفاء وكسرهما جميعاً. وهو شعب من شعاب مكة، فيها صفأ أى صخر مطروح، وكانت قریش تخرج فتقف على ذلك الموضع، فيفتخرون ثم يتشائمون، وذلك في الجاهلية، فلا يفترقون إلا عن قتال. ثم صار ذلك في صدر من الإسلام أيضاً، حتى نشأ سديف، مولى عتبة بن أبي سديف، وشيب مولى بني أمية، فكان هذا يخرج في موالى بني هاشم، وهذا في موالى بني أمية، فيفتخرون ثم يتشائمون ثم يتجادلون بالسيوف. وكان يقال لهم السديفية والشيبية. وكان أهل مكة مقتسمين بينهما في العصبية).

بل لقد غرى الناس بالهجاء. حتى أصبح بدعا في ذلك الوقت. وصاروا يتهاجون لغير خصومة، كلفا باللجاج والمراء. جاء البردخت إلى جرير، فقال: تهاجيني؟ قال: ومن أنت؟ قال أنا البردخت. قال: وما البردخت؟ قال: الفارغ بالفارسية. قال: ما كنت لأشغل نفسي بفراغك^(٤). ورحل قوم إلى عدى بن الرقاع ليهاجوه، فتقدمت إليهم بنته فقالت:

تجمعتن من كل أوبٍ ومنزل على واحدٍ لازلتن قرنٍ واحد

(١) كذا بالنس. وهو شيب. الأغاني ٩ : ٧٦ ط. دار الكتب

(٢) كذا بالنس والصواب الشيبية.

(٣) الأغاني ٩ : ١٧٥

(٤) الشعر والشعراء ٢٧٣

فانصرفوا عنه ولم يهاجوه^(١). وكان المغيرة بن حبياء يهاجى أخاه صخر ابن حبياء، ولهما قصائد يتناقضانها كثيرة. ^(٢) وكان ابن ميادة متعرضاً للشعر، طالباً للمهاجاة الشعراء ومسابة الناس. وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول:

اعرني مِيَادُ القوافي واستمعين ولا تخافى
ستجدين ابنك ذا قذاف^(٣)

ولأنكاد نعرف في هذا العصر شاعراً مشهوراً، إلا قد أخذ من الهجاء بنصيب. يقول ابن قتيبة في أخبار ذى الرمة: وإنما وضعه عندهم، أنه كان لا يجيد المدح ولا الهجاء^(٤).

واحتل المربد في العراق - موطن الفتن والاضطرابات والهجاء في العصر الأموي - مكان عكاظ من الحجاز في الجاهلية، فصار يجمع الناس في خصوماتهم الخاصة، وفي محافلهم السياسية العامة. يقول ابن عبد ربه قدم طلحة بن عبد الله والزيير بن العوام وعائشة أم المؤمنين البصرة، فتلقاهم الناس بأعلى المربد، حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان. فتكلم طلحة، وتكلمت عائشة، وكثر اللغظ. فجعل طلحة يقول: أيها الناس أنصتوا. وجعلوا يرهجون ولا ينصتون. فقال - أف! أف! فراش نار وذباب طمع!^(٥) وفي المربد كانت تنشده نقائض جرير والفرزدق. وكان لكل منهما حلقة معروفة ومكان معين يجتمع فيه بأصحابه. قال أبو فرج: وكان لراعي الأبل والفرزدق وجلسائهما حلقة معروفة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها. ثم أصبح (جرير)، حتى إذا عرف أن الناس قد أخذوا مجالسهم

(١) الشعر والشعراء ٢٣٧

(٢) الأغاني ١١ : ١٦٢

(٣) الأغاني ٢ : ٢٦٣، الشعر والشعراء ٢٩٨

(٤) الشعر والشعراء ٢١٠

(٥) العقد الفريد ٥ : ٧١

بالمربد - وكان جرير يعرف مجلس الراعى ومجلس الفرزدق - فدعا بدهن فادهن وأصلح وجهه ، حتى إذا كان بموضع السلام لم يسلم ، ثم قال : يا غلام قل لعبيد الراعى أبعثك نسوتك تكسبهم المال بالعراق ؟ والذى نفس جرير بيده لتؤوبن إليهن بمير يسوؤهن ولا يسرهن . ثم اندفع فى القصيدة (وهى التى يقول فيها بيته المشهور : فغض الطرف إنك من نمير) فتنكس الفرزدق رأسه ، وأطرق الراعى (١) . وفى المربد تهاجى النابغة الجعدى وأوس بن مغراء ، وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل ، وكلهم شارك فى المهاجاة يعين صاحبه بشعره . (٢) وكثيراً ما كانت تنتهى المهاجاة بالقتال كما يروى صاحب الأغاني فى خبر جرير والفرزدق . يقول : ولما تواقف جرير والفرزدق بالمربد للهجاء ، اقتتلت بنو يربوع وبنو مجاشع ، فأمدت بنو العم بنى مجاشع ، وجاؤوهم فى أيديهم الخشب ، فطردوا بنى يربوع ، فقتل جرير : من هؤلاء ؟ قالوا : بنو العم . فقتل جرير :

ما للفرزدق من عز يلوذ به إلا بنى العم فى أيديهم الخشب (٣)
وربما أنشد فيه الشعراء شعرهم فى غير الهجاء ، وقد خرجوا على الناس فى أحسن لباسهم وأبهى زيتتهم ، كما يروى أبو الفرج فى وقوف ذى الرمة بالمربد ، وقد اجتمع عليه الناس ، وهو قائم وعأيه برد قيمته مائتا دينار ، وهو يئشدد ودموعة تجرى على لحيته :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلِّ مفريقة سرب (٤)
وقد اختلفت صور الهجاء السياسى فى ذلك العصر وتعددت مذاهبه ، ففضى بعضه على الأسلوب الجاهلى الذى يقوم على العصبية القبلية : واتجه

(١) الأغاني ٢٠ : ١٦٩

(٢) الأغاني ٥ : ١٢

(٣) الأغاني ٣ : ٢٥٧

(٤) الأغاني ١٦ : ١٢٣

بعضه إلى مهاجمة أصحاب الدعوة والمحاربين في سبيل الملك، وإنكار حقهم في ذلك، وتتبع سقطاتهم، والتشنيع بأفعالهم وهفواتهم. وانصب بعضه الآخر على الولاة، مهاجماً سياستهم البعيدة عن العدل والانصاف، والمخالفة لما ألف الناس من عادات. وذهب فريق من الناس مذهب الساخط على كل هؤلاء الزعماء القرشيين، الذين امتلأت نفوسهم بالطمع، فجروا على الناس هذه الويلات، التي لا تعود عليهم بغير الشر والفناء.

أما شعر العصية فهـ، جاهلي في روحه وخصائصه، لم يتأثر بالمثل الإسلامية الجديدة في قليل أو كثير، فهو امتداد لشعر الحروب التي كانت تقع بين القبائل في الجاهلية. فالقيسي لا يحس أنه يقاتل من أجل ابن الزبير، وليس الذي يدفعه للقتال عداؤه للأمويين، ولكنه يمارب هذه القبائل اليمنية، التي عادت للظهور بعد أن أخماها الإسلام، وقضى على مجدها الجاهلي القديم. واليمنية — ومعظمهم من الشام — يقاثلون في سبيل الظهور إلى الحياة، واستعادة سلطانهم السياسي، وإقرار الملك في الشام بعد أن أزاله الإسلام ونزله إلى الحجاز، والأمويون عندهم مطية لتحقيق أغراضهم، وسبب لما يحاولون من السيادة والملك. والدارس لهذا اللون من ألوان الهجاء السياسي، يرى أن القيسي عميق الشعور بمضريته، واليمني عميق الشعور بيمينته. فالقيسي لا يحس أنه تابع لابن الزبير، ولكنه قيسى قبل كل شيء وبعد كل شيء. واليمني لا يحس أنه من جند معاوية أو مروان، ولكنه يمني أولاً وآخرًا. فالفريقان كلاهما لم يكدنا مدفوعين إلى القتال بفكرة سياسية حول نظام الملك أي أنواعه أصح، وأياها أدنى لتحقيق العدالة وإقامة الإسلام، ولكنهما كانا مدفوعين إليه بالعصيات الجاهلية والثارات القديمة، ولم تكن هذه الفتنة الإسلامية الجديدة إلا منفذاً أو ثغرة لهذه الحزازات، التي تلمست طريقها إلى الوجود عن طريق هؤلاء الزعماء الذين يتقاتلون على الحكم.

يقول زفر بن الحارث الكلابي في مرج راهط (١) :

أريني سلاحى لا أباك إننى أرى الحرب لا تزداد إلا تهاديا
أتانى عن مروان بالغيب أنه مقيده دمي أو قاطعه من لسانيا
ففى العيس منجاة وفى الأرض مهربه إذا نحن رفعنا لهن المثنائيا (٢)
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا ولا تفرحوا إن جتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على درمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا (٣)
أذهب كلب لم تنلها رماحنا وتترك قتلى راهط هي ما هيا (٤)
لعمرى لقد أبت وقية راهط لحسان صدعا بيننا متائيا
أمن بعد عمرو وابن معن تابعا ومقتل همم أمى الأمانيا (٥)
فلم تر منى نبوة قبل هذه فرارى وتركى صاحبى ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا أرى من الناس إلا من على ولايا
أينهب يوم واحد إن أسأته بصلاح أياي وحسن بلايا

(١) الطبرى ٤ : ٤١٨ ، ابن الأثير ٣ : ٣٢٩

(٢) المثنى معاطف الوادى ، وركبتا الدابة ومرقعاها والمعنى يصلح بكليهما .

(٣) الدمن أرواث البهائم المتلدة والأبمار . يقول إن الحقد الدفين يظل كامنا فى النفس وإن سترته مظاهر البشاشة كما أن المراعى الخضر الزاهية تنبت فوق الدمن فتخفيها عن الأعين ولكنها باقية كما هي .

(٤) كلب قبيلة يمنية تسكن بادية الشام أصهر إليهم معاوية ، منهم أم ولده يزيد . وقد كانوا منذ ذلك الوقت عصبية أموية . قتلى راهط يقصد وقعة مرج راهط وهي من المواقع العظيمة الحاسمة كانت بين الزبيرية بقيادة الضحاك بن قيس وبين الأمويين يقودهم مروان بن الحكم . وقد كان جند مروان فى هذه الواقعة من اليمنية (كلب وغسان والكاسك والسكون) وكان جند الضحاك من قيس عيلان . وقد قتل من القيسية فى هذه الواقعة عدد ضخم .

(٥) هؤلاء قيسية قتلوا فى مرج راهط .

فلا صلح حتى تنحط الخيلُ بالقنا
ألا ليت شعري هل تُصيينَ غارتى
فيجييه جواس بن قع-طل :

لعمري لقد أبتُ وقعة راهطٍ
مقيماً نوى بين الضلوع محلّه
تُبكيُّ على قتلى سليمٍ وعامر
كدعى بسلاح ثم أحجم إذ رأى
عليها كأسد الغاب فتیانُ نجدةٍ
ويجييه عمرو بن مخلاة الكلبى :

بكى زفرُ القيسى من هلك قومه
يُبكيُّ على قتلى أُصيبتُ براهط
أبجنا حمى للحى قيس براهط
يُبكيهم حرّان تجرى دموعه
فمعتُ كدماً أو عِشْ ذليلاً مهضماً
إذا خطرَت حولى قضاةُ بالقنا
خبَطتُ بهم من كادنى من قبيلةٍ

ويعز على زفر أن يقتل ابن الزبير وهو قرشى مضرى ، بينما يمدل وابن
بمدل - أخوال يزيد بن معاوية ينعمان بالحياة - وهما يمنيان فيقول :

(١) كلب وتوخ وطى قبائل يمنية اشتركت مع الامويين في مرج راهط .
(٢) سليم وعامر رذبيان قبائل من قيس عيلان .

أَفِي اللَّهِ أَمَا بِمُحَدَّلٍ وَابْنِ مُحَدَّلٍ فَيَحْيَا وَأَمَا ابْنُ الزَّبِيرِ فَيُقْتَلُ
كذبتُم وبيئتُ الله لا تقتلونَه
ولما يَكُنْ لِلْمَشْرِفِيَّةِ فَوْقَكُم شُعاعٌ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تَرَجَلُ
فيجيبه عبد الرحمن بن الحكم (أخو مروان) :

أَتَذْهَبُ كَلْبٌ قَدْ سَمَّيْتَهَا رِمَاحُنَا وَتُتْرِكُ قَتْلَى رَاهِطٍ مَا أُجِنَّتْ
لِخَالِ اللَّهِ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ إِنِّهَا أَضَاعَتْ ثَنُورَ الْمُسْلِمِينَ وَوَأَتْ
فَبِإِمْرِ بَقِيصٍ فِي الرِّخَاءِ وَلَا تَكُنْ إِخَاهَا إِذَا مَا الْمَشْرِفِيَّةُ سَلَّتْ
ومما يناسب هذا النوع شعر ابن ببيعة ، الذي قاله في فتح خالد للعراق
يتحسر على ما كان لليمنية من مجد في الجاهلية ، وما صاروا إليه من دفع الجزية
للخلفاء والحكام من مضر (١) .

أَبْعَدَ الْمُنْذَرَيْنِ أَرَى سَوَامًا تَرَوِّحُ بِالْخُورَنُقِ وَالسَّدِيرِ (٢)
وَبَعْدَ فَوَارِسِ الثُّعْمَانَ أَرَعَى قَلْوَصًا بَيْنَ مَرَّةٍ وَالْحَفِيرِ
فَضَرْنَا بَعْدَ هَلْكَ أَبِي قُبَيْسٍ كَجَزْبِ الْمَعْزِ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ (٣)
تَقَسَّمْنَا الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ عِلَانِيَةً كَأَيْسَارِ الْجَزُورِ (٤)

(١) الطبرى ٢ : ٥٦٦

(٢) النذان ملوك الحيرة هما المنذر بن النعمان الذى بنى الخورنق والمنذر بن ماء السماء .
وماء السماء أمه كانت مشهورة بحسنها وجمالها وأبوه الأسود بن النعمان بن المنذر . الخورنق
والسدير قصران مشهوران لملوك الحيرة .

(٣) أبو قبيس يقصد أبا قابوس النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبياني .

(٤) هو معد بن عدنان الجد الأكبر لعرب الشمال من ربيعة ومضر . ويقابله قحطان
الجد الأكبر لعرب الجنوب من كهلان وحير . وملوك الحيرة والشام من عرب الجنوب
يقول الشاعر . بعد أن كان عرب الجنوب من القحطانية ملوك الناس أصبح عرب الشمال
ملكون عليهم ويتسمونهم بينهم كما يتقسم لاعبو الميسر الجزور . والجزور من الإبل الناقة
أو الجمل يطلق على الذكر والأثى .

وَكُنَّا لَا يُرَامُ لَنَا حَرِيمٌ فَنَحْنُ كَضَرَّةِ الصَّرْعِ الْفَخُورِ
 نُؤَدِّي الْخُرْجَ بَعْدَ خُرَاجِ كِسْرَى وَخَرَجَ مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ
 كَذَاكَ الدَّهْرُ دَوْلَتُهُ سِبْجَالُهُ فَيَوْمٌ مِنْ مَسَاءَةٍ أَوْ سُرُورِ
 ومنه شعر النجاشي ، في معارضة سياسة معاوية إزاء اليمنيين في الحروب ،
 إذ كان يغزيهم في البحر ويغزي تميما في البر (١) :

أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ الَّذِينَ تَجَمَّعُوا بَعَكَا أَنْاسُ أَنْتُمْ أَمْ أَبَاعِرُ
 أَتُنْرَكُ قَيْسُ أَمْنِينَ بِدَارِهِمْ وَنَرَكُبُ ظَهَرَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ زَاخِرُ؟
 فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى وَإِنِّي لَسَائِلُ أَهْمَدَانَ تَحْمِي ضِيَمَهَا أَمْ يَحْكُمِرُ؟
 أَمْ الشَّرْفُ الْأَعْلَى مِنْ أَوْلَادِ حَمِيرَ بَنُو مَالِكٍ أَمْ تَسْتَمِرُّ الْمَرَائِرُ (٢)
 أَوْصَى أَبُوهُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ تَوَاصَلُوا وَأَوْصَى أَبُوكُمْ بَيْنَكُمْ أَنْ تَدَابَرُوا؟

وهناك نوع جديد من هذا الهجاء العصبي لم يعرفه الجاهلون ، هو هجاء الإقليم . وهو يصور تعلق الناس بأوطانهم التي نزحوا إليها ، وشعورهم برابطة جديدة تجمعهم على اختلاف قبائلهم ، هي الإقليم . فالعربي الذي لم يعرف الاستقرار في الجاهلية ، ولم تكن تحركة إلا العصبية للأفراد من قبيلته ، قد بدأ يحس بشيء من العطف نحو الأرض التي سكنها واستقر فيها وتعلق بها . ومن أمثلة هذا النوع ، هجاء أعشى همدان لأهل العراق ، في تلونهم وإرصادهم الفتنة ونكوصهم في الحروب :

أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يُتَمِّمَ نورهَ وَيُطْفِئَ نورهَ الْفَاسِقِينَ فَيُخَمِّدَا

(١) خزائن الأدب ٣ : ٢٥٥

(٢) همدان قبيلة يمنية . وحيد أحد فروع قحطان من عرب الجنوب ومالك هو مالك ابن حيد وهو جد لعدة قبائل منها كلب وعذرة ونهد وجرم وغيرهم . المرة بكسر الميم وتشديد الراء القوة . وأمر الجبل على البناء للمجهول شد قتله . استمر مريره واستمرت مريرته استحك .

ويُظهِرَ أَهْلَ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَيُنزِلَ ذَلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ
وَمَا أَحَدْتُوا مِنْ بِدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ وَمَا نَكثُوا مِنْ بَيْعَةٍ بَعْدَ بَيْعَةٍ
وَجُبُنَّا حِشَاءَ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ فَلَا صِدْقَ فِي قَوْلٍ وَلَا صَبْرَ عِنْدَهُمْ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ فَرَّقَ جَمْعَهُمْ فَقَتَلَهُمْ قَتْلًا ضَالًّا وَفْتَنَهُ
وَمِنْهُ هَجَاؤُهُ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ مَفْتَخِرًا عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْجَمَلِ :

أَكْثَعَ الْبَصْرِيِّ إِنْ لَأَقَيْتَهُ وَإِنَّمَا يُكْسَعُ مِنْ قَلِّ وَذَلَّ (٢)
وَاجْعَلِ الْكُوفِيَّ فِي الْخَيْلِ وَلَا تَجْعَلِ الْبَصْرِيَّ إِلَّا فِي النَّفْلِ (٣)
أَفْخَرْتُمْ أَنْ قَتَلْتُمْ أَعْبَادًا وَهَزَمْتُمْ مَرَّةً آلَ عَزَلٍ
نَحْنُ سُقْنَاهُمْ إِلَيْكُمْ عَنُوءَةً وَجَمَعْنَا أَمْرَكُمْ بَعْدَ فَشَلِّ
وَإِذَا فَخَرْتُمُونَا فَاذْكُرُوا مَا فَعَلْنَا بِكُمْ يَوْمَ الْجَمَلِ
بَيْنَ شَيْخِ خَاضِبٍ عَشُونَةٍ وَفَتَى أَبْيَضٍ وَضَّاحٍ رَقِيلٍ (٤)

(١) الصيد محرّكة بفتح الصاد داء بالنعق لا يستطيع أن يلتفت معه . والمقصود به هنا الكبير .

(٢) كسعه مثل منعه ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٣) النفل محرّكة بالفتح الفنيمة وجمعها أنفال . يقول إن الكوفي يصلح للقتال أما البصري فهو لا يصلح إلا لاقتسام الغنائم .

(٤) العشون بضم العين اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين . وإنما يخضب الرجل لحيته إذا شاب ليفطى بالخصاب شبيهه . رفل مختال يتبختر .

جاءنا يَهْدِجُ في سابقِ فذبحناه ضحى ذَبَحَ الجمل^(١)
 وعفونا ففستيم عفونا . وكفرتم نعمة الله الأجل
 وقتلتم خشبيين بهم بدلاً من قومكم شرَّ بدل

ومنه هجاؤه لمسكران — والظاهر أنه قد سار إليها غازياً على كره منه —
 وشعره هنا يصور إلى جانب النزعة الأقليمية ضيقاً بالغزو ، وبما يلقي الجند
 من عنت ، يجره الإيغال في الفتوح . يقول الأعشى بعد تشبيب طويل يبلغ
 ستة وثلاثين بيتاً :

وأنت تسير إلى مكران فقد شحطَ الوردُ والمصدر
 ولم تك من حاجتي مكران ولا الغزو فيها ولا المتجبر
 وخبرتُ عنها ولم آتها فما زلت من ذكرها أذعر
 بأن الكثير بها جائع وأن القليل بها مقتر
 وأن ليلى الناس من حرها تطول فتجلم أو تضر
 ويزعم من جاءها قبلنا بأننا سنسهم أو نحر
 أعود بربي من المخزيات فيما أسر وما أجهر
 وحدثت أن مالنا رجعة سنين ومن بعدها أشهر
 إلى ذاك ما شاب أبناؤنا وباد الأخلاء والمعشر
 وما كان بي من نشاط لها وإني لذو عداوة مؤسر
 ولكن بعثت لها كارهاً وقيل انطلق للذي يؤمر

(١) الهدجان والهداج بضم الهاء مشية الشيخ المرتمة . سابة درع سابة تطفى
 سائر الجسم .

فكان التَّجَاهُ ولم أَلْتَفِتْ إليهم وشرُّهم منكراً
هو السيفُ جُرْدٌ من غِمْدِهِ فليس عن السيفِ مُسْتَأْخِرٌ
وكم من أخٍ لي مُسْتَأْسِيسٍ يظل به الدمعُ يُسْتَعْسِرُ
يُودِّعُنِي وَاثْنَحْتُ عَبرَةً له كالجداولِ أو أغزر
فلست بلاقيه من بعدها يَدَ الدهرِ ما هَبَّتِ الصَّرَصَرُ
وقد قيل إنَّكُمْ عابِرو ن بحراً لها لم يكن يُعْبَرُ
إلى السندِ والهندِ من أرضهم هم الجنُّ لكنهم أنكَرُ
وما رامَ غزوا لها قبلنا أكبرِ عادٍ ولا حَمِيرُ
ولا رامَ سابُورُ عَزَوا لها ولا الشيخُ كسرى ولا قَيْصَرُ
ومن دونها مَعْبَرٌ واسعٌ وأجرٌ عظيمٌ لمن يُوجِرُ!

ومن الهجاء الذي تظهر فيه عصية الإقليم، قول عدى بن زيد بن عدى
ابن الرقاع العامل، في حرب مصعب بالعراق (١):

لعمري لقد أَصْحَرَتْ خيلنا بأكنافِ دجلةَ للمُصْعَبِ (٢)
إذا ما مُتَافِقُ أهْلِ العِراقِ عَوْتُبُ نُمْتٍ لم يُعْتَبِ (٣)
كَلَفْنَا إليه بَدِي تَدْرِي قَلِيلِ التَّقَدُّ لِلغُيِّبِ (٤)
يُهِزُونَ كُلَّ طَوِيلِ القَنَاةِ مِلْتَمِ النَّصْلِ وَالثَّغْلِبِ (٥)

(١) الطبري ٥ : ٢

(٢) أصحرت خرجت للصحراء .

(٣) أعتبه سره بعد ما ساءه . والاسم منه العتي .

(٤) دلف الشيخ والمقيد دليفاً ودلوفاً وهو فوق الديب . درأ العدو دفعه وذو

تدرء قوى على دفع أعدائه .

(٥) الثغلب رأس الرمح .

كَانَ دُعَاهُمْ إِذَا مَا غَدَوْا ضَجِيحُ قَطَابِلِدٍ مُخْصِبِ
فَقَدَّمْنَا وَاضِحٌ وَجْهَهُ كَرِيمُ الضَّرَائِبِ وَالْمَنْعِبِ
أَعَيْنَ بَنَّا وَنُصِرْنَا بِهِ وَمَنْ يَنْصُرُ اللَّهَ لَمْ يُغْلَبِ

ومنه شعر نعيم بن هبيرة الشيباني ، الذي كتب به إلى أخيه مصقلة بن هبيرة ،
وقد انتقل إلى الشام ، وانضم إلى جند معاوية ، ثم أرسل إلى أخيه يطمعه
في ترك علي ، والانضمام لمعاوية (١) :

قَد كُنْتَ فِي مُنْظَرٍ عَن ذَا مُسْتَمَعٍ تَحْمِي الْعِرَاقَ وَتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانَا
حَتَّى تَقْعَمْتَ أَمْرًا كُنْتَ تَكْرَهُهُ لِلرَّاكِبِينَ لَهُ سِرًّا وَإِعْلَانَا
لَوْ كُنْتَ أَدَيْتَ مَا لِلْقَوْمِ مِصْطَبِرَا لِلْحَقِّ أَحْيَيْتَ أَحْيَانَا وَمَوْتَانَا
لَكِنْ لَحِقْتَ بِأَهْلِ الشَّامِ مُلْتَمِسَا فَضْلَ ابْنِ هَنْدٍ وَذَاكَ الرَّأْيَ أَشْجَانَا
ومنه قول النجاشي في هجاء أهل الكوفة (٢) :

إِذَا سَقَى اللَّهُ أَرْضًا صَوَّبَ غَادِيَةً فَلَا سَقَى اللَّهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ الْمَطْرَا
التَّارِكِينَ عَلَى طَهْرٍ نَسَاءَهُمْ وَالنَّاكِحِينَ بِشَطَى دَجَلَةَ الْبِقْرَا
وَالسَّارِقِينَ إِذَا مَا جَنَّ لِيَاهُمْ وَالتَّالِيِينَ إِذَا مَا أَصْبَحُوا السُّورَا
ومما تظهر فيه عصبية الشام وعصبية العراق ، شعر ابن جعيل يعارض
عليًا ، ويتهمه بايواء قتلة عثمان والإغضاء عنهم (٣) :

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُهُ مُلْكُ الْعِرَاقِ وَأَهْلُ الْعِرَاقِ لَهَا كَارِهُونَا

(١) الطبري ٤ : ١٠١

(٢) الشعر والشعراء ١١٥

(٣) وقمة صفين ٦٣

وكلُّ لصاحبه مُبْغِضٌ يَرَى كلَّ ما كان من ذلك دينا
 إذا ما رمونا ورميناهم ودنأهم مثل ما يُقرضونا
 وقالوا علىُّ أمامٌ لنا فقلنا لهم لا نرى أن نديننا
 ومن دون ذلك خرطُ القتاد وضربٌ وطعنٌ يُقرُّ العيوننا
 وكلُّ يُسرُّ بما عنده يرى غثاً ما في يديه سمينا
 وما في عليٍّ لمستعربٍ مقالٌ سوى ضمّه المُحدِثينا^(١)
 وآيثاره اليومَ أهلَ الذنوب ورفع القصاص عن القاتلينا
 إذا سئلَ عنه حداً شُبُهَةً وعمى الجواب على السائلينا^(٢)
 فليس براضٍ ولا ساخطٍ ولا في النهأة ولا الأمرينا
 ولا هو ساءٌ ولا سرَّةٌ ولا بد من بعض ذا أن يكونا

وإذا تجاوزنا هذا اللون المتغلب الرجعي من الهجاء السياسي ، وجدنا شعراً قد تخطى هذه النزعات القبلية ، ليصور حياة أرقى وتفكيراً أسمى من الناحية الاجتماعية ، ونظرة أوسع وأعماً أشمل من الناحية الوطنية . فهو يترفع عن الفكرة القبلية الضيقة ، ويناقش نظام الحكم في هذا الوطن الجديد الواسع ، مهاجماً هذا أو ذاك من الطامعين في الملك ، معارضاً حقهم فيه . وهذا الشعر يتميز بإدراكه للحياة الجديدة ، وتأثره بمثل الإسلام وأسلوب القرآن . فالشعراء هنا لا يستمدون نغزهم وهجاءهم من قديمهم الجاهلي ، ولكنهم يستمدونه من حياتهم الإسلامية ، وما لهم فيها من سابقة وفضل ، ويزنون الأمور بالمعايير الإسلامية الجديدة . وما يصور هذا اللون ، شعر

(١) يقصد بالمحدثين قتلة عثمان . يتهم علياً بايوأثم .

(٢) إذا سئل يقصد إذا سئل عن القصاص من قتلة عثمان . حدا شبهة سألها .

سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ، في قتل مصعب لزوجته المختار بن عبيد الثقفي ،
وهي بنت النعمان بن بشير (١) :

أتى راكبٌ بالأمر ذى النبأ العجَبُ بقتل ابنة النعمان ذى الدِّين والحسبِ
بقتل فتاة ذاتِ دلٍّ وسيرة مهذبَةٌ الأخلاقِ والنجيمِ والنسبِ
مُظَهَّرَةٌ من نسل قومٍ أكارِمِ من المؤثرين الخيرِ في سالفِ الحُقبِ
خليلِ النبيِّ المصطفى ونصيرِهِ وصاحبه في الحرب والنكبِ والكُربِ
أتانى بأنِّ الملحدين توافقوا على قتلها لا جُنبوا القتلَ والسلبِ
فلا هنأتِ آلَ الزبيرِ معيشةً وذا قوا لباسَ الذلِّ والخوفِ والحربِ
كانهم إذ أبرزوها وقُطعتْ بأسيا فمهم فازوا بمملكةِ العربِ
ألم تعجبِ الأقوامُ من قتلِ حُرَّةٍ من المحصناتِ الدينِ محمودِ الأدبِ
من الغافلاتِ المؤمناتِ بريئةٍ من الذمِّ والبُهتانِ والشكِّ والكذبِ
علينا كتابُ القتلِ والبأسِ واجبٌ وهن العِفافُ في الحِجالِ وفي الحُجُبِ
على دينِ أجدادِها وأبوتهِ كرامِ مضتْ لم تُخزِ أهلاً ولم تُربِ
من الخلفراتِ لاخروجِ بديَّةٍ ملايمةً تبغى على جارها الجُنُبِ
ولا الجارِ ذى القربى ولم تَدْرِ ما الخنا ولم تَرُدِّفِ يوماً بسوءٍ ولم تُحِبِ
عجبتُ لها إذ كُنَّتِ وهي حية ألا إن هذا الخطبَ من أعجبِ العجَبِ

فهو هنا لا يعير مصعباً ضعفه أو نخول أجداده ، مستعينةً على ذلك
بتاريخهم ومن أذلم من القبائل وغلبهم ، ولسكنه يعيره خروجه على الدين
الذى يدعو باسمه ، محتجاً عليه بأنه قد أباح دم مسلمة لا يحل له قتلها ، مستنداً

إلى صنيع قومها في الإسلام ، وسابقتهم في نصر النبي . وهذا الشعر واضح التأثر بالقرآن في ألفاظه وأسلوبه ومبادئه الأخلاقية ، في مثل قوله (وذاقوا لباس الذل والخوف والحرب) ، وقوله (علينا كتاب القتل والبأس واجب) وقوله (على جارها الجنب) ؛ ثم (ولا الجار ذى القربى) .

وبعض هذا الهجاء منصب على نظام الحكم ؛ مثل شعر عبد الله بن هشام السلولى فى مبايعة معاوية لابنه يزيد ، وهو يهاجم نظام الوراثة الذى ابتدعه معاوية ، قائلاً إنه كسروية ليس من الإسلام فى شىء (١) :

فإن تأتوا بربمة أو بهندٍ نبايعها أميرة مؤمنينا (٢)
إذا مامات كسرى قام كسرى نعدُّ ثلاثةً مناسقينا
فيا لهفا لو أن لنا أوفاً ولكن لا تعود كما عيننا
إذا لضربتمو حتى تعودوا بمكة تلعمون بها السخيننا (٣)
حشيننا الغيظ حتى لو شربنا دماء بنى أمية ماروينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا

وبعضه منصب على أشخاص الحكام ، ونقد سياستهم ، واتهامهم بمجافاة الدين والخروج على الشرع فيما يفعلون ، مثل شعر جارية بن قدامة السعدى ، يندد بما فعل طلحة والزبير ، من إخراج عائشة أم المؤمنين للقتال ؛ وقد أمرها الله أن تقر فى بيثها (٤) :

(١) سروج الذهب ٢ : ٧٠

(٢) رملة بنت معاوية وهند أمه . يسخر به ويقول كنا مستمدين لأن نبايع بالخلافة لامرأة ما دمت تريد ذلك وتفرضه على الناس .

(٣) السخينة كسفينة طعام رقيق يتخذ من دقيق . وهو لقب لقريش كانت تعبر به لاتخاذها إياه .

(٤) الطبرى ٣ : ٤٨٢

صُنْتُمْ حَلَالِكُمْ وَقُدْتُمْ أُمَّكُمْ هذا لعمرك قلةُ الإنصافِ
أمرت بجرِّ ذيوها في بيتها فهوتْ تشقُّ البيدَ بالإيجافِ
غرضاً يُقاتل دونها أبنائُها يانبُل والخطى والأسيافِ
هتكتْ بطلحة والزبير سُورُها هذا المُخبِرُ عنهم والكافي

وقول عمرة بن بحرة ، يلومها على خروجها للقتال ، وتحريضها على سفك
الدماء (١) :

يا أمنا أعقَّ أمِّ نعلم والأمُّ تغذُو ولدًا وترحم
ألا ترين كم شجاع يُكلم وتُخلى منه يدٌ ومِعْصم!

وقول ابن أم الكلاب لها ، يتهمها بتسيب الناس على عثمان ، إذ تقول
(اقتلوا نعتلا فانه قد كفر) حتى إذا قتل واجتمع الناس على بيعة على ،
قامت تطالبه بدم عثمان (٢) :

منك البداء ومنك الغيرُ ومنك الرياحُ ومنك المطرُ
وأنتِ أمرتِ بقتل الأمام وقلتِ لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمرُ
ولم يسقط السقفُ من فوقنا ولم ينكسفْ شمسنا والقمرُ
وقد بايع الناسُ اذ تدرأئِ يُزيلُ الشبَّا ويُقيم الصعرُ (٣)
ويلبسُ للحربِ أثوابها وما منَ كوفي مثلَ منَ قد غدر

(١) الطبرى ٣ : ٢٥٦

(٢) الطبرى ٣ : ٤٧٧

(٣) الدرء الدفع وذو تدرأ قوى على مدافعة العدو . الشبا جمع شباة وهى المقرب
ساعة تولد وإبرتها وحد كل شيء . والشبا كذلك الطحلب وهو أقرب للمتصود هنا أى
يزيل الشوائب . الصعر الميل فى الحد خاصة وهو وصف المتكبر .

هذا شعر يناقش المسائل على ضوء الدين ، مروياً فيها متفكراً . وهو يذهب في هذا التفكير إلى أبعد حدوده ، فلا يتحرج من أن ينقد شخصاً له حرمة وقداسة كأم المؤمنين ، وأن يهاجمها في قسوة وعنف :

ومن هذا النوع شعر أبي حرة — مولى ابن الزبير — في هجائه ، بعد أن انصرف عنه لبخله . وقد كان ابن الزبير لا يزال يقول للناس : إنما بطني شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائد بالبيت (١) :

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها حتى فؤادى مثل الخز في اللين
لو كان بطنك شيراً قد شبت وقد أفضت فضلاً كثيراً للمساكين
إن أمراً كنت مولاه فضيئعي يرجو الفلاح اعمرى حق مغبون
وكذلك شعر الضحاك بن فيروز الديلمي فيه :

تُخبرنا أن سوف تكفيك قبضة وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قصمته كما قصمت نار الغصى حطب السدر
فلو كنت تجزى أو تُثيبُ بنعمة قريباً لردنك العطوف على عمرو (٢)
وشعر أبي الطفيل عامر بن وائلة ، يؤيد ابن عباس في دعوتهما للعلويين ويهجو ابن الزبير لتضييقه عليهما ، ومنع الناس من لقاءهما والجلوس إليهما (٣) :

لا درّ درّ الليالي كيف تُضحكننا منها خطوبٌ أعاجيبٌ وتُبكيكنا

(١) مروج الذهب ٢ : ٩٩

(٢) عمرو بن الزبير أخوه وقد كان خارجاً عليه يحاربه مع جند انشام . خرج في جيش لحربه في أيام يزيد فانهزم ، وظفر به أخوه عبد الله بن الزبير ، فأقامه بباب المسجد الحرام مجرداً ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات .

(٣) خزنة الأدب ٤ : ٣٠

كنا نجىء ابنَ عباس فيُقْبَسُنَا فضلاً ويُكسبنا أجراً ويهدينا
ولا يزال عبيدُ الله مترعةً جفانه مطعماً ضيفا ومسكينا
فالبرُّ والدينُ والدنيا بدارهما ننالُ منها الذي نبعى إذا شيئا
إن النبيَّ هو النورُ الذي كُشِفَتْ به عَمَايَاتُ باقينا وماضينا
ورهُطُهُ عِصْمَةٌ فِي دِينِنَا وَلَمْ فضلٌ عَلَيْنَا وَحَقٌّ وَاجِبٌ فِينَا
ولستَ — فاعلمه — أولاً نأبهم رحماً يا ابن الزبير ولا أولى به ديناً
فِيمَ تَمَنَعُهُمْ مَنَا وَتَمَنَعْنَا منهم وتؤذيهم فينا وتؤذيها
لَنْ يُؤْتِيَ اللهُ مَنْ أَخْرَى بِيغْضَهُمْ فِي الدِّينِ عِزًّا وَلَا فِي الأَرْضِ تَمَكِينًا
وكذلك شعر أنس بن أبي إياس فيه ، حين تزوج عائشة بنت طلحة ،
ودفع صداقها ألف ألف دينار (١) :

أبلغ أميرَ المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يريد خداعا
بُضْعُ الفِئْتَةِ بِأَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وتبیتُ ساداتُ الجنودِ جِيعاً (٢)
لو لأبي حفصٍ أقولُ مقالتى وأقصُ شأنَ حَدِيثِكُمْ لارتاعاً (٣)
وكذلك شعر كثير فيه ، وقد سجن الحسن بن محمد بن الحنيفة ، ومعه
خمسة عشر رجلا من بني هاشم (٤) :

تُخْبِرُ مَنْ لاقيتَ أنك عائدٌ بل العائدُ المظلومُ فِي سِجْنِ عَارِمٍ (٥)

(١) الشعر والشعراء ٢٨٤

(٢) البضع بالفتح القطع والشوق والتزوج وبالضم مهر النكاح .

(٣) أبو حفص كنية عمر بن الخطاب .

(٤) الكامل للمبرد : ٢٤٥ : ١٦٥

(٥) سجن عارم حبس مشهور كان هوحشا مظلم . حبس فيه ابن الزبير الحسن بن =

ومن يَلْقَ هذا الشَيْخَ يَأْخِيفُ مِنْ مَنْى من الناسِ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ ظالِمٍ
سَمِيَّ النَّبِيِّ المِصْطَفَى وابنُ عمِّه وَفَكَأَكُ أَغْلالٍ وَقاضِي مَغَارِمِ
ومن هذا النوعِ شعْرُ عْتَبَةِ الأَسَدِيِّ فِي هِجَاءِ مِعاوِيَةَ ، يَتَهَمُهُ بِالشَّرِّهِ فِي جَمْعِ
المالِ ، وإفْسَادِ أَمْرِ الناسِ ، بِتَأْمِينِ الأَراذِلِ وَالعَبِيدِ (١) :

مِعاوِيَةَ إِننا بَشَرُهُ فَأَسْجِحُ فَلِستنا بِالْجِبَالِ وَلا الْحَدِيدِ (٢)
أَكَلْتُمْ أَرْضَنَا وَجَدَدْتُمونا فَهَلْ مِنْ قائِمٍ أَوْ مِنْ حَصيدِ
فَهَبْنَا أُمَّةً هَلَكْتَ ضِياعاً يَزِيدُ أَميرُها وَأبو يَزِيدِ
أَتَطْمَعُ بِالْخُلُودِ إِذا هَلَكْنا وَليس لَنا وَلا لَكَ مِنْ خُلُودِ
ذَرُوا خَوْلَ الخِلافةِ وَاسْتَقِيموا وَتَأْمِينِ الأَراذِلِ وَالعَبِيدِ

وَشِعْرُ رِجْلِ مِنَ الأَنْصارِ ، يَتَهَمُهُ بِأَنَّهُ يَتَخَذُ دَمَ عِثْمانِ سِتاراً ، يَخْفَى وَرِاءَهُ
طامِعُهُ فِي المَلِكِ (٣) :

مِعاوِيَةَ إِنَّ الحَقَّ أَبلِجُ وَاضِحٌ وَليس بِما رَبَّصْتَ أَنْتَ وَلا عَمْرُو
نَصَبْتَ ابنَ عِفاَنِ لَنا اليَوْمَ خُدْعَةً كَمَا نَصَبَ الشَيْخانِ إِذْ زُخْرِفَ الأَمْرُ (٤)
فَهِذا كَهَذاكَ البِلا حَدَوْ نَعْلِهِ سِواءٌ كَرَّ قِراقٍ يُغْرِبُهُ السَّفَرُ
رَمِيْتُ عَليّاً بِالذِي لا يَضُرُّهُ وَإِنْ عَظمت فِيهِ المَكِيدَةُ وَالْمَكْرُ

== مُحَمَّدِ بْنِ الحَنْفِيَّةِ وَأَرادَ قَتْلَهُ . فَأَعْمَلِ الحِيلَةَ حَتَّى تَحْمِلَسَ مِنْهُ ، وَتَعَسَفِ الطَّرِيقَ عَلى الجِبالِ
حَتَّى أَتَى مَنْى وَبِها أَبُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ الحَنْفِيَّةِ .

(١) العَقْدُ الفَرِيدُ ٦ : ١٦٨

(٢) سَجِحَ الخَدُّ كَفَرِحَ سَجِحا وَسَجِحا سَهْلٌ وَلازٍ وَطالٌ فِي اِعْتِدالِ وَفَلَّةٌ لَحْمٌ .
وَاسْجَحَ بِضَمَّتَيْنِ اللَّيْنِ السَهْلِ . وَالأَسْجَحُ اِحْسَنُ المَعْتَدِلِ .

(٣) وَقَمَةُ صَفِينِ ٧١

(٤) الشَيْخانِ يَقْصِدُ بِهِما طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ .

وما ذنبه أن نال عثمانَ معشره أتوه من الأحياء يجمعهم مِصرُ
 فنار إليه المسلمون ببيته علانيةً ما كان فيها لهم قسر
 فبايعه الشيخان ثم تحملاً إلى العُمرَة العظمى وباطنها الغدر
 فكان الذي قد كان مما اقتصاصه رَجِيعُ فيالله ما أحدثَ الدهرُ
 فما أنتم والنصر منا وأنتم بعيناً حروبٍ ما يبوخُ لها الجِرُّ
 وما أنتم الله درُّ أبيكمَا وذكر كما الشورى وقد فَلَجَ الفجرُ

وبعض هذا الهجاء السياسي ، يصور ضيقاً شديداً بزعماء هذه الأمة ،
 الذين قادوها إلى ما صارت إليه من التطاحن وسفك الدماء . فقد أيقظت
 هذه الأحداث المتتابعة عقول الناس ، وفتحت عيونهم على ما حولهم ،
 وأخرجتهم من سذاجتهم ، فلم يعودوا يحسنون الظن بقائد من قوادهم ،
 أو زعيم من زعمائهم ، فكلهم متهاك على حطام الدنيا ، لا يدفعه إلا الجشع
 والغرور ، يقولون غير ما يعملون ، ويضللون الناس بما يظهرون من النسك
 والورع ، والحرص على إقامة الدين وإعلاء شأنه ، واتهام خصومهم بالمروق
 والتهاون في الأخذ بسننه . مل الناس هذا الرياء ، ولم يعد من السهل خداعهم
 بالخطب والوعود ، بعد أن أسرع هذه المعارك بالتفكير إلى النضج ،
 ونهت ملكة النقد ، ففتحت بذلك باب الهجاء الاجتماعي ، الذي نضج
 في القرن الثاني الهجري ، ثم بلغ الذروة على يد المتنبي والمعري :

فمن الشعر الذي يصور ضيق الناس بما آل إليه أمرهم من اضطراب
 وخلاف ، قول الصلتان العبدى (١) :

أرى أمةً شهَّرتْ سيفها وقد زيدَ في سوطها الأصبَحى (٢)

(١) الكامل للمبرد ٢ : ١١٨

(٢) الأصبَحى السوط نسبة إلى ذى أصبح من ملوك اليمن .

بِنَجْدِيَّةٍ وَحَرُورِيَّةٍ وَأَرْزَقَ يَدْعُو إِلَى أَرْزُقِي^(١)
فَمَلَّئْنَا أَنَا الْمَسْلُومَ عَلَى دِينِ صِدِّيقِنَا وَالنَّبِيِّ
وَمِنْهُ :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كُرُّ الغداة ومرُّ العشي
إذا ليلةٌ هَرَمَتْ يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتى
نروحُ ونغدو لحاجاتنا وحاجةٌ من عاش لا تنقضى
تموتُ مع المرء حاجاته وتبقى له حاجةٌ ما بقي
ومنه شعر على بن الزبير الزنوي . وهو يرى أن الناس لا يتأملون
إلا من أجل قريش ، فهم في الحتمية أصل النمر وأس البلاء ، ومن الخير
للناس أن يدعوهم وشأنهم ، ولا يهلكوا أنفسهم في سبيلهم^(٢) :

من مبلغٌ قيسَ بن عيلانَ كلَّها بما أحتازَ منها أرضَ نجدٍ وشاهها
فلا تهلكنكم فتنَةٌ كلُّ أهلها كحيران في طخياء داج ظلامها
فشانَ قريشٍ والخصومةَ بينها إذا اختصمت حتى يقومَ إمامها
همُ اخذوها بين حثفٍ معجلٍ وخطهٍ خسفٍ لا تزال تسامها
فضموا جناحيكم إلى مرُجِحِنَةٍ معاً حربها إن حاربتْ أو سلامها
وشيموا سيوفَ الهندِ حتى تَبَيَّنُوا على أَىِّ أعداءٍ يُسَلُّ حسامها^(٣)

(١) النجدية والأزارقة فرنتان من الموارج والحرورية اسم للخوارج سموا بذلك
لأنحيازهم إلى حروراء بعد صفين .

(٢) ننائض جرير والأخطل ٢٣

(٣) شام من الأضداد في اللغة تقول شام سيفه أستله وشامه نغمده أيضا والمقصود
هنا المعنى الأخير . ضموا جناحيكم إلى مرجحة أي كتيبة مرجحة أو خطة مرجحة
من الرجحان .

وخلوا قريشاً تقتتل إن ملكها لها وعليها برُّها وأثامها
فإن وسعت أحلامها وسعت لها وإن عجزت لم يدم إلا كلامها
فإن قريشاً مهلك من أطاعها تنافس دنيا قد أحم أنصرامها
ومنه شعر حنظلة الكاتب في فتنة عثمان (١) :

عجبت لما يخوض عنهم يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ولاقوا بعدها ذلاً ذليلاً
وكانوا كاليهود أو النصرارى سواء كلهم ضلوا السبيل
وقد غلب الحزن والرثاء على هجاء الشيعة ، لكثرة من قتل منهم ، ولشدة
ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد ، مثل شعر هند ابنة مخزومة الأنصارية ، في ممتل
حجر بن عدى (٢) :

ترفع أيها القمر المنير تبصر هل ترى حُجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الأمير
نجبرت الجبار بعد حُجر وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد لها محولاً كأن لم يجيها منن مطير
ألا يا حُجر حُجر بن عدى تلتقنك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عدياً وشيخاً من دِمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقاً له من شر أمته وزير
ألا ياليت حُجراً مات موناً ولم ينحز كما نحز البعير
فإن يهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هلك يصير

(١) الطبرى ٣ : ٤١٧

(٢) الطبرى ٤ : ٢٠٩

وما يصور هذا الهجاء الحزين ، شعر امرأة من بني عبد المطالب ،
في قتل الحسين (١) :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأمم
يبتئرتي وبأهلي بعدُ مفقدي منهم أسارى وقتلى ضُرِّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكم أن تخلُّوني بسوء في ذوى رحمي

وتمثلت الفدائية والإخلاص السبداً إلى حد الموت والفناء في شعر
الخوارج فكان هجائهم السياسي مختلطاً بالحماسة ، في الوقت الذي نرى فيه هجاء
الشيعة مختلطاً بالرثاء . وكان شعرهم ضرورة صادقة لجرأتهم النادرة ، وتطرفهم
الشديد في فهم الدين ، وأيمانهم العميق بهذه الآراء المنطرفة .

يتولى قطري بن النجاعة ، مخاطباً أبا خالد البنانى - وهو من قاعد
الخوارج (٢) :

أبا خالد يا أنفراً فلست بخالدٍ وما جعل الرحمنُ عذراً لقاعد

أترعّم أن الخارجيَّ على الهدى وأنتَ مقيمٌ بين لصٍ وجاحد

ويقول عيسى بن فانك (من بني تيم اللات بن ثعابة) ، في وقعة آسك ،
متهكماً بجيوش بني أمية (٣)

فلما أصبحوا صلّوا وقاموا إلى الجردِ العتاقِ مُسوِّمينَا (٤)

فلما استجمعوا كملوا عليهم فظلاً ذوو الجمائل يُقتلونا (٥)

(١) الطبرى ٤ : ٢٩٤

(٢) الكامل ٣ : ١٠٧

(٣) الكامل ٢ : ١٥٧

(٤) مسومين معلمين ، والسودة العلامة يتخذها الفارس في الحرب ليعرف بها
من بين الناس .

(٥) الجمائل جمع جمالة كسحابة وهو ما تجمل للمحارب من أجر . يصف جنود
بني أمية بأنهم أجورون لا يحاربون عن عقيدة .

بقيةً — يومهم حتى أتاهم سوادُ الليلِ فيه يُراوِغونا
 يقول بصيرُهُم لما أتاهم بأنَّ القومَ ولّوا هارينا
 ألفا مؤمنٍ فيما زعمتم ويقتلُهُم بأسك أربع — ونا
 كذبتم ليس ذلك زعمتم ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا
 هم الفئةُ القليلةُ غير شكِّ على الفئةِ الكثيرةِ يُنصرونا

وقال معاذ بن جوين ، يحض الناس على الثورة . وكان الخوارج قد اجتمعوا إلى المستورد بن علفة ، عازمين على الخروج سنة ٤٣ هـ ، بعد أن اجتمع الأمر لمعاوية ، ثم بلغهم أن المغيرة بن شعبة يكيد لهم ، وأنه قد أخذ العهد على كل قبيلة أن تنفي من كان بينهم من الخوارج^(١) :

ألا أيُّها الشارون قد حان لامرئٍ شَرى نفسه لله أن يترحَّلا
 أقمُّه بدارِ الخاطئين جهالةً وكلُّ امرئٍ منكم يُضادُّ ليقتلا
 فشُدُّوا على القومِ المداةِ فإنما إقامتكم للذَّبجِ رأياً مضللاً
 ألا فاقصدوا يا قومُ للغاية التي إذا ذُكرتْ كانت أبرَّ وأعدلا
 فياليتنى فيكم على ظهرِ سابجٍ شديدِ التصيرى دارعاً غير أعزلا^(٢)
 وياليتنى فيكم أعادى عدوِّكم فيسقيني كأسَ المنيةِ أولاً
 يعز عليّ أن تخافوا وتطرُدوا ولما أُجرِّدُ في المحلِّين مُنصلاً
 ولما يفرق جمعهم كلُّ ماجدٍ إذا قاتُ قدَّ ولَّى وأدبرَ أقبلا

(١) الطبرى ٤ : ١٤٣

(٢) انتمصيرى أسفل الأضلاع أو آخر ضلع في الجنب وأصل العنق . غير أعزلا لضرورة

الشعر وحقه غير أعزل .

مُشِيحًا بِنَصْلِ السَّيْفِ فِي حَمْسِ الْوَعْوِ يرى الصبرَ في بعضِ المَواطنِ أُمُتلا
وعزَّ على أن تضاءوا وتُنْقَصُوا وأصبح ذَا بَثِّ أُسِيرًا مَكْبَلًا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم أثرتُ إذاً بين الفريقين قَسَطلا
فياربَّ جَمع قد فلتتُ وغارةٍ شهدتُ وقرنٍ قد تركتُ مجدلاً

وما يصور إخلاصهم العميق لمبادئهم ، وزهدهم في الحياة وزخرفها ، ما كتب به قطرى إلى سيرة بن الجعد الخارجي ، وكان سمين الحجاج ، ولم يكن يعرف أمره (١) .

لشِتانَ ما بينَ ابنِ جَعْدٍ وبيننا إذا نحنُ رحنا في الحديدِ نُظَاهِرِ
نجاهدُ فرسانَ المهلبِ كُنُتَا صبورٌ على وقعِ السيوفِ البواترِ
وراحَ يجرُّ الخرَّ عندَ أميره أميرٌ بتقوى ربه غيرُ أمرِ
أبا الجعدِ أينَ العِلمُ والحِلمُ والنُهَى وميراثُ آباءِ كرامِ العناصرِ
ألم ترأبَ الموتَ لاشكِ نازلِ ولا بد من بعثِ الأولى في المقابرِ
حفاةَ عرابةٍ والترابُ لديهم فمن بين ذى ربحٍ وآخرِ خاسرِ
فإن الذى قد نلتَ يفتى وإنما حياتك في الدنيا كوقعة طائرِ
فراجعُ أبا جَعْدٍ ولاتك مُنْضِيًا على ظلمٍ أَعشَتِ جميعَ النواظِرِ
وتُبُّ توبةٌ تُهدى إليك شهادة فإنك ذو ذنبٍ ولستَ بكافرِ (٢)
وسر نحونا تلقَ الجهادَ غنيمَةً تُفدِّك ابتياغًا رابحًا غيرِ خاسرِ (٣)

(١) مروج الذهب ٢ : ١٣٨

(٢) في هذا البيت إشارة إلى ما يرى الخوارج من تكفير مرتكب الذنوب .

(٣) يتصد أن الذى يبيع حياته يشتري بها الجنة وذلك قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حتما في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم) .

هي الغاية القصوى الربيح نوابها إذا نال في الدنيا الترخي كل تاجر
ويقرأ سبرة الشعر فيبكي لشدة تأثره ، ويأخذ سلاحه لا حقا بقطرى .
وفي ذلك يقول :

فَمَنْ مَبْلِغُ الْحِجَّاجِ أَنْ سَمِيرَهُ فَلَا كُلَّ دِينٍ غَيْرَ دِينِ الْخَوَارِجِ
رَأَى النَّاسَ إِلَّا مَنْ رَأَى مِثْلَ رَأْيِهِ مَلَاعِينَ تَرَا كَيْنَ قَصْدَ الْخَارِجِ
فَأَقْبَلْتُ نَحْوَ اللَّهِ بِاللَّهِ وَاتِّقَاً وَمَا كَرِهْتِي غَيْرَ الْإِلَهِ بِفَارِجِ
إِلَى عَصَبَةٍ أَمَّا النَّهَارُ فَإِنَّهُمْ هُمُ الْأَسْدُ الْأَسْدُ الْغِيلِ عِنْدَ النَّهَائِجِ
وَأَمَّا إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ فَإِنَّهُمْ قِيَامٌ بِأَنْوَاحِ الذِّسَاءِ النَّوَاشِجِ
يُنَادُونَ لِلتَّحْكِيمِ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ رَأَوْا حُكْمَ عَمْرٍو كَالرِّيَّاحِ الْهَوَائِجِ
وَحُكْمَ ابْنِ قَيْسٍ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَعَصَمُوا بِحَبْلِ شَدِيدِ الْمَتَنِ لَيْسَ بِنَاهِجِ^(١)

ولدينا بعد هذا هجاء لا يتصل بأصول الحكم ، ولا يصور ميولا حزبية معينة ، ولكنه يتصل بالولاية في الأقاليم ، يعارض سياستهم ، وينقد تصرفاتهم . وهذا اللون من الهجاء السياسي مختلط بالهجاء الاجتماعي وهو من أمتع ألوان الشعر السياسي ، وأكثرها دقة ووضوحاً ، في الكشف عن معائب هذا المجتمع الذي تعقدت فيه الحياة ، وتمارضت فيه الآراء والأهواء وهو لا يصور معارضة حزبية ، ولكنه يصور سخطا على النظم الاجتماعية القائمة . فقد تدفقت الأمثال على الناس ، وبدأت الفوارق الاجتماعية تنسع بينهم شيئاً فشيئاً ، بعد أن كانوا قريباً من قريب ، فارتفع بعضهم من صفرف الشعب

(١) كان مما أنكركم الخوارج على على قبوله التحكيم حين ندب أبا موسى الأشعري وندب معاوية عمرو بن العاص . وقد قالوا له فيما جرى بينه وبينهم من نقاش (لم حكمت الحكيم ؟ فان كنت في شك من خلافتك فنيك أولى بالشك . وجلتهم المشهورة في ذلك (لا حكم إلا لله) .

إلى طبقة الحكام ، وانغمس في الترف والملاذ ، هذا يشرب ويطرب ، وذلك يسرق وينهب ، وآخر يتأنق في طعامه ولباسه . واتخذوا الحجاب ، فصار العربي لا يصل إلى الحاكم إلا بعد استئذان ، وربما دفع عن حاجته فلم يبلغ إليه ؛ فكان ذلك من أثقل الأشياء على نفس العربي ، الذي لم يألف مظاهر الملك والسلطان ، والذي كان يدخل على الخليفة نفسه قبل ذلك حين يشاء ، ويكلمه في غير كلفة . وتأثر الخلفاء والولاة بالعصية . فولوا أعمال الدولة قوما ليسوا من أهل الكفاية . هذا يتمود الجيرش وهو جبان لا يصلح لقتال ، وذلك يلى أمور الناس وهو منافق يصطنع الرياء ، يظهر عليهم في ثياب النسك والورع ، فإذا خلا إلى نفسه كان أفسق خلق الله . وأحس الناس ثقل هذه النظم الإدارية الجديدة . التي جعلتهم طبقتين . تتميز إحداهما من الأخرى تميزا واضحا . طبقة الحكام وطبقة المحكرمين . ولم يكن للحكام بد - بعد هذه الفتن الطويلة . التي فقد فيها الناس روح النظام واحترام القانون - من أن يأخذوا الناس بالعقوبات الرادعة . فاتسمت أفعالهم بالقسوة الخارجة على الدين وأحكامه في كثير من الأحيان . واستحدثوا ألوانا من التعذيب والتنكيل والشهير ، ليس للناس بها عهد . وراح بعضهم يغلو في جباية الضرائب ، ويشدد في ذلك ، متجاوزا حق الدولة ، حتى ضجت الأمصار ، وفسدت العلاقات بين الحاكم والمحكرم ، وبدأ الناس يمتقون هذا النظام الجديد ويضيقون به . وصب الشعراء هذا الضيق على الولاة والعمال ، الذين يمثلون هذا النظام ويشرفون على تنفيذه .

انظر إلى هذه الصيرورة التي دمهها يحيى بن نوفل الحميري يهجو أبان بن الوليد البجلي وأخاه بلالا . حين ولاهما خالد القسرى بعض الأعمال . كيف يصور ما ينغمس فيه العمال من ترف . وما يحيطون به أنفسهم من مظاهر الجاه . بعد عيش خشن . ورزق ضيق ضنين^(١)

تقولُ هُشَيْمَةُ فيما تقول مَلَّتَ الحِياةَ أبا مَعْمَرٍ ؟
وما لي أن لا أَمَلَّ الحِياةَ وهذا بلالٌ على المنبر !
وهذا أخوه يقودُ الجيوشَ عظيمَ الشِراقِ والعسكرِ !
وأما ابنُ سَلَمَى فشيْبُهُ الفِئاةُ رءُوحٌ بَكورٌ على المِجْمَرِ (١)
دَبوبُ العِشاءِ إذا أُطعمتْ حليمة كل فتى مُعَمَّور
وأما ابنُ أشعثِ ذواتِ التُّرَّهاتِ وذو الكذِّبِ والزورِ والمُنكَرِ
فلو قيلَ عبْدُ شرتهِ التِّجَارِ سَيِّئٌ من الرومِ لم يُنكَرِ
وهذا ابنُ ما هانَ بعدَ الشِّقاءِ وبعد الخِياطَةِ في كَسَنَكَرِ
يروحُ يُسامِي ملوكَ العِراقِ وقد عاشَ دهرًا ولم يُدْكَرِ
وأما المِكحَلُ وهبُ الهِناةِ فلو قُيِّدَ الدهرَ لم يصبر
عن الزَّفَنِ والصنِجِ والمُسجِعاتِ وقَرَعِ القواريرِ والمِزْهَرِ
ولا عن هِناكَ له لو ظهَرَ نِ فماتَ عليهنَّ لم يُقْبَرَ
وهذا ابنُ زَيدٍ له جِبَّةٌ تفوحُ من المِسكِ والعنبرِ
وهذا أبانُ بَنِي الوَليدِ خَطيْبٌ إذا قامَ لم يَحْضَرَ
أبعَدَ الدِواءِ وبعد الطُّروسِ وبعد الكِتابِ على الدَّفْترِ !
ولو حلَّ ضَيْفٌ به لم يَزِدْ على الأبيضين مع الصَّعْتِرا (٢)

وانظر قوله في بلال بن أبي بردة الأشعري . ذاك الذي يدمن الشراب .
فلا يصبر عنه ليلا ولا نهارا (٣)

(١) المِجْمَرُ والمِجْمرة الذي يوضع فيه الحجر والبخور ، يقول لاهم له إلا التطيب
بالبخور وهو شأن النساء .

(٢) الأبيضان الماء واللبن : والصعتر ضرب من النبات وهو الذي نسيبه الآن (زعترا)

(٣) العقد الفريد ٨ : ٦٤

وأما بلالٌ فـ — ذاك الذى يميلُ الشرابُ به حيثُ مالا
بيتُ يُمصُّ عتيقَ الشرابِ كمصِّ الوليدِ يخافُ الفصلاً
ويُصبحُ مضطرباً ناعسا تخالُ من السكرِ فيه احوالاً
ويمشى ضعيفاً كمشىِ النزيفِ به حينِ يمشىِ شكلاً^(١)

وانظر إليه كيف يصور بلالاً هذا فى نفاقه وريائه . يظهر النسك والورع
ويخدع الناس بتلاوة القرآن ، وبذء العلامة التى اتخذها فى جبهته ، كأنها من
أثر السجود وإدمان الصلاة^(٢)

أبلالُ إنى رابنى من شأنكم قولهُ تزيّنهُ وفعلهُ منكرُ
مالى أراك إذا أردتَ خيانةً جعل السجودُ بحرّ وجهك يظهر
متخشعاً طيناً لكل عزيمةٍ تتلوا القرآنَ وأنت ذئبٌ أغبرُ
وفيه يقول متشفيماً . وقد أصيب بالجدام .

فأما بلالٌ فإنَّ الجذا م جالّ ما جازَ منه الوريدا
فأتقع فى السمنِ أوصاله كما أنقع الأدمون الثريدا
فأكسدَ سمنَ تجارِ العرا ق فينا وأصبح فينا كسيدا

ثم انظر إلى ما يقول هذا الشاعر الكثير الهجاء ، الذى لا يكاد يمدح
أحداً ، فى سعيد ابن رشد . ذلك المنين الخامل ، الذى ارتقى للأمانة . فليس
الخرز وركب البغال فى المواكب ، واتخذ الحجاب .

بكى الخرز من إبطى سعيد بن راشد ومن إسته تبكى بغالُ المواكب

(١) النزيف الذى سال دمه والمجنون والسكران . والشكال الحبل الذى تشد به
قوائم الدابة إذا قيدت .

(٢) الشعر والشعراء ٢٨٧

فواعجبا حتى سعيدُ بنُ راشدٍ له جاجِبٌ في الباب من دون حاجب !
ومن هذا اللون شعر أنس بن أبي إياس ، في حارثة بن بدر النداني وقد
طلب من عبيد الله بن زياد أن يوليه . فخيره فاختر (سُرَّق) ، لما وصف له
من شراها وكان مدمنا للخمر — فولاه إياها^(١)

أحارِبُ بنِ بدرٍ قد وُلِيتَ إِمارةً فكن جرذا فيها تَعُونُ وتَسرقُ
وباه تَميماً بِالغنى إن للغنى لَشاناً به المرءُ الهَيُوبَةُ يُنطقُ
فإنَّ جَميعَ الناسِ إِمما مَكذِّبُ يقولُ بما يَهوى وإِما مُصدِّقُ
يقولون أتوالاً ولا يعرفونها وإن قيل هاتوا حَقُّوا لم يُحَقِّقوا
فلا تَحقرَنَّ يا حارِبُ شيئاً أَصبتَه فحَظُّكَ من ملكِ العِراوينِ (سُرَّقُ)^(٢)

ومنه شعر عبد الله بن همام السلولي . يهاجم النعمان بن بشير والى الكوفة .
وكان معاوية قد أمر لأهلها بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم . فحبسها النعمان
عندهم ولم ينفذها . لسابق إخلاصهم لعل^(٣)

زِيارَتنا نَعمانُ لا تَحرمَنا خَفِ اللهُ فينا والكتابُ الَّذي تَتلو
فإنَّكَ قد حُمِلتَ فينا أمانةً بِما عَجَزتَ عَنه الصِلاخَةُ البُزُلُ^(٤)
فإنَّ يَكُ بابُ الشِعرِ تُحسِنُ فَتحَهُ فلا يَكُ بابُ الخِيرِ ليسَ لَهُ قُفْلُ
فقد نلتَ سُلطاناً عَظيماً فلا يَكُن لغيرِكَ جَمَّاتُ النَدَى ولكِ البِخلُ^(٥)

(١) الشعر والشعراء ٢٨٤ ، المقعد الفريد ٨ : ٥٧

(٢) سرق اسم الولاية التي وليها حارثة . (حار) ترخيم حارثة .

(٣) الأغاني ١٤ : ١٢٠

(٤) بعير صلخام بكسر الصاد وصلخم بفتح الصاد صلب شديد . البزل جمع بازل

وهو البعير الذي بزل نابه أي ظهر وذلك في السنة التاسعة

(٥) الجم الكثير من كل شيء . ومن الماء معظمه وكثرته .

وأنت أمرؤٌ حلو اللسانِ بليغُهُ فما بأله عند الزيادة لا يحلو
 وقبلك قد كانوا علمينا أئمةً يهيمهم تقويمنا وهم غصل
 إذا أنصتوا للقول قالوا فأحسنوا ولكنَّ حُسنَ القولِ خالفه الفعلُ
 يذمُّون دنياهم وهم برضعونها أفأويقَ حتى ما يديرُ لها تُعلُّ (١)

ومن الشعر الذي يصور سخط الناس . لتأثر الولاة بالعصية والقرابة
 في اختيار العمال . قول الجارث بن خالد المخزومي . يهجو عبد العزيز أخا خالد
 ابن عبد الله بن أسيد . وقد ولاد قتال الخوارج فانهزم (٢)

فرَّ عبدُ العزيز لما رأى الأبطال بالسفح نازلوا قطرياً (٣)
 عاهدَ الله إن نجا ولمناياً ليعودنَّ بعدها حرماً (٤)
 يسكن الخلل والصفاح فمرّاً نَ وساعاً وتارة نجدياً (٥)
 حيث لا يشهد القتال ولا يس مع يوما لكرَّ خيلٍ دويّاً

ومما يصور سخط الناس لعدم توافر الكفايات في العمال . شعر رجل
 من بني عامر بن صعصعة . يهجو عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت الثقفي .
 رسلاً الحجاج إلى المهلب . يقول : تسمع هذا الرجل حين يخطب فلا ترى
 بأساً . فإذا رأيت في القتال . عجبت لما كان يشدق به من حث الناس
 على القتال (٦) .

(١) أفاريق جمع فيقة بكسر الفاء وهو اللبن يجتمع في الصرع بين الحلبتين . والشعل
 بفتح الثاء وضما زيادة في أطياء الناقة والبقرة والشاة .

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢١٧

(٣) قطري بن الفجاءة من زعماء الخوارج وشعرائهم المشهورين

(٤) ملنبايا أصلها من المنايا حذف النون لقرب مخرجها من اللام . حرمان نسبة إلى

الحرم . أي يقيم هناك ولا يشهد حربا .

(٥) الخل موضع وأصله الطريق في الرمل . والصفاح ومران وسلع مواضع . نجديا

نسبة إلى نجد ، يعني أنه يتنقل بين هذه الأماكن بعيداً عن خطر الخوارج خوفا منهم .

(٦) الكامل ٢ : ٢٤١

مازلت يا ثقفى تخطب بيننا وتغننا بوصية الحجاج
حتى إذا ما الموت أقبل زاحراً وسما لنا صرفاً بغير مزاج
وليت يا ثقفى غير مناظر تنساب بين أحزّة وفجاج
ليست مقارعة الكماة لدى الوغى شرب المدامة في إناء زجاج

وقد كثرت شكوى شعراء العراق ، من ظلم العمال في جباية الأموال .
والذى يبدو أن هؤلاء العمال كانوا يختارون من الغلاظ الشداد ، الذين
يأخذون الناس بالعنف الصارم ، لما عرف به أهل هذا الإقليم من الشتم ،
والخروج عن طاعة السلطان . وكان بعض هؤلاء العمال يستغل بعده عن
موطن الخلافة ، فيشتط على الناس ، ويطالبهم بأكثر مما توجب عليهم فروض
الزكاة ، مدخراً لنفسه بعض ما يجمع . وهذا هو الراعى ، يشكو العصاة إلى
عبد الملك ، فيقول إنهم يأخذون فوق ما يوجب القانون ، ويتعدون بذلك
ما أمرهم الخليفة . فهم يأخذون العشار من كرام الإبل . بينما يكتبونها للأمير
فصيلاً ، ويغنون لأنفسهم الزيادة . ويشتطون على الناس في هذه الأحكام
الجائرة ، فلا يزالون يجلدون العريف بالسياط ، وقد أقاموه في الأغلال ،
حتى يقطعوا جلده . ثم يأتونه بصكهم وقد أخذ منه الرعب . فينصبونه إبله
ويدعونه للضياع (يدعو أمير المؤمنين ودونه خرق تجرّبه الرياح ذيولاً)
فكأنه حمام كسر الرماة جناحه . فهو لا يزال ينوح على قارعة الطريق ، وقد
وقع الربيع ، فتقارب خطوة ، وأخذ الفزع ، إذ رأى الذئب يقترب من
مخله ، في شراسة النهم الذى لا يبقى على شيء يصادفه . وهؤلاء هم قومه المسلمون
الذين لا يمنعون الزكاة ، والذين يشهدون أن لا إله إلا الله ، يهيمون
في الصحراء مطرودين ، كأنهم مجرمون أصابوا قتيلاً . يحدون إبلا عجافاً ،
قد تهدمت أسممتها . فهم يتركونها في خارم الجبال ، تتساقط ضعفاً وإعياء ،
لأنها لا ترعى إلا الفاسد من النبات ، بين يابس وممر وخم . وماذا يصنعون

وقد أتاها (يحيى) الجاني . فأخذهم بشروطه الظالمة . وكلفهم ما لا يطيقون .
فأفقر غنيهم . وأهزل فقيرهم (١)

أخليفةَ الرحمنِ إنا معشرُ حنفاءِ نسجدُ بكرةً وأصيلاً (٢)
عربٌ نرى الله في أموالنا حقَّ الزكاةِ منزلاً تنزيلاً
إن السعاةَ عَصَوَكَ يومَ أمرتهم وأتوا دواهيَ لو علمتَ وغولاً
إن الذين أمرتهم أن يمدلوا لم يفعلوا مما أمرتَ فتيلاً
أخذوا العِشَارَ من الكرامِ ظلامَةً مِنَّا وَيُكْتَبُ لِلْأَمِيرِ أَفِيلاً (٣)
أخذوا العريفَ فقطعوا حيزومَهُ بالأصْحِيَّةِ قائماً مغلولاً (٤)
حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفؤاده معقولاً
جاءوا بصكِّهم وأحدبَ أسارتُ منه السياطُ براعةً إجنيلاً (٥)
نسيَ الأمانةَ من مخافةِ لُتْحِ شمسٍ تركنَ بضِيعَهُ مجدولاً (٦)
أخذوا حَوْلَتَهُ فأصبحَ قاعداً لا يستطيعُ عن الديارِ حويلاً

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٥٦ ، خزاعة الأدب ٢ : ٣٠٦

(٢) حنفاء مسلمون والحنيف المسلم .

(٣) العشار جمع عشراء مثل فقهاء ، وهي الناقة التي أتى عليها عشرة شهور لحماً .
الأفيل ابن المحاض إذا كان صغيراً قبل أن يفصل من أمه .

(٤) العريف رئيس القوم . الحيزوم وسط الصدر ، وما يضم عليه الحزام . جمعها حيازيم : الأصحية السياط واحدها أصبح نسبة إلى ذى أصبح ملك من ملوك حمير لأنه هو الذي ابتدعها .

(٥) أحدب يقصد العريف نفسه وصفه بذلك لأن السياط قد آذته ونالت منه . أسأر الشارب في الإناء سؤراً أى ترك فيه بقية . البراعة التصبة الجوفاء شبه بها قلب العريف الفزع . إجنيلاً خائفاً مجفلاً . يقول لم ترك منه السياط إلا رجلاً فرعاً مروعاً .

(٦) شمس طوال وهو وصف للسياط . البضيع اللحم .

يدعو أمير المؤمنين ودونه خرقٌ تمجُّ به الرياحُ ذُبولا^(١)
 كهدهدٍ كسر الرماةُ جناحه يدعو بقارعةِ الطريقِ هديلا^(٢)
 وَقَعَ الرَّبِيعُ وقد تقاربَ خطوهُ ورأى بعقوته أزلَّ نسولا^(٣)
 متوشحُ الأقرابِ فيه نَهْمَةٌ نهشَ اليدينِ تخاله مشكُولا^(٤)
 أليفةُ الرحمنِ إنْ عشيرتي أمسى سوامهمُ عزينَ فُلولا^(٥)
 قطعوا اليمامةُ يُطرَدُونَ كأنهم قومٌ أصابوا ظالمين قتيلا
 يحدون حدبًا مائلًا أشرافها في كل مقربةٍ يدعنَ رعيلا^(٦)
 شهرى ربيع ما تدرقُ لبونهم إلا حوضًا وخمةً وذبيلا^(٧)
 وأناهمُ (يجي) فشدَّ عليهم عقداً يراه المسلمون ثقيلًا
 كتبًا تركن غنيهم ذا عيلةٍ بعد الغنى وفقيرهم مهزولا
 فركتُ قومي يقسمون أمورهم إليك أم يتربصون قليلا

(١) الخرق بفتح الحاء الصحراء الواسعة التي تخرقها الرياح .

(٢) الهدهد الحمام الكثير الهددة . الهديل صوت الحمام .

(٣) العقوة ما حول الدار والمحلة . أزل قليل اللحم يعنى الذئب . نسول تساقط

شعره لجوعه فهو شرس .

(٤) متوشح الأقراب . كل هذا وصف للذئب . الأقراب الحاصرة . نهش قليل اللحم ، يشبه عريف قومه في خوفه من الجبابة بحمام ضعيف رأى ذئبا شرسا هذه صفاته يقترب من محلته .

(٥) سوامهم إبلاهم التي تستام السكلاء أى ترعاه . عزين جماعات . الفلول جمع فل بفتح الفاء وهو المهزوم المتفرق .

(٦) يحدون يسوقون . الحدب الأبل المهزولة . أشرافها أسنمتها . وإنما تميل أسنمتها لضغطها وقلة شحمها . المقربة الطريق في الجبل . الرعيل القطيع .

(٧) الحموض جمع حمض بفتح الحاء وهو ما ملح وأسر من النبات . الأرض الوخمة التي لا ينجم كلؤها . الذليل اليابس من النبات .

أنت الخليفة عدُّه ونواله وإذا أردتَ لظالم تنكيلا
فارفع مظالم عيَّلت أبناءنا عنَّا وأنقذِ شلُونَا المأْكولا

وهذا هو الفرزدق، يشكو إلى سليمان بن عبد الملك من هذا الأمر نفسه، فيقول إن الناس قد نذروا أن يحجوا حفاة، وأن يصوموا لله، إن أنقذهم بولايتك الملك. وهام أولاء يوفون نذرهم، بعد أن أهلكهم ظلم من قبلك فلم يبق منهم إلا ألسنا وعظاما. كانوا يحبسون الجندي في الثغور، ويؤخرونهم عن مواعيدهم في البر والبحر بغير أعطية. وكان الجباة يحاسبون الناس على ما ذهب من مالهم، وما هلك من إبلهم، حتى أصبح أهل العراق يحسدون الميت، لتجاته من عذاب الظالمين. ويقول الفرزدق إن الناس قد أنقذوا من هذا الظلم بولاية سليمان لذلك. مشيراً إلى السجون، التي كان الحجاج قد اتخذها لسجن نساء العصاة، ويعجب من أمره في ظلم أرامل، ليس لهن جريرة، وقد حبس عنهن ما يستحقن من عطاء

كَم فَيْك إِنْ مَلَكْتَ يَدَاكَ لَنَا يَوْمَا نَوَاصِينَا مِنْ النَّذْرِ
مِنْ حَجِّ حَافِيَةٍ وَصَائِمَةٍ سَدَّتَيْنِ أُمَّ أَفِيرِخٍ زُعْرٍ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُنَّ غَيْرُ السَّنَةِ وَأَعْظَمٍ وَحَوَاصِلِ حُمْرٍ^(١)
وَيُجْعَرُونَ بَعْدَ بَرِّ أَعْطِيَةٍ فِي الْبَرِّ مِنْ بَعَثُوا فِي الْبَحْرِ^(٢)
وَيُكَلَّفُونَ أَبَاعِرَا ذَهَبَتْ جِيْفَمَا بَلِينِ تَقَادِمَ الْعَصْرِ

(١) يقول كم فيك من نذر نذرناه إن ملكت يداك نواصينا في يوم من الأيام. وناصية الرأس. من حج حافية. يعني قد نذرنا أن يحجوا ستين حفاة صائمات. أم أفيرخ أم أطفال ضماف لم يبق منهم غير السنة تنطق وعظام برزت من الهزال. صور بؤس القوم في حال أطفالهم الضماف وحزن أهواتهم عليهم.

(٢) التجبير حبس الجيوش في المنازى وتأخيرها عن موعد تسريحها. الأعطية جمع عطاء وهو المرتب الذي يعرض من بيت المال.

حتى غبطنا كلٌّ محتملٍ يمشى بأعظمه إلى القبر
 وتمنت الأحياء أنهم تحت التراب وحيء بالحشر
 والراقصات بكل مبتهل من فجّ كل عمائقٍ غير^(١)
 ما قلتُ إلا الحقّ تعرفه في القول مرتجلاً وفي الشعر
 ما أصبحتُ أرضُ العراقِ بها ورقٌ لمختبطٍ ولا قشر^(٢)
 أحييت أنفسنا وقد باغت منا الفناء ونحن في دبر^(٣)
 فاقدم عززنا بعد ذلنا بك بعد ما نأبى عن القسر
 أحييت أنفسنا وقد هلكت وجبرت منا واهى الكمر
 بل ما رأيتُ ولا سمعتُ به يوماً كيوم صواحب القصر^(٤)
 يوماً سيؤمن كلٌّ مندفنٍ أو لاحقٍ بأئمة الكفر
 فاذا كُرُّ أراهلٍ لاعطاء لها ومسجّنين لموضع الأجر^(٥)
 لو يبتلون بغير سجنهم صبروا ولو حبسوا على الجمر
 ويصور الفرزدق ظلم الجبابة في موضع آخر من شعره ، يشكوهم فيه إلى
 الوليد بن عبد الملك ، فيقول إنهم يشقون على الناس ، ويجلدونهم بالسياط
 حتى يلجئوهم إلى الربا الذي يدخلهم جهنم إرضاء لجشعهم

-
- (١) الراقصات الأبل التي ترقس في سيرها . يلحف بالابل التي تحمل الحجاج من مختلف بقاع الأرض مبتهلين إلى الله .
 (٢) الحبط ورق الشجر ينفض بالخابط ويجفف ويطن ، يخلط بدقيق أو غيره وبمجن بالماء فتطمه الابل . وإنما يفعلون ذلك في أوقات الجذب وانعدام الخضراء . والمختبط الذي يفعل ذلك بآله .
 (٣) الدبر هنا الهلاك .
 (٤) كان الحجاج يأخذ نساء العصاة فيحبسهن في قصور ما بين البصرة إلى نهر أنس .
 (٥) يصف النساء في سجور الحجاج ويذكر الخليفة بهن .

أمير المؤمنين وأنت تشفى ببدل يدك أدواء الصدور
فكيف بعامل يسعى علينا يكلفنا الدراهم في البدور^(١)
وأنت بالدراهم وهي منا كرافع راحتيه إلى العبور^(٢)
إذا سقنا الفرائض لم يردها وصدّ عن الشويهة والبعير
إذا وضعَ الشياطُ لنا نهراً أخذنا بالرّبا سرق الحرير^(٣)
فأدخلمانا جهنم ما أخذنا من الأرباء من دون الظهور^(٤)
فلو سمع الخليفةُ صوت داع يبادى الله هل لى من مجير
وأصوات النساء مقرّنات وصبيانٍ لهن على الحجور^(٥)
إذاً لأجابهن لسانُ داع لدين الله مفضابِ نصور
أمينِ الله يصدّع حين يقضى بدين محمد وبه أمور

(١) يكلفنا الدراهم في البدور أى في كل شهر .

(٢) يريد أن الدراهم عزيزة المال . والعبور من مطالعة البروج . وهو أن يطلع
نجمان مما أو متقاربين .

(٣) السرق جمع سرقة بفتح السين والراء وهي الشقة من الحرير .

(٤) يقول ندخل جهنم بسبب الربا . وإنما ألجأنا إلى ذلك خوفاً على ظهورنا

من الشياط .

(٥) مقرّنات مقرون بمضهن إلى بعض في الأصفاة .

الأخطل

أول ما نعرف عن أيام غياث بن غوث الأولى ، وعن أخبار طفولته ، هذه النمصة التي تصوره ممتيا مع زوج أبيه ، في حياة لا تخلو من ضيق وحرمان فهي تؤثر أبناءها بما لذ وطاب من طعام ، وتبعث به خلف أعز لها يرعاها ، وهو يحتمل لنفسه في الوصول إلى ما يشتهي من ألوان الطعام ، فيزعم لزوج أبيه أن بعض جيرانها مريض ، ولا تكاد تمضي حتى يهوى إلى ما أخفت عنه من تمر وزبيب ، فلا يبقى على شيء منه . ثم تعود وقد تنهت إلى حيلته ، وتهم بضربة ، فيهرب ويقول في ذلك .

ألم على عنبات العجوز وشكوتها من غياث لم^(١)
فظلت تنادى أبا ويلها وتلعنُ واللعنُ منها أم

وهو هنا صبي محروم ، ولكنه متمرد ، لا يرضى بما فرض عليه من هذا الحرمان ، ولا يعدم الحيلة في الوصول إلى ما يحب . وهو في نفس الوقت حسن الاستعداد للشعر ، وللهجاء منه بسرعة خاص . وصورة أخرى لهذا التمرد والطموح ، ولهذا الموهبة الهجائية ، يحفظها لنا عنه كتب الأدب ، فيما تروى من قصته مع كعب بن جعيل ، وكان شاعر تغلب في وقته ، وكان لا يلم برهط منهم إلا أكرموه وأعطوه . فنزل على رهط الأخطل فأكرموه ، وجمعوا له غنما ، وحظروا عليها حظيرة ، فجاء الأخطل فأخرجها من الحظيرة وفرقها ، فخرج كعب وشتمه ، واستعان بقوم من تغلب فجمعوها له ، وردوها إلى الحظيرة . فارتقب الأخطل غفلته ففرقها ثانية ، فغضب كعب وقال : كفوا عنى هذا الغلام وإلا هجو تسكم . فقال له الأخطل : إن هجوتنا هجوناك

(١) الشكوة بفتح الشين وعاء من الجلد يتخذ للماء واللبن .

فقال كعب : ومن بهجوني ؟ قال : أنا . فقال له أبوه : أبغرزمتك ^(١) تريد أن تقاوم ابن جعيل ؟ وضربه . والأخطل هنا غلام مبتدىء في معالجة الشعر ولكنه يطمع أن تكون له فيه مكانة ، ويلتمس السبيل لذلك بهذه التصرفات النزقة . التي تلفت إليه الأنظار . وتجعل له بين الناس أهمية خاصة . فهو لا يرضى أن يكون غلاماً ككحل الغلمان . مغموراً أخامل الذكر . ولسكنه يلتمس الشهرة بأن يفعل النعاعة السكبيرة . التي تغضب الناس وتؤلبهم عليه . ولا يلبث أن ينجح في إثارة هذا الشاعر الكبير . فيقول له :

شاهدَ هذا الوجهُ غِبَّ الجُه

فيجيبه الأخطل :

فناك كعبُ بنُ جعيلِ أمه

ثم يقول في كعب وأخيه :

هجاني المنتان ابنا جُعيل وأى الناس يقتلهُ الهجاءُ
ولدتم بعد إخوتكم من أستٍ فهلاً جثُمُ من حيث جاؤا
ويقول :

سميتَ كعباً بشرُّ العظامِ وكان أبوك يسمي الجُعل ^(٢)

وإن محمك من وائل محلُّ القراد من أست الجبل ^(٣)

ويجب الهجاء بعد ذلك بينه وبين كعب . فيتمرن اسم هذا الغلام الناشئ بذلك الشاعر المشهور ويتحدث الناس بأمرهما . ويعرف غياث من ذلك الحين بلقب الأخطل . لبذاءته وسلاطة له أنه .

(١) في القاموس المحيط الغدرة احتلاط الكلام . قلت كذا أن الكلمة بما تجمع من حروف . تنافرة تحكى هذا التنافر الذي يكون في الكلام المختلط .

(٢) الجعل ضرب من الحشرات التي تقتات بالأقذار تشبه الخنفساء .

(٣) وائل هو الجد الأكبر الذي يجمع بكرا وتغلب (قبيلة كعب والأخطل) .

ولا يزال الأخطل يلتمس الشهرة من طريق الهجاء والإفخاش على الناس حتى يتاح له هجاء الأنصار مستنداً إلى حماية يزيد بن معاوية ، بعد أن عرض الأمر على كعب بن جعيل ، فتخرج منه ودله على الأخطل . ويوافق العرض من هذا الشاب الطموح المغامر هوى فيرحب به ، على ما فيه من خطورة التعرض لهذه الطائفة المعروفة بتاريخها القديم في الإسلام ، وسابقتها في تدعيه وإقراره . فيها جهم أعنف مهاجمة ، بأبياته المشهورة .

لَعَنَ الإِلهَ بنى اليهود عصابةً بالجزع بين جلاجل وصرار^(١)
قومٌ إذا هدَرَ العصير رأيتهم حمراً عيونهم كجمر النار^(٢)
ذهبت قريشٌ بالمكارم والعلی واللؤم تحتَ عمائم الأنصار
فذرُوا المعالی لستمُ من أهلها وخذُوا مساحيكُم بنى النجار^(٣)
إن الفوارس يعرفون ظهوركم أولادُ كل مقبَّحٍ أكار^(٤)
وإذا نسبت ابن الفريعة خلته كالجحش بين حمارة وحمار^(٥)

ويذيع هذا الشعر . فيحدث في أوساط الأنصار ضجة هائلة . وتثور نائرة زعيمهم النعمان بن بشير الأنصارى : فيقدم على معاوية غاضباً : مطالباً بتأديب هذا الغلام الأنصرانى ، لا يرضى في ذلك إلا بقطع لسانه . ويغضب معاوية ويهم بالأخطل ، لولا تدخل يزيد فى الأمر ، يترضى أباه حتى يرضى .

(١) الجزع منعطف أوادى . جلاجل وصرار موضعان .

(٢) العصير عصير العنب أو ما يعتصر ليخمر . هدر العصير وذلك حين يختمر . أى

أنهم يسرفون فى الشراب حتى تحمر عيونهم .

(٣) المساحى جمع مسحة بكسر الميم اسم آلة يجرف بها الطين والقشر . سعا الطين

يسقيه ويسحوه جرفه وتشره . وبنو النجار بيت من بيوت الأنصار وهم قوم حسان بن

نابت الشاعر .

(٤) أكار أجبر حراث يحفر الأرض .

(٥) ابن الفريعة حسان بن نابت والفريعة أمه .

والراجح أن هذه الحادثة كانت في أواخر أيام معاوية بعد سنة ٥٦ هـ .
فالأخطل يصور يزيد في قصيدته التي قالها في هذه المناسبة ولياً للعهد حين يقول:

فأصبحت مولاها من الناس بعده وأحرى قریش أن يهاب ويُحمدا

وإنما بايع معاوية لابنه يزيد سنة ٥٦ هـ ، قبل وفاته بأربع سنوات . وقد
صور الأخطل في هذه القصيدة يد يزيد عنده ، وما تعرض له من شر . وهي
رائعة ، بل هي في غاية الروعة ، حين تصور ترضى يزيد لأبيه ، ذلك الملك
الصارم وما لقي فيه من جهد .

وإني غداةً استعبرتُ أمَّ مالكٍ لراضٍ من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيد ابنُ الملوكِ وسيبه تجللتِ حدباراً من الشر أنكداً^(١)
وكم أنقذتني من جرورِ حبالكمُ وخرساء لو يُرعى بها الفيلُ بدأ^(٢)
ودافعَ عني يومَ جلقِ غمرةٍ وهماً ينسيني السلافَ المهوداً^(٣)
وبات نجياً في دمشقِ الحيةِ إذا عضَّ لم ينم السليمُ وأقصدا^(٤)
يخفُّته طوراً وطوراً إذا رأى من الوجه إقبالا ألح وأجهدا
أبا خالدٍ دافعت عني عظيمةٍ وأدركتَ لحمي قبل أن يتبددا
وأطفأت عني نارَ نعامٍ بعدما أغدَّ لأمرٍ عاجزٍ وتجرداً^(٥)

(١) الحدبار الناقة الذاهبة السنام المارية المظام يشبه نفسه في حال ورطته براكب ناقة هذه حالها .

(٢) الجرور البئر العميدة المر . الخرساء الداهية التي تذهل وتمخرس .

(٣) جلق غوطة دمشق أو موضع قريب منها . غمرة كربة . السلاف الخمر . المهود المسكن ، وأصل التهويد النوم .

(٤) يقصد بالحية ، معاوية . السليم الذي لدغته الحية . أقصدت الحية لدغت فقتلت .

(٥) نعام هو النعمان بن بشير الأنصاري . الإغداة سرعة السير .

وأشار إلى ذلك في موضع آخر ، من قصيدة مدح فيها يزيد ، وكان لا يزال ولياً للعهد .

فلولا يزيدُ ابنُ الأمامِ أصابني قوارعُ يجنيها عليّ لسانِي
ولم يأتني في الصُّحفِ إلا نذيركم ولو شتمتُ أرسلتمُ بأمانِي
فأقسمت لا آتني نصيبين طائماً ولا السجنَ حتى يمضي الحرمانُ

ومن ذلك الوقت بدأت عملة الأخطل بيزيد . وزاد في توثقها توافق طبعيهما . فقد كان يزيد شاعراً وكانت خلائقه بدوية ، ينزع منزع فتیان العرب الذين يهجمون على اللذة ، ولا يجر من أنفسهم منها ، فاستراح إلى هذا الشاعر البدوي ، الذي تلوح عليه مخايل النباهة ، واتخذة صديقاً ونديماً . ولكن الأخطل فيما يبدو ، ظل مكروها من معاوية لم يصل إليه ، فنحن لا نجد في ديوانه شعراً في مدحه ، وكل ما نجد أربع قصائد في مدح يزيد ، اثنتين منهما قبيل وفاة معاوية ، وهما اللتان قدمناهما ، وثنتين بعد وفاته وهما .

بانث سعاد في العينين تسهيد واستحقتُ له فالثابُ معمود
وحلّت ضبيرة أمواه العداة وقد كانت تحلُّ وأدنى دارها تكدُّ

وهو يشير في القصيدة الأولى إلى شبيهه حيث يتول .

إما تريني حناني الشيبُ من كبر كالنسرٍ أرجفُ والإنسان مهود
فقد يكونُ الصبي مني بمنزلة يوماً ويقتادني الهيف الرعادي
يا قل خيرُ الغواني كيف رُغن به فشرُّه وشلُّه فيهن تصريد^(١)
أعرضن من شحط في الرأس لاح به فهنَّ منه إذا أبصرنه حديدُ

(١) التصريد السق دون الرى .

ويقول إن يزيد قد عطف عليه في محنة ، حين أفرده أهله لجرم ارتكبه ، فأصبح طريداً مشرداً .

جزاك ربك عن مستفردٍ وحيدٍ نفاه عن أهله جُرمٍ وتشريدٍ
مستشرفٌ قد رماه الناسُ كلُّهمُ كأنه من سَومِ الصَّيفِ سفودٍ^(١)
ويشير إلى عطفه هذا في القصيدة الأخرى بقوله .

أنتم تداركتموني بعد ما ذلقت نعلي وأخرج عن أنيابه الأسدُ
ومن مودتةٍ أخرى تداركني مثل الرُّذَينِي لا واهٍ ولا أودُ
والهرة الأولى ، نرى الأخطال في هذه الفصيذة شاعراً سياسياً ، يتجاوز مدح يزيد إلى الدفاع عن الديانة ، ومهاجمة خصومها ، مؤيداً حق الأمويين في الملك ، متمرداً أن حقهم فيه ثابت ، بولايتهم لدم عثمان .

ويوم صفين والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم إذ دعوا من ربهم مددُ
على الأولى قتلوا عثمانَ مظلمةً لم ينههم نشدُّ عنه وقد نشدوا
فتمَّ قرَّتْ عيونُ الثَّأرينِ به وأدركوا كلَّ تَبَلٍ عنده قودُ^(٢)
فلم تزل فيلقُ خضراءُ تحطمهم تنعى ابنَ عفانَ حتى أفرخ الصيْدُ^(٣)
ويقول إن زمرهم جاء من عند الله . فانهاء أمر المسلمين إليهم ، دليل على تفضيل الله لهم . وهذه فكرة جديدة ، وقف الأخصل جهده على تقريرها بمختلف الصور والوسائل ، كما سنرى :

تمت جدودهم والله فضَّلهم وجدُّ قوم سواهم خاملٌ نكدُ

(١) مستشرف على البناء للمفعول . مظلوم من قولهم استشرفه حقه أي ظلمه . والسفود الحديدة التي يشوى بها اللحم ونسبها الآن (سيخ) .
(٢) التبل النار . القود القصاص .
(٣) الصيد الكبر . أفرخ سكن .

هم الذين أجابَ اللهُ دعوتهم لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلدوا
 .. قومٌ إذا أنعموا كانت فواضلهم سبباً من الله لامنٍّ ولا حسد
 .. ويومَ صفينَ والأبصارُ خاشعةٌ أمدم إذ دعوا من ربهم مدد

ثم هو يهاجم أعداءهم من القيسية وأصحاب صفين :

ويوم شرطة قيسٍ إذ مُنيت لهم حَتَّتْ مَشاكِلُ من إيقاعكم نكُدُ^(١)
 ظلوا وظل سحابُ الموت يطرهم حتى توجَّهَ منهم عارضٌ برد^(٢)
 والمشرقيةُ أشباهُ البروق لها في كل جمجمةٍ أو بيضةٍ خددُ^(٣)
 ويومَ صفينَ والأبصارُ خاشعةٌ أمدم إذ دعوا من ربهم مدد

ويحتم النصيدة بهذا البيت القري يخاطب به يزيد

والمسلمون يخير ما بقيت لهم وليس بعدك خيرٌ حين تفتقدُ

من ذلك الوقت ، لم يعد الأخطل صديقاً ليزيد فحسب ، ولكنه أصبح
 شاعراً أموياً ، أعد نفسه للدفاع عن سياسة هذه الدولة ، ومهاجمة أعدائها ،
 فنال عندهم - نظراً لرفعت من شأنه في قبيلته ، حتى احتل منها مكان الزعامة ،
 وحتى كانت بكر بن وائل إذا تناسجت رضيت به حكماً ، فكان يدخل المسجد
 فيقدمون إليه .^(٤) وعظم جاهه حتى اتخذ دار ضيافة . قال أبو الفرج : كان
 للأخطل دار ضيافة . فر به عكرمة الفياض وهو لا يعرفه ، فقيل له - هذا

(١) يقول قدرك الله لأعدائك يوم مرج راهط إذ أوتعت بهم فأثكت الأمهات
 وأبكتها على قتلاها .

(٢) العارض السحاب المتعرض في الأفق . البرد الذي يطر برداً .

(٣) البيضة الخوذة . خدد يتصد بها الجراح . والحدة في الأصل الحفرة المستطيلة

في الأرض .

(٤) الأغاني ٨ : ٣٠٣

رجل شريف قد نزل بنا . فلما أمسى بعث إليه فتمشى معه ثم قال له : أتصيب من الشراب شيئاً ؟ قال — نعم . وإذا عنده قيتان خلفه ، وبينه وبينهما ستر ، وإذا الأخطل أشهب اللحية له صغيرتان ، فغمز الستر بتضيب في يده ، وقال : غياني بأردية الشعر ، فغنتاه بتمول عمرو بن شاس :

وبيضٍ تطلّى بالعبير كأنما يطآن وإن أعنقن في جدٍ وحلا
لهونا بها يوماً ويوماً بشاربٍ إذا قلت مغلوباً وجدت له عقلاً^(١)
ولم يصرفه مكانه من الأمرين عن رعاية قبيلته ، وتتبع شؤونها ، ومهاجمة أعدائها .

وقد علمت أفناء تغلب أنى نضارٌ ولم أنبت بقرقرة أثلاً^(٢)
وأنى يوماً لامضيقٍ ذمارها ولا مفاتي هاج تغلباً بطلا
بل لقد استغل مكانته هذه عند الأمرين ، في إصلاح أمر قومه ، كلها وجد لذلك سبيلاً . وكان مثال الزعيم القوى ، الذى يحرص على وحدة القبيلة واجتماع كلمتها . فهو إذا وقع بينهم خلاف ، تدخل مصالحا ، وسعى فى حقن الدماء خوفاً من أن يقع بأسهم يذنبهم ، فتذهب ريحهم ، وتهدن قوتهم ، ويطمع فيهم عدوهم . فكان يحتمل الحملات عن الجناة ، ويدى القتلى ، ساعياً بين وجهاء النسيلة وأثريائها ، ويستعينهم على ما احتتمل من غرامات ، فيمدح من يعينه منهم مشداً بوفائه للقبيلة وبذله فى سبيلها ، ويهجو بخلاهم ، الذين يمتنعون عن المساهمة بأموالهم فى الإصلاح . قال صاحب الأغاني : أتى الأخطل الكوفة فأتى الغضبان بن القبعثرى الشيباني ، فسأله فى حمالة . قال : إن شئت أعطيتك ألفين . وإن شئت أعطيتك درهمين . قال : وما بال ألفين وما بال الدرهمين

(١) الأغاني ٨ : ٣١٨

(٢) أفناء تغلب قبائلها . الفضاء الذى ينبت فى الجبل فيكون خشبه صلباً . القرقرة الأرض المطمئنة اليه يكون خشبها هشاً ضعيفاً :

قال : إن أعطيتك ألفين لم يعطكها إلا قليل ، وإن أعطيتك درهمين لم يبق في الكوفة بكري إلا أعطاك درهمين ، وكتبنا إلى إخراننا بالبصرة ، فلم يبق بكري إلا أعطاك درهمين ، نختفت عليهم المئونة ، وكثر لك النيل ، قال : فهذه إذن . قال نقسمها لك على أن ترد علينا ...^(١) ويروي الأصفهاني في بقية الخبر ، أن الاخطل قدم على أبي سويد بن منجوف السدوسي بالبصرة ، فلم يعطه شيئاً ، وحمض قرمه على الامتناع ، مذكراً إياهم بما بين تغلب وبكر من قديم العدا . فجهام الأخطل بقوله :

فإن تبخل سدوسٌ بدرهميها فإن الريح طيبةٌ قبول
تواكفي بنو العلات منهم وغالب مالكاً ويزيد غول
صريعاً وائلٍ هلكا جميعاً كأن الأرض بعدها محول
وهجا سويد بن منجوف بقوله :

وما جذع سوء خرب السوس أصله لما حملته وائلٌ بمطيق
تطيف سدوسٌ حوله وكأنها عصيٌ أشاء لوحتٌ بجريق^(٢)
جمادُ الصفا ما إن يبضُّ بقطرةٍ ولو كان ذا زراعٍ ورقيق^(٣)
فإن نفع عن حمران بكر بن وائل فما إن لنا سودانهم بصديق

ووفد الأخطل الكوفة ، فأتى حوشب بن رويم الشيباني ، وقال : إني تحملت حمالتين ، لأحقن بهما دماء قومي ، فنهره . فأتى سيار بن البزيفة ، فاعتذر إليه . فأتى عكرمة الفياض ، وكان كاتباً لبشر بن مران ، فسأله وأخبره بما رد

(١) الأغاني ٨ : ٣١٠

(٢) الأشاء النخل . لوحت سودت وصفهم بالسواد والنحول .

(٣) الجماد الناقة التي لا لبن لها والجماد أيضاً السنة المجذبة ، الصفا المجارة يعني أنه

بجبل كالصخرة لا يندى .

عليه الرجلان ، فقال : أما إنى لا أنهرك ولا أعتذر إليك ، ولكنى أعطيك
إحدا عما عينا والأخرى عرضاً^(١) وفى ذلك يقول الإخطل :

إن ابن ربيعى كفانى سيبه ضغنَ العدو ونبوةَ البخالِ
أغليتُ حين تواكتنى وائلُ إن المسكارم عند ذاك غوالى
ولقد شفيت مايلتى من معشر نزلوا بعقوة حية قتال^(٢)
بعدت قعودُ دلائهم فرأيتهم عند الجمالة مغلقى الأفتال
ولقد مننت على ربيعة كلها وكفيت كل مواكل خذال
كزمت اليدين عن العطية بمسكٍ ليست تبض صفاته ببلال^(٣)
مثل ابن بزغة أو كآخر مثله أولى لك ابن مسيمة الأجمال^(٤)
إن اللثيم إذا سألت بهرته وترى الكريم يراح كالمختال^(٥)
وإذا تبوعَ للجمالة لم يكن عنها بمنبر ولا سعال^(٦)
وإذا المثون تؤكلت أعناقها فاحل هناك على فتى حمال^(٧)
فهو الجواد لمن تعرض سيبه وابن الجواد وحامل الأتقال

(١) الأغانى ٨ : ٣١٩

(٢) المليلة الحمى الباطنة والمر السكارم فى العظم : استعاره لرغبة الانتقام . العقوة
الساحة والمباةة والمحلة .

(٣) الكزمت الضيق الكف القصير الأصابع كنى بذلك عن بخله . الصفا الحجر .
تبض صفاته تندى . بلال وبلل واحد .

(٤) ابن البريفة يعنى به سيار بن المنذر ويقصد بالآخر حوشب بن رويم الذين
ورد ذكرهما فى القصة السابقة . ابن مسيمة الأجمال يعيره بأن أمه كانت ترعى الإبل كالأماء .

(٥) بهره كفه فوق طاقته . يراح أى تأخذه أريحية فيهتز زاهيا بنفسه .

(٦) تبوع للجمالة مد باعه لها :

(٧) تؤكلت اتكل كل واحد على صاحبه . أعناقها جماعاتها .

ويشير الأخطل في موضع آخر من شعره إلى هذه الحملات ، مثنيا على من يفي للقبيلة ، فيستجيب لدعائها وقت الشدة ، معرضاً بمن يقعد عن المشاركة فيما يلم بها ، حيث يتول :

سعى لى قومي سعى قوم أعزّة فأصبحت أسمى للعلى والمكارم
 تمنوا لنبلى أن تطيش رياشها وما أنا عنهم فى النضالِ بنأم
 وما أنا إن جارٍ دعانى إلى التى تحمّل أصحاب الأمور العظام
 ليسمعى والليلُ بينى وبينه عن الجارِ بالجافى ولا المتناوم
 ألم تر أنى قد وديتُ ابنَ مرفق ولم تُودِ قتلَى عبدِ شمس وهاشم^(١)
 جزا الله فيها الأعورين مذمةً وعبدة ثفر الثورة المتضاجم^(٢)
 فأعيوا وما المولى بمن قلّ رِفدهُ إذا أجحفتُ بالناسِ أحدى العقائم^(٣)
 وما الجارِ بالراعيك ما دمت سالماً ويزحلُّ عند المضع المتفاقم

هذه المنزلة الكبيرة التى احتلها الأخطل عند البيت الحاكم من جهة أخرى ، قد ربطت بين التغلبين والإمويين ، وكان لها أثر عظيم فى توجيه سياسة القبيلة ، وتعليق مصالحها بقيام البيت الأموى . وقد ظهر أثر ذلك واضحاً فى أيام الفتنة التى تلت موت يزيد بن معاوية ، فقد شذت تغلب على قبائل العراق ، التى كانت يدا واحدة على الأمويين ، وقد بعثت من جديد تلك الحزازات القديمة بين الشام والعراق ، فوقفش موقفاً ظاهره الحياد ، وباطنه الولاء للأمويين . كانت النصرانية غالبية على تغلب ، فلم يكن يقبل منهم

(١) ولم تود قتلَى عبد شمس وهاشم هؤلاء رجال من قومه ذمهم لأنهم لم يمينوه فى حالة فقتلوا .

(٢) الثفر للسابع بمنزلة الحياء للناقة وهو فرجها . وقد يستعار من السباع فيجعل للانسان . الثورة يقصد بها أثنى الثور أو البقرة . المتضاجم المائل .

(٣) المولى هنا ابن العم المخلص لقبيلته . الرفد العطاء . العقائم الشدائد .

رأى في خلافة المسلمين ، ولم يكن من شأنهم أن يخوضوا فيما يخوض فيه الناس من حروب ، في سبيل إقرار هذا الخليفة أو ذاك . فاعتزلوا أول الأمر إلا قليلا من رجالهم المسلمين ، كانوا يغيرون مع عمير وزفر على كلب واليمينة ويدلونها (١) ولكن القبيلة في معظمها ظلت على حيادها الشاذ ، وسط هذه الكتلة الزبيرية ، التي تحيط بها من كل مكان ، تترقب الظروف ، وتشارك الأمويين بعواطفها ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئا . ولم يكن بد من أن ينتهي موقفها بالحرب ، فالقيسية لا ينقطعون عن التحرش بهم ، لما هو معروف من ميلهم للأموي ، فهم يستأوون جوارهم ، ويسخرون مئامهم من النصارى ، ويغيرون على إبلهم وماشيتهم . كل ذلك والتغليون يؤثرون السلم ، لكثرة عدوهم جولهم . فهم يشتكون إلى زعيمهم عمير بن الحباب ، فلا ينهرهم ولا يكفهم ، فيتبادون في الإعتداء ، حتى ثارت نائرة التغليين مستقتلين ، تتقدمهم أعلام النصرانية ، قد رسم عليها الصليب ، وفي ذلك يقول الأخطل :

لما رأونا والصليب طالماً ومار سرجيس وسماً ناقماً
والخيل لا تحملُ إلا دارعاً والبيض في أيماننا قواطعاً
خلوا لنا الثرثارَ والمزارعاً . وحنطاً طيساً وتمراً يافها (٢)

وتتابعت الوقائع بين تغلب وبين القيسية . الذين كان يتزعمهم الجحاف بن حكيم وعمير بن الحباب السديان وزفر بن الحارث الكلابي . ووقف الأخطل الموقف الذي ينبغي لمثله ، يسجل انتصارات قومه ، ويهاجم للقيسية وشعراءهم ، كالنابغة الجعدي ، ونفيع بن صفار المحاربي ، تميم بن أبي بن مقبل . وكان من أعنف ما هجأهم به :

ألا يا اسلمى يا هندُ هندُ بنى بدر وإن كان خياناً غدَى آخر الدهر

(١) ابن الأثير ٤ : ٣

(٢) الطيس الكثير من المال والرمل والماء .

وهو يتتبع فيها قبائل قيس باعنف الهجاء وأخشنه ، ويفتخر بقتل ابن الحباب ، معتداً بذلك عند الأمويين . والقصيدة تمتاز بقوة التصوير الهجائي ، الذي ينزل إلى الفحش البذيء في بعض الأحيان ، وبالقسوة الوحشية تصوير مناظر الحرب البشعة ، وطول النفس ، مع الاحتفاظ بالمستوى الشعري الممتاز حتى البيت الأخير منها . انظر إلى ما في شعره من عنف حين يخاطب القيسية :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا على يابس السيساء محدودب الظهر^(١)
ركوب على السوءات قد خرّم آسته مقارعة الأعداء والنخس في الدبر
وانظر إلى بني محارب في جلبتهم وضوضائهم ، كأنهم الضفادع التي لا تنقطع
عن النقيق ، تتجاوب أصواتها ، فتجني على نفسها ، لأنها تدل حية البحر
على موضعها :

تنقّ بلا شيء شيوخ محارب وما خلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر
ثم انظر إلى هذه الصورة البشعة ، التي يخوض فيها حين يخاطب الشاعر
القيسي نفيح بن صفار المحاربي ، وإلى استخفافه به وبشعره ، الذي لا يثبت
لشعر الأخطل ، فكأنه إفاك فرعون وسحرته ، أمام حية موسى ، لا يلبث
أن يتضاءل ويزول :

وكان ابن صفار هجين محارب كمتبس منى شهاباً على ذعر
وقد وسّمت عينيه إذ طرقت به من الورق دفراء المقدّين والنحر^(٢)

(١) السيساء السمود الفكري الذي ينتظم فقار الظهر في الحيوان . صور ما يحتملون
من الحرب بما يحتمل الراكب على دابة عجفاء محدودبة الظهر بارزة فقاره .
(٢) طرقت المرأة والقطاة إذا صر خروج الولد والبيضة . رجل ورق وامرأة
ورقة خيسان . دفراء المقدّين . الدفر تن الرالحة المقدان ما خلف الاذنين . ولهذا =

إذا انفرجت عنه الأشاعر رَدَّه
عن القصد بظرم مثل أرنبه النسر
تخلُّ ابنَ صفار فلا ترمُ العلى
ولا تذكرُنْ حَيَاتِ قومك في الشعر
فقد نهضت للتغابيين حية
كحية موسى يوم أيد بالنصر

وانظر إلى هذا الشاعر القيسي الآخر ، تميم ابن أبي بن مقبل العامري ،
وإلى رهطه بنى العجلان ، يسودهم قومهم وهم من ألأم الناس . وتأمل هذه
الصورة الساخرة ، التي يصور فيها هؤلاء الذين يتزعمون الناس ، يبخلون
على غلمانهم بالزاد ، حتى يكاد يقتلهم الجوع ، ولا يزال غلامهم يبكي من شدة
جوعه ، وقد تعبس وجهه ، وراح في بكائه يدلك عينيه بيديه ، كأنه الحفّاش ،
حتى تمل الوليدة كثرة صياحه ، فتلقى به في زاوية مظلمة من أركان البيت ،
مصممة أذنيها عن صراخه . وانظر إلى رثاء نساءهم وقماتهم ، يتكلفن من
أعمال الرعي وحمل المتاع ، قد لصقت الأوضار بجلودهن ، كأنما طليت سواد
القدر . وتأكلت كعوبهن من طول الرعي . ويبدت أعجازهن من حمل القرب
ومراكب النساء :

إذا التمس الأقوامُ في الناس ذِكرهم
فذكرُ بني العجلان من أقبح الذِكر
وقد سرنى من قيس عيلان أنى
رأيتُ بني العجلانِ سادُوا بني بَدْر
وقد غَبَرَ العجلانُ حيناً إذا بكى
على الزادِ ألقته الوليدةُ في الكِسْرِ
فيصبحُ كالحفّاش يدلكُ عينه
فقبُحَ من وجهِ لثيمٍ ومن حجرِ
وكنتم بني العجلان أقصرَ أيدياً
والأمّ من أن تبُلغوا عاليَ الأمرِ
بني كلِّ دسما الإهابِ كأنما
كساها بنو العجلان من حُمِّ القَدْرِ

== البيت والبيت الذي يليه وصف لسر ولادة نقيب بن صفار وهو تصوير يشع بقشمرته
البدن . وهذه البشاعة والوحشية والتصوير الكالح اللفظ من مميزات الاخطل كما سئرى .

نرى كَيْفَهَا قد زال من طولِ رَعِيهَا وقَاحَ الذَّنَابَى بالسُوِيَّة والزَّفْر^(١) ،
 وانظر إلى هذه الصورة البشعة ، التي يصور فيها امرأة من نساء قيس ،
 قد أثنختها الجراح ، فخرت صريعة على الأرض ، قد تدلى منها جنينها ، ملففاً
 في هذه اللفائف التي تسكون علي الجنين في البطن ، والطير تحوم من حولها
 تضرب عينها ، وتعبث بأحشائها ، وهي تلفظ آخر أنفاسها :

وكم من جنين بات ينزع نفسه لقيسيَّة قد هكَّها السيفُ بالخضر
 سُليميَّة سوداء أو عامريَّة تجرُّ سيلها حين تنهضُ بالصدْر^(٢)
 بها رمقٌ فالطيرُ تبقرُ بطنها وتضربُ عينها قوادِمُ من نسر

وانظر إلى هذه الصورة الدقيقة الرائعة . التي يصور فيها هذا السيد القيسي
 الذي أخذته الرماح من كل مكان ، حتى أُلجأته إلى الهرب . فهو يستحث
 فريسه على العدو ، وقد تجلب من أعطافها الماء . كأن في بطنها ومجري جزائها
 قرباً تسبح الماء . ترمى برجليها موسعة الونب . ولا تكاد تمس الأرض .
 كأنها تسبح في الفضاء ، أو تعوم في بحر من النبار المتكاثف ، الذي يثيره
 من حولها هذا الزحام المضطرب العنيف . والرماح تنوشه من كل جانب ،
 تكاد تناله ولما تنله ، وقد انخلع قلبه من الذعر ، فراح يلهب ظهر الفرس
 في عدو جنوني . فكأنه عقاب يسرع إلى وكره ، وقد أقبل عليه ظلام الليل .
 ويظل في شدة فزعه وذهوله ، يفديها بنفسه وأمه ، قائلاً : فدى لك أُمي
 إن دأبت إلى العصر . وبالله لو أدركته الرماح ، لتركته جثة مهملة في الصحراء
 يتوسد كفه ولا يضمه قبر ، فهو نهب الضباع وكواهر الوحوش .

(١) الذنابي يعني به هنا المعز . قاح من القيح . السوية القتب العاري . الزفر الحمل
 يقول إن عجزها قاح . من كثرة ما تحمل الحمل وتركب الدواب على القتب عارياً فيجرحها
 ويؤذيها .

(٢) السلي البكيس الذي يكون الجنين في داخله .

ونجى ابن بدر ركضه من رماحنا
 إذا قلت نالته العوالى تقاذفت
 كأنهما والال ينجاب عنهما
 كأن بطبيها وبجرى حزامها
 فظلل يفتديها وظلت كأنها
 وظل يجيش الماء من متفصد
 يسر إليها والرماح تتوشه
 وبالله لو أدركته لاضطرزته
 فوسد فيها كفه أو لحجبت
 بنضاعة الاعطاف ملهبة الحضر^(١)
 به سوحق الرجلين سابحة الصدر
 إذا هبطا وعنا يعومان فى نغر^(٢)
 أداوى تسح الماء من حور وفر^(٣)
 عقاب دعاها جنح ليل إلى وكر^(٤)
 على كل حال من هزائمى بجرى
 فدى لك أمى إن دأبت إلى العصر
 إلى صعبة الأرجاء مظلمة القمر^(٥)
 ضباع الصحارى حوله غير ذى قبر

وهو فى آخر القصيدة يتجه إلى الخليفة فيقول : إننا نستغنى بك عن
 ندائك ، فما بنا من حاجة إلى صلح قيس وأنت أمير المؤمنين . لقد بايعت
 قيس ، وفزعت إليك تطلب العذر عما قدمت ، ولسكنهم لم يفعلوا ذلك
 عن إسلام أو هوى ، وإنما دفعهم إليه الذل كارهين . ويفتخر بعد ذلك

(١) نضاعة الاعطاف يعنى فرسا تنضح أعطافها بالعرق لشدة ما أجهدها الجرى ،
 الحضر العدو . ملهبة العدو ألهمت ليستخرج أقصى ما عندها من العدو . سوحق الرجلين
 طوليتهما . سابحة الصدر كأن صدرها سائح فى الفضاء لسرعتها فهى لا تكاد تمس الأرض .
 (٢) كأنهما يعنى ابن بدر وفرسه . ينجاب ينكشف إذا دخلا فيه ثم ينطبق عليهما
 فينمسان فيه . الوعث الأرض السهلة الرخوة تنيب فيها الأقدام . النمر الماء الكثير
 يشبهه حين يحيطه الغبار الذى يثور حوله وحول فرسه بالذى يسبح فى ماء .
 (٣) الأطباء : الأثناء واحدها طبي بضم الطاء وسكون الباء . الحور جلد مدبوغ .
 وفر ضخام . يصف العرق الذى يتحلب من بين ثديها ومن موضع حزامها بالماء المتدفق
 من قرب ضخام .

(٤) يفتديها يقول لها (جعلت فداك) .

(٥) صعبة الأرجاء مظلمة القمر ، ذلك هو القبر أو الحفرة الضيقة التى يوارى فيها .

بموقف قبيلته من الدولة وعدائها لمصعب بن الزبير ، ومحاربتهم جنده من القيسية ، وقتلهم رأسهم الذي دفعهم إلى الفتنة ، عمير بن الحباب :

وأنت أمير المؤمنين وما بنا إلى صلح قيس يا ابن مروان من فقر
فإن تك قيس يا ابن مروان بايعت فقد وهلت قيس إليك من العذر^(١)
على غير إسلام ولا عن بصيرة ولكنهم سيقوا إليك على صغر^(٢)
ولما تبينا ضلالة مصعب فتحنا لأهل الشام باباً من النصر
قد أصبحت منى هوازن كلها كواهي السلامي زيد وقرآ على وقر^(٣)
مكونا برنين أشم وعارض لمنع ما بين العراق إلى البشر^(٤)
فأصبح ما بين العراق ومنبج لتغلب تردي بالردينية السمر
إليك أمير المؤمنين تسيرها تحب المطايا بالعرانين من بكر
برأس امرئ دلي سليماً وعامراً وأورد قيساً لج ذى حدب عمر^(٥)
فأسرين خمساً ثم أصبحن غدوة بجزن أخباراً ألد من الحر

ومما يصور قسوة الأخطل الوحشية في الهجاء ، وبشاعة تصويره لمناظر القتال ، هذه الأبيات التي يصف فيها جثة عمير بن الحباب ، وقد تركت في الصحراء عازية من الأكفان ، تدبعت منها الروائح العفنة ، فتدل الضباع

(١) الوهل الفزع . أي أن قيساً فرغت إليك تطلب عذراً عما قدمت .

(٢) الصغر الذلة والهوان .

(٣) السلامي عظام خف البعير . الوقر الصدع .

(٤) الرنين الأنف يريد الشرف . العارض الجمع الكثير وأصله السحاب . البشر ماء

لبنى تغلب .

(٥) أورد قيساً لج ذى حدب عمر ، أي أوردتها بجرماً من المصائب . ذو الحدب

البحر . الفمر الكثير الماء .

على موضعها ، ومن حولها جثث مبعثرة على جوانب الوادي ، قد انتفخت بطونها ، وخرجت أحشاؤها :

أمعشَرَ قيسٍ لم يمتعَ أخوكم غيرُ بأكفانٍ ولا بطهور
تدلُّ عليه الضبعُ ریحٌ تضوعتُ بلا نَفْحِ كافورٍ ولا بعبير
وقتلى بنى رعلٍ كان بطونها على جَلْمَةِ الوادي في بطونٍ حمير^(١)

ومن قصائده التي تمتاز بالفحش ، وبالاعتماد على الصر والهجائية ، قصيدته في هجاء النابغة الجعدي أحد شعراء قيس :

لقد جارَى أبو ليلى بِقَحْمٍ ومُنْتَكٍ على التقریب وان^(٢)
فن إغشاه فيها قوله :

خنافسُ أدبَلتْ لمبيتِ سوء ورثنُ فراشَ زانيةٍ وزان
وما أمُّ ربوتٍ على يديها بطاهرة الثياب ولا حصان
كانَ عِجَابَها ثَلْيا جزورٍ تحسَّرَ عنهما وضُرُّ الجِران^(٣)

وقد عرف الأمويون لتغلب وشاعرها إخلاصهم للدولة في محنتها ، وقتالهم في سبيلها ، فأعظموا مكانهم ، وقربوا الأخطل ، حتى بلغ في بلاط عبد الملك قمة مجده السياسي ، فكان شاعر الدولة المقدم . ولقد بلغ من جرأته على الخليفة ، أنه كان في شعره يمين عليه سابق صنعه له ، ولا ينقطع عن الإدلال

(١) جلبتها الوادي جانباه .

(٢) أبو ليلى : كنية نابغة بنى جمدة . القحم الفرص الكبير السن المهزول الهرم . التقریب ضرب من العدو . المنتك والمنتكس الضعيف . يعيره كبر سنه وعجزه عن المعى في مساجلته الشعر .

(٣) المعجان ما بين القبل والدير . اللحي منبت اللحية من الانسان وغيره . الجروز الناقاة المذبوحة . الوضروسخ الدم واللبن . جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

بموقف قبيلته في تيه وعجب ؛ وكان عبد الملك ، مع ما هو معروف من قوته وهيبته ، يحتمل منه كل ذلك . بل لقد استطاع أن يقول له في إحدى مداخله ، إن قبيلته أقرب ملك الأمويين :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطه الخبر^(١)

واستطاع أن يذهب في الجراة إلى أبعد من ذلك ، حين نقض الجحاف عهده ، فأوقع بتغلب في البشر . فهو يتهم الخليفة بالتقصير في حماية قومه ، ويجعله مسئولاً عن قتل منهم ، فيطالبه بأن يغرم عن القيسية دماهم ، قائلاً إن الحماة مهما تنقل قدم القوم أثقل . وهو يهدد الخليفة بالخروج معتداً بقوة قومه :

لقد أوقع الجحافُ بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعول
فسائلُ بني مروانَ ما بالُ ذمَّةٍ وحبلٍ ضعيفٍ ما يزالُ يُوصَلُ^(٢)
بنزوةٍ لصٍ بعد ما مر مصعبٌ بأشعثَ لا يُفلى رلا هو يُفسلُ^(٣)
أأمركَ الجحافُ ثم أمرته بجيرانكم وسط البيوتِ تقتلُ؟^(٤)
لقد كان للجيران ما لودعوا ثم به عاقل الأروى أتنكم تنزلُ^(٥)
فإن لا تُغيرها قرشٌ بمالكها يكن عن قریش مُستارٌ ومزحلُ^(٦)

(١) الغوطة غوطة دمشق .

(٢) جبل ضعيف ، يقصد العهد الذي بين قومه وبين الأمويين ، يصفه بالضعف لأن الخليفة لم يستطع أن يحمي قومه من الجحاف السلي حين أوقع بهم .

(٣) يقصد باللص الجحاف . يقول له فعلمت هذا بعد أن قتلنا لكم مصعب بن الزبير .

(٤) يتهم بالأمويين يقول هل استأذنتكم الجحاف في قتل جيرانكم الذين يحتمون بكم فأذنتم له .

(٥) الأروى جمع كثرة للأروية وهي أثنى العول . والعاقل المتنع في الجبال العالية .

يقول لقد كان للجيران عليكم عهداً ينزل الأروى المعتصم بأعلى الجبال .

(٦) مستأذ من ماز الرجل وامتاز واستأذ انتقل من مكان إلى مكان . متنجياً .

وَنَعْرُزُ أَنَابًا عَرَّةً يَكْرَهُنَهَا . وَنَحْيُ كَرَامًا . أَوْ نَمُوتُ فَتَمُتِلُ^(١) .
 وَإِنْ تَمَلُّوا عَنْهُمْ فَمَا مِنْ جَالِزٍ . وَإِنْ ثَمَلْتُمْ إِلَادَ الْمُقُومِ أَثْقَلُ^(٢) .
 وَإِنْ تَعْرِضُوا فِيهَا لَنَا الْحَقَّ لَمْ نَكُنْ . عَنِ الْحَقِّ عَمِيَانًا بَلَى الْحَقُّ نَسْلًا .
 وَقَدْ نَزَلَ الثُّغْرَ الْخَوْفَ وَيُتَّقَى . بِنَا الْبَأْسِ وَالْيَوْمِ الْإِغْرَ الْحَجَلِ .

كان الأخطال لسان الحكومة الذي يعبر عن رأيها واتجاهاتها . فهو
 يصور بغض الأمورين لهذا الحزب القيسي ، الذي ظل مكروهاً من عبد الملك ،
 لا يقربه ولا يثق به . فلا تكاد تخلو قصيدة في مدح عبد الملك من هجائهم ،
 والتحدث عن نفاقهم ، ونبش قديم كيدهم للدولة وانحرافهم عنها . يقول
 في قصيدته :

لعمري لقد أسريتُ لا ليلَ عاجزٍ بساهمة الخدَّين طاووية القُرْبِ^(٣) .
 ... عتبتم عاينا قيس عيلان كلَّكم وأئى عدوٍ لم تُبته على عتب
 لقد علمت تلك القبائل أننا مصاليتُ جذامون آخية الشَّغْبِ^(٤) .
 فإنَّ تلكُ حربُ ابْنِي نزار تواضعتْ فقد عذرتنا من كلابٍ ومن كهبٍ
 وفي الحُقبِ من أفناء قيس كأنهم بَهْرَجِ الثَّرثارِ خُشبٌ على خُشبِ^(٥) .

(١) عره بشر لطخه به وقد يكون من العر وهو الجرب .

(٢) الحماله الدية والغرامة .

(٣) السرى سير الليل . الساهم الشاحب الضامر . القرب جانب السرة .

(٤) المصلات الشجاع . الجذم القطع . الآخية خشبة تدفن في الأرض يشد فيها خبل

الدابة . الشنب تهييج الشر .

(٥) الحقب جنح أحقب وهو الحمار الوحشى الأبيض فى حقويه ، أفناء قيس أخلاطهم .

الثرثار واد عظيم بالجزيرة وهو فى البرية بين سنجار وتكرت تسكنه تغلب ، وبه كانت
 وقائع مشهورة بينهم وبين قيس عيلان فى أيام الفتنة الثانية .

وهنَّ أذقنَ الموتِ جزءَ بنِ ظالمٍ بماضيةٍ بين الشراسيفِ والقصبِ (١)
 فظَلَّتْ بنو الصمماءِ تأوى فلوهمُ إلى كلِّ دسماءِ الذراعينِ والعقبِ (٢)
 وقد كان يوماً راهطٍ من ضلالكم فناءً لاقوامٍ وخطباً من الخطبِ
 تُسامونَ أهلَ الحقِّ بابنِ محاربِ ورهطِ بنِ العجلانِ حسبكُ من ركبِ (٣)
 قرومُ أبي العاصي غداةً تَنخَمَطتْ دمشقُ بأشباهِ المهناقرِ الجربِ (٤)
 يقودونَ موجاً من أميةٍ لم يرثِ ديارَ سلميٍ بالحجازِ ولا الهضبِ
 ملوكٌ وحكامٌ وأصحابُ نجدةٍ إذا شوغبوا كانوا عليها أولى شغبِ
 ويعرضُ بزعيمهم زفر بن الحارثِ في قصيدةٍ يمدحُ بها بشر بن مروانِ
 فيختمها بقوله :

فلا تجعَلنِّي يا ابنَ مروانِ كأمريءِ غلتُ في هوى آلِ الزبيرِ مرارِجُهُ
 يُبايعُ بالكفِ التي قد عرقتُها وفي قلبه ناموسُهُ وغوائلُهُ

وقد اتخذ مهاوئه للقيسية صورة جديدة في النقائض التي اتصلت بينه وبين جرير ، وكان عمادها هجاء الأخطل لهذا الحزب الزبيرى المنحرف عن الأمويين ، وانتصار جرير له وهجو تغلب وشاعرها النصراني .

ومن أروع ما يصور الهجاء السياسي الممتاز نقيضة الأخطل المشهورة :

(١) الشراسيف أطراف الاضلاع من أسفل الجنب ، التصب المصران ، جزء بن ظالم الحارث بن ظالم الذي قتل ابن النعمان وكان من فتاك العرب المشهورين ، والأخطل يفتخر هنا بقتلهم هذا البطل .

(٢) بنو الصمماء إخوة عمير بن الحباب نزههم بذلك ، والصمماء الصغيرة الأذن ، دسماء الذراعين من الوسخ والانداد .

(٣) أهل الحق يعنى بى أمية ، محارب وبنو العجلان من قبائل قيس عيلان

(٤) القروم جمع قرم وهو السيد على التشبيه بفعل الابل . تنخمت تكبر وغضب . المهناة الابل المطوية بالقتران وذلك حين تداوى من الجرب . والعرب تصف الجيش بالسهاد لكثرة ما عليه من الدروع والحديد .

خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزْعَجْتَهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا خَيْرٌ^(١)
 وهو يمزج المدح فيها بالهجاء . يرفع من قدر الأمويين ، معرضاً بأعدائهم
 من القيسية ، متشمتاً بما لحقهم من ذل وانكسار ، مباهياً بمشاركة قبيلته
 في إقرار الملك . وأين يذهب هؤلاء الحق من عبد الملك ، وهو أعلى الناس
 همة ، وأقوام مُنَّة ، وأصبرهم على قتال :

لَا يَطْعَمُ النُّومَ إِلَّا رَيْثَ بَيْعَتِهِ هُمُ الْمُلُوكِ وَجَدَّ هَابَهُ الْحَجَرُ
 مَقْرَشٌ كَأَقْرَاشِ اللَّيْثِ كُلِّكَه لَوْعَةٌ كَأَنَّ فِيهَا لَهُ جَزْرٌ^(٢)
 حَتَّى تَكُونَ لَهُ بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ وَبِالثَّوِيَّةِ لَمْ يُنْبِضْ بِهَا وَزْرٌ^(٣)
 وَتَسْتَبِينُ لِأَقْوَامِ ضَلَّاتِهِمْ وَيَسْتَقِيمُ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعْرٌ
 يَلُو الْقَنَاظِرَ بَيْنِهَا وَيَهْدُمُهَا مَسُومٌ فَوْقَ الرَّايَاتِ وَالْقَتْرُ^(٤)
 حَتَّى اسْتَقَلَّ بِأَثْقَالِ الْعِرَاقِ وَقَدْ كَانَتْ لَهُ نِقْمَةٌ فِيهِمْ وَمُدْخَرٌ^(٥)
 وَمَاذَا يَعْيِيُونَ عَلَى بَنِي أُمِيَّةٍ أَوْ يَنْقَمُونَ مِنْهُمْ وَهُمْ :

فِي نَبْعَةٍ مِنْ قَرِيشٍ يَعْرِصُونَ بِهَا مَا إِنْ يُوَازِي بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
 عَلَتْ هَضَابًا وَحَلَّوْا فِي أَرْوَمِهَا أَهْلُ الرِّيَاءِ وَأَهْلُ الْفَخْرِ إِنْ فَخَرُوا
 حُسْدُهُ عَلَى الْحَقِّ عِيَّافُو الْخَلَاءِ أَنْفُ وَإِنْ أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا

(١) خف القوم ارتحلوا مسرعين . راحوا من الرواح وهو ضد البكور : أزعجتهم
 نوى ألققتهم . غير الدهر وصروفه حوادثه .
 (٢) الجزر كل شيء مباح للذبح .
 (٣) الطف أرض من ضاحية الكوفة كان فيها مقتل الحسين . الثوية موضع قرب
 الكوفة . لم ينبض بها وتر لأن الجيشين ملتحان فليس بينهم إلا الضرب والطمع . وإنما
 يترامى الجيشان بالنبل إذا كانا بعيدين قبل أن يلتحما .
 (٤) مسوم معلم بعلاة يعرف بها . وكان الفرسان المشهورون يطمون أنفسهم وقت
 القتال ليعرفوا من سائر الناس . القتر غبار المعركة .
 (٥) نعمة فيهم ومدخر سبقت إليهم نعمته ولا يزال يدخر لهم ألواناً من النكال .

وما الذي غوم بنى أمية حتى ركبوا رهن سبهم ، وهم أوسع الناس حيلة ،
وأشدهم بطشاً !

لا يستقلُّ ذوو الأضغان حربهم ولا يُبينُّ في عيدانهم خور

وإن تدجّت على الآفاق مظلمةٌ كان لهم مخرجٌ منها ومُعْتَصِرٌ (١)

شمسُ العداوة حتى بُسْتَقَادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا (٢)

وهل يستحق هؤلاء المارقون الذين أنزلهم السيف على حكمه ، فأعطوا
عن يد وهم صاغرون ، إلا الذل والهوان ؟ وكيف يأمن الخليفة لزعيمهم وهو
عدوه الذي استباح دم جنده وأوليائه ، وإنه ليخفي في نفسه الغل الدفين
والحقد الكمين .

بنى أمية إني ناصحٌ لكم فلا يبيننَّ فيكم آمناً زُفراً (٣)

وأتخذوه عدواً إن شاهده وما تغيّبَ من أخلاقه دَعَرَ

إن الضغينةَ تلقاها وإن قدّمت فاعمرَّ يكينُ حيناً ثم ينتشر (٤)

أتقربون منكم هذا الرجل ، وسيفه يقطر من دماء قومي ، الذين بذلوا
أنفسهم في إقرار ملككم ؟ ألم أناضل دونكم أبناء الأنصار ..

حتى استكانوا وهم مني على مضضٍ والقولُ ينفذُ ما لا تنفذُ الإبر

(١) تدجّت أظلمت . مظلمة كارثة أو مصيبة . معتصر . ملجأ وممقل

(٢) رجل شموس عسرفي عداوته ، والشماس الإباء ، والفرس الشموس الذي يستعصى
على راحبه

(٣) هو زفر بن الحارث الكلابي من زعماء القيسية الذين حاربوا الأمويين ، وكان
قد هرب ثم آمنه عبد الملك ، وهو القائل :

فقد تنبت المرعى على دهن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(٤) المر الجرب ، يقول إن الحقه يظل كامناً في النفس كالجرب يسكن فيظن أنه قد

انصرف . ولكنه لا يلبث أن ينتشر .

وقيسٌ عيلانٌ حتى أقبلوا رقصاً فبأيعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضجُّوا من الحرب إذ عفت غواربهم وقيسٌ عيلانٌ من أخلاقها الضجر
فلا هدى الله قيساً من ضلالتها ولا لعمري إذ عثروا^(١)

ويندفع الأخطل في الفخر بقومه ، ونصرهم عبد الملك ، وقتلهم عمير ابن الحباب رأس سليم الذي دلاهم إلى الفتنة ، وقادهم إلى الحين والهلاك . وتستثيره ذكرى الدم ومناظر القتال ، فيبلغ منه الغضب والحماس حد الوحشية والغلظة التماسية ، حين يصف جثته وقد انطرحت في ميدان القتال ، وطاحت عنها الرأس بين أكداس من الرموس ، وقد صمت منها الأذان ، وخرص اللسان ، ومزق السيف خيشومها . وهذا هو الحرث بن أبي عوف لعبت به السيوف حتى تركته جزر العقبان والحدأ ، تحوم حول جثته ، وتتنازع لحمه .

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الفوطة الخبر
يعرفونك رأس ابن الحباب وقد أضحى ولل سيف في خيشومه أثر
لا يسمع الصوت مستكأ مسامعه وليس ينطق حتى ينطق الحجر
أمت إلى جانب الحشاك جيفته ورأسه دونه اليخنوم والصور^(٢)
يسأله الصبر من غسان إذ حضروا والحزن كيف قرأك العلة الجشرا^٣

(١) لا لعمري لا ارتفعوا ، يقال لا لعمري فلان أى لا أقامه الله

(٢) الحشاك واد بأرض الجزيرة بين دجلة والفرات كانت فيه وقعة بين قيس وتغلب وفي هذه الواقعة قتل عمير بن الحباب من زعماء قيس . واليخنوم موضع بالشام والصور قرية على شاطئ الحابور .

(٣) الصبر والحزن حيان من غسان . الجشرا الرعاة الذين يعمدون بأبهم من الممرال . كان عمير يسخر من بني تغلب ويقول (إنما هم جشرا) والأخطل يسخر به هنا ويقول إنهم قد حملوا رأسه لهؤلاء الأقوام من بني غسان فسألوه متكبين : كيف رأيت قرعى هؤلاء الغلمان من الرعاة . وإنما قرؤه الموت .

والحرث بن أبي عوفٍ لمِئْبَنَ به حتى تَعَاوَرَهُ العِيقَانُ والشَّيْرُ (١)

انظر إلى ما يشتمل عليه هذا الهجاء من غضب وحشى ينزع من قلبه كل رحمة ، وإلى ما يخوض فيه من تفصيل تقشعر منه الأبدان ، وإلى هذه الألفاظ القاسية التي يستعملها في وصف جثته حين يسميها (جيفة) وأنفه حين يسميه (خيشوماً) .

هذه الغلظة القاسية هي طابع الأخطل الذي تتسم به كل أهاجيه ، وهذه الألفاظ البدوية الخشنة ، بما فيها من ضخامة تصك الأسماع ، هي أنسب الأثواب لهذه الغلظة البالغة . لم يكن الأخطل متمكماً سخراً كجرير ، ولم يوهب هذا الذكاء الذي يلهم النكتة البارعة ، والصورة التي تستفز للضحك ، فهو قاطب دائماً حين يهجو ، يذهب الغضب بكل ما في مزاجه من دعاية . وقد تجدد في هجائه كثيراً من الصور القوية ، ولكنها صور كالحة دائماً يغشها عبوس مظلم واجم . فهو رجل غليظ قاس لا تعرف الرقة إلى قلبه سيلاً . ولم يكن من محض الصدفة والاتفاق أن يخلو ديوان هذا الشاعر الكبير من الرثاء ، فالواقع أن هذا الرجل لم يكن يستطيع الحزن ، ولم تكن مصيبة إنسان مهما عظمت لتحرك قلبه أو تثير عطفه ، بل لقد كانت المناظر المثيرة للحزن ، لا تثير في نفسه إلا الوحشية الفظة ، والثورة الهاججة .

كان الأخطل ، كما تقدم ، لسان الأمرين الذي يعبر عن ميولهم واتجاههم في مدائحه وفي أهاجيه على السواء . فهو يثنى على ولائهم المعروفين بالشدة التي تتجاوز حدود العدالة ، مبرراً مسلكهم ، مؤيداً سياستهم ، وكأنه بذلك يجيب على ما يوجه إليهم من نقد ، وما يرمون به من ظلم واستبداد . فهو يخاطب عبد الملك مؤيداً الحجاج فيما ينتهج من عنف صارم ، يؤدب هؤلاء

(١) الحارث بن أبي عوف من رجال بني عامر بن صعصعة (من فئس عيلان) السمر طائر شبيه بالقر . تعاورة العيقان والسبر تداولته .

المنافقين من أهل العراق ، الذين عرفوا بميلهم عن الدولة وبذهابهم لها . فهو ضابط للخراج ، مظفر في الحروب ، لا يزال يسوق إلى الخليفة السبايا والغنائم ، ضارب على أيدي العابثين بالقانون من الخوارج :

فعليك بالحجاج لا تعدل به أحداً إذا نزلت عليك أمور
ولقد علمت وأنت أعلمنا به أن ابن يوسف حازم منصور
وأخو الصفاء فما تزال غنيمةً منه يحيى بها إليك بكبير
وترى الرواسم يخنائن وفوقها ورق للعراق سبائك وحرير^(١)
وبنات فارس كل يوم تُصطفي يملونهن وما لهن مهور
... ولقد علمت بلاءه في معشر تغلى شناة صدورهم وتفور
والقوم زارهم وأعلى صونهم تحت السيوف غمامهم وهدير^(٢)

طلبوا الأزارق بالكتائب إذ هوت

بشبيب غائلة النفوس غدور^(٣)

يرجو البقية بعد ما حادقت به فرط المنية يَحْصِبُ وَحَجُورُ^(٤)
فأباح جمعهم حميداً وانثنى وله لوقعة آخري زفير

(١) الرواسم الابل . الورق الفضة . وبنات فارس ما لهن مهور لأنهن سبايا . يملونهن يملون الابل .

(٢) الزمير : صوت الأسد شبهه بأصوات المحاربين . النعمة : السلام الخفي . يقول أقصى ما ترتفع به ، حناجر المحاربين أن يضموا لشدة انشغالهم بالقتال ولجفاف حلوقهم

(٣) الأزارقة من فرق الخوارج ومن أشدها تطرفاً . شبيب من زعامتهم كان له حروب كثيرة مع الحجاج حتى مات غرقاً عند جسر دجيل سنة ٧٧

(٤) يحصب وحجور من قبائل اليمن ، الأولى من حمير والأخرى من مهران . فرط المنية ما سبق إليه منها .

ويمدح الأخطل عباد بن زياد وأخاه مسلم بن زياد فينسبهما لأبي سفيان ،
توكيداً لما فعل معاوية من إلحاق زياد ، وإقراراً له في الأذهان والآذان .
وكان الناس لا يكادون يقولون إلا (زياد بن أبيه) أو (زياد بن سمية) .
يقول في مدح عباد :

إِلَيْكَ أبا حَرْبٍ تَدافَعُنْ بَعْدَ ما وصلنَ لشمسٍ مَطْلَمًا بَغْرُوبِ
ثم يكرر ذلك بعد أبيات :

ولولا أبو حَرْبٍ وَفَضْلُ نِوَالِهِ علينا أانا دهرنا بخطوبِ
ويقول في أخيه مسلم بن زياد :

نَفْسِي فِدَاءُ أَبِي حَرْبٍ غَدَاةَ غَدَا مَخالطُ الجِنِّ أو مستوحشُ فِرْقَةٍ
وكان أكثر ما عني الأخطل بتقريره حق الأمويين في الملك . فهو يؤكد
في كل موضع من شعره أن الله قد اختارهم للخلافة ، فهم أصلح الناس لها .
يقول في عبد الملك :

وَفَدِ جَمَلِ اللهِ الخِلافةَ فِكم لا يَبِضُّ لَعارِي الخِوانِ ولا جَدْبَ (١)
... أَهلُوا مِنَ الشَّهِرِ الحَرَامِ فأَصْبَحُوا مِوالى مُلْكِهِ لا طَريفٍ ولا غِصْبِ
ولم تر بَعينِي مِثْلَ يَوْمِ رَأيتُهُ أَتاكِ بلا طَعنِ الرِّماحِ ولا الضَّرْبِ
ولكن رَأَكِ الله مِوضعَ حَقِّهِ على رِغْمِ أعداءِ وصدَّادَةِ كُذْبِ
ويقول في مدح بشر بن مروان :

أَنتُمْ خِيارُ قَريشٍ عِندَ نَسبَتِهِم وأَهلُ بَطحِهاها الأَثَرُونَ وَالفرَحِ
أَهْطَأَكُم الله ما أَنتم أَحَقُّ بِهِ إِذِ المُلُوكُ على أَمثالِهِ اقْتَرَعُوا

(١) هذا البيت من سقطات الأخطل التي لامة فيها قديما النقاد قالوا (نو مدح بهذا البيت حرسيا ثميد الملك ما أنصفه) قليل جداً على الخلفه أني بوصفت خواصه بأنه ليس ماريًا ولا جدبا .

وهو يؤكد فضلهم على الناس ، بما لهم من حسب عريق في الجاهلية ،
وبخلافة عثمان في الإسلام . فلسكنهم ثابت بحسبهم وقديم فضلهم (ليس
بطريف ولا غضب) وليس أعداؤهم من بنى الزبير وأنصارهم القيسية إلا
خرابا وقطاع طرق ، عاقبهم الله على بغيم بيد الأمويين .

فَاللَّهِ لَمْ يَرْضَ عَنْ آلِ الزُّبَيْرِ وَلَا
عَنْ قَيْسِ عَيْلَانَ حَيًّا طَالَمَا خَرَبُوا (١)
يُعَاطِمُونَ أَبَا الْعَاصِي وَهُمْ نَفَرٌ
فِي هَامَةِ مِنْ قَرِيشٍ دُونَهَا شَذَبٌ (٢)
بِيضٌ مُصَالِيَةٌ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ فَلَنْ
يُدْرِكَ مَا قَدَّمُوا مُجْمِئًا وَلَا عَرَبٌ
كَانُوا مَوَالِيَّ حَقًّا يَطْلُبُونَ بِهِ
فَادْرِكُوهُ وَمَا مَكُّوا وَلَا لَقَبُوا
إِنْ يَكُ لِلْحَقِّ أَسْبَابٌ يَمُدُّ بِهَا
فَفِي أَكْفَهُمُ الْأَرْسَانُ وَالسَّبَبُ
هُمْ سَمِعُوا بِابْنِ عَفَانَ الْأَمَامِ وَهُمْ
بَعْدَ الشَّمْسِ مَرَوْهَا نَمَتِ احْتَلَبُوا (٣)
حَرْبًا أَصَابَ بَنِي الْعَوَّامِ جَانِبَهَا
بَعْدَ مَنْ أَكَلَتْهُ النَّارُ وَالْحَطَبُ
حَتَّى تَنَاهَتْ إِلَى مِصْرٍ جَا جَهُمْ
تَعْدُو بِهَا الْبُرْدُ مَنْصُوبًا بِهَا الْخَشَبُ (٤)
وهو يؤكد هذا المعنى في مواضع أخر حين يقول من قصيدة يمدح بها
عبد الله بن معاوية :

قوم إذا بسطَ الإلهُ ربيعهم دارتُ رحاهُ بمُسَيْلِ دَرَارِ
وإذا أُريدَ بهم عقوبةُ فاجرٍ مطرتُ صواعقَهُمُ عليه بنارِ

(١) الخارب السارق وقاطع الطريق .

(٢) الشذب : الشوك .

(٣) سموا بابن عفان أى سموا لادراك تأره . مروها نمت احتلبوا . شبه الحرب
بناقة صعبة . الخلق يمتنع على الخالب في أول الأمر . والمرى مسح الضرع ليدر . يشبه
تذليلهم لصواب الحرب بالخالب الصناع الذى يمسح ضرع الناقة النافرة حتى تلتين له
وتسبح باللبن .

(٤) لما قتل مصعب بن الزبير بعث عبد الملك برأسه إلى أخيه عبد العزيز بن مروان

بمصر . البرد مجفف برد بضمين جمع برید .

ثم يقول :

لما تبوَّحت الضغائن بينهم
وأهلٌ إذ غنِظَ العدوُّ بفياق
حتى رأوه بجانب مسكنٍ مُعلماً
ولقد تناولت العقورُ بضربةٍ
ورجالُ عبد القيس تحت نُحورِها
وعلى خزاعةٍ والسكونِ تعظفتُ
والخيلُ تمسُقُ عنهم أسلابهم
حتى إذا علم الاله نكاله
حقن الدماء وردَّ ألقمهم لهم
ويقول في مدح بشر بن مروان :
إمامٌ يقود الخيلَ حتى كاتها
إلى الحرب حتى تخضعُ الحربُ بعدما
... بكم أدرك اللهُ البريةَ بعدما

أفضى وسار بجحفلٍ جزَّار
تحت الأشاء عريضة الأثار (١)
والخيلُ جاذيةٌ على الأقتار (٢)
وبنى أبي بكر ذوى الأصهار (٣)
كانوا لها جزراً من الأجزار
وأصابهم ظفرٌ من الأظفار (٤)
في كل معتركٍ وكلِّ مغارٍ (٥)
وتصاغروا للحرب أى صغار
وجزأهم بالعرف والإنكار
ضدورُ القنا معوجها وقويمها
تخمطُ مرَّحها وتحمي قرومها (٦)
سعى لصمها فيها وهب غشومها

(١) غنظه وفدحه وبهظه كل ذلك بمعنى واحد أى نحه وآذاه وأجهده . الأشاء النخل شبه القنا بها .

(٢) الجاذى الثابت القائم . الأقتار أطراف الحوافر . مسكن موضع على نهر دجيل قريب من دير الجاثليق كانت به وقعة بين عبد الملك ومصعب .

(٣) العقور قبائل من تغلب وبنو أبي بكر هم أبو بكر بن كلاب .

(٤) عبد التيس قبائل من ربيعة . وخزاعة والسكون من قبائل اليمن . خزاعة من الأزد والسكون من كندة .

(٥) مشق ثوبه شقه ومزقه . المنار من الاغارة .

(٦) تخمط اماناج كما يتخبط الفحل وهو هديره ويعقده عنقه وضربه بذنبه . مرحاما من المرح والنشاط . مرحى جمع مرح .

وفكرة الأخطل هنا بسيطة قريية . فالقوى الغالب هو صاحب الحق دائماً ، لأن الله لا ينصر الظالمين ، ولا يعين المفسدين . وليست الحروب إلا محنة واختباراً ، يظهر الله خلالها صاحب الحق ، ويعاقب الظالمين بيديه . وهو بهذا متأثر بالفكرة الجاهلية التي قررناها ، من أن القوة وحدها هي الفضيلة ، وأن كل ما نالته يد التموى فهو حق له . وقد كان الأمويون أنفسهم يحبون أن يمدحوا على هذا النحو الذى يصورهم أقوياء ، ولم يكنوا يرون بأساً فى أن يتول عنهم الشعراء إنهم أخذوا الملك بالسيف . وكان الشعراء يجرّون فى ذلك على ما يجب الأمرىون حتى جاء الأخطل فاستحدث فكرة هذا الحق الإلهى ، ولسكنه ألبسها ثوباً جاهلياً . روى صاحب الأغاني أن عبد الملك أنشد قول كثير فيه :

فما تركوها عنوةً عن مودةٍ ولكن بحمدٍ المشرفِ استقلها
فأعجب به . فقال له الأخطل — ماقلته لك والله يا أمير المؤمنين أحسن
منه . قال — وما قلت ؟ قال قلت :

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملكٍ لا طريفٍ ولا غضب
جعلته لك حتماً وجعلك أخذته غضباً . قال : صدقت .

والواقع أن الأخطل كان بدوياً يعيش على هذه المثل الجاهلية ولا يرى غيرها ، نجد ذلك واضحاً فى حياته وتفكيره وفى فنه على السواء . فهو رجل لا يؤمن إلا بالقوة . وقارىء شعره فى الفخر لا يراه إلا جاهلياً بمعنا فى الجاهلية . يقول :

نصبنا لكم رأساً فلم تكاموا به ونحن ضربنا رأسكم فنصدتوا
ونحن قسمنا الأرض نصفين : نصفها لنا ونترأى أن تكون لنا ميعا
بتسمين ألثاً تأله المينُ وسطه متى تره عينا الطرامة تدمعا
إذا ما أكلنا الأرض رعياً نطلعت بنا الخيلُ حتى تستبيح المنعاً

وهو لا يرى في الجود فضيلة الإيثار والعطف على البائس المحروم، ولكنه يراه مظهرا من مظاهر القوة ، لأن الكريم يجود بما اجتمع له من السبي والمغانم بقوته :

إليك أمير المؤمنين رحمتها على الطائر الميمون والمنزل الرحب
إلى مؤمن تجلوا صحيفة وجهه بلابل تغشى من هموم ومن كرب
مناخ ذوى الحاجات يستمطرونه عطاء كريم من أسارى ومن نهب^(١)
ترى الحلق الماذى تجرى فضوله على مستخف بالنوائب والحرب^(٢)

وهو يذهب في اللذة مذهب الجاهليين ، الذين يرون الهجوم عليها واغتصابها أليق بالفق والجريء الفاتك :

بان الشباب وربما علته بالفانيات وبالشراب الأصهب
ولقد شربت الخمر في حانوتها ولعبت بالقيينات كل الملعب
ولقد أوكل بالمدجج تنقى بالسيف عرته كمرّة أجب^(٣)
ويقول :

ألا يا أسلمى يأم بشرى على الهجر وعن عهدك الماضى له قدم الدهر
ليالى ناهو بالشباب الذى خلا بمرجة الأرداف طيبة الفشر
ويقول - وهو يشبه النساء هنا بالوحش النافر -

ولقد أصيد الوحش فى أوطانها فيدل بعد شماسية اليمفور^(٤)

(١) النهب الغنمة أى أنه يعطى مما يضم فى الحروب .

(٢) الحلق يعنى به حلق الدروع . الماذى ما خلى من الحديد . فضوله ما فضل منه

وزاد . أى أنه الدهر سابقه تنطى سائر الجسد .

(٣) المدجج الداخل فى السلاح . عرته شرته وأصل المرة الجرب أو قرحة .

(٤) العلمس الأباء والامتاع . اليمفور الطي .

ومما يصيرو حبه للبادية ، وكرهه للمدن وما فيها ، قوله في مقدمة قصيدة
يمدح بها بشر بن مروان :

سقى الله منه داراً سلمى بريّةٍ على أن سلمى ليس يُشفى سقيمها
من العربيات البوادي ولم تكن تلوّحها حتى دمشقٍ ومومها (١)

وفن لأخطل بعد ذلك مرآة صادقة لهذه البداة في صورته وتشبيهاته .
وفي أسلوبه وألفاظه . فهو يشبه النساء ، يابل قد أوعثها السير في أرض
سهلة ، تغيب أقدامها في رمالها :

يمشين مشىً أجمال الأدم يؤعّثها أعرافُ دَا كدا كة مُنهالة الكُتب (٢)
ويشبهه مشيهن في موضع آخر ، يمشى الإبل البيض ، يهدر الفحل
وراءهن فيتبخترن .

يمشين مشىً الهجان الأدم رُوّحها عبد الأصيل هديرُ المصعب القطم (٣)
ويشبهه دنان الخمر يابل جربى قد طليت قطرانا :

ولقد تباكرنى على لذاتها صهباء عارية القذى خرطوم (٤)
من عاتقٍ حدربت عليه دنانه وكأنها جربى بين عصيم (٥)
ويشبهه هدير الخمر في الدنان بهدير الجمال :

عز الشرابُ فأقبلتُ مشروبةً هدر الدنانُ بها هدير الأُفحل

(١) لوححة النار والسموم غيرته وسفعت وجهه . الموم مرض الجدري .
(٢) الهجان الابل الكرام . يوعثها يجملها تمشى في الوعث وهو المسكان السهل
تغيب فيه الأقدام . أعراف الرمل والجبل ظهره وأعالیه . الدكداك « اللين من الأرض
والكتب جمع كتيب وهو التل من الرمل سمى بذلك لأنه انكتب أى اجتمع في مكان واحد
(٣) الادم من الابل البيض . المصعب الفحل الصعب . القطم الهاجج شبه مشيهن بذلك
لأن الجبل إذا هدر عليهن تبخترن .
(٤) الصهباء الخمر وذلك للونها والصبية حمرة في سواد . عارية القذى لا قذى فيها .
الخرطوم ما سال قبل أن يعصر وهو أجود .
(٥) الماتق الخالص اللون ، العصيم التطران . الدن وعاء كبير من فخار تخزن فيه
الخمر ويطلق بالتطران لتسد مساهه .

ويشبه القلال الصغار بجانب الدن الكبير ، بصغار الإبل حبل الفحل ،
تتمسح به وتشمه بين رجليه .

وترى القلال بجانبه كأنها قاصص يسفن فروج قرم مرسل^(١)

ويشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفا فهي قوية شديدة ، بناقة لبسوا لها
جلد حرار ، فهي إذا نظرت من بعيد حسبتة ابنها ، فإذا دنت منه فشمته أنكرته
كأنى كررت الكأس ساعة كرّها على ناشص شمت حوارا ملبسا^(٢)
ويشبه رجلا من بكر اسمه الحراق ، في غيظه وشدة غضبه ، بالفحل الذي
حبس عن ضرب الإبل فهو يحرق نابه ويهدر لاوياً رأسه .

وظل الحراق وهو يحرق نابه بما قد رأى من قوة وعتادا^(٣)

هدير المعنى ألحح الشول غيرهُ فظل يلوى رأسه بقتاد^(٤)

ويشبه القيسية ، فيما ذاقوا من نكال الحرب بالذى حمل على ناقة عجز ،
قد تساقط عنها وبرها وبرزت عظامها :

صكوا على شارف صعب مراكبها حصاء ليس لها هُلب ولا وبر^(٥)

(١) القلال آنية الفخار الصغيرة . قاصص جمع قلوص وهي صغار الأبل . القرم الفحل
وهو خطأ من الشاعر لأن المتلس إنما تتمسح بالأشي ولا تتمسح بالفحل .

(٢) الناشص الناقة التي يؤخذ فصيلها فتتمنع اللبن ولا تتمسح به ، فيحشون لها جلده
بالتبن أو التطن ويوضع بجانبها لتتمسح باللبن ، فإذا شمته بأنفها عرفت أنه ليس ابنها .
والشارف هنا يشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفا فيقطب جبينه للذعها وشدة حرارتها بهذه
الناقة حين تشم جلد الحوار المحشو فتلوى رأسها نافرة .

(٣) حرق نابه من باب نصر وضرب سحقه حتى يسمع له صريف .

(٤) الشول جمع شائل وهي الناقة التي تشول بذنبها أي ترفمه طلباً للنجاح . المعنى على
البناء للمفعول المتعب المكدود .

(٥) صكوا على شارف أي حلوا على خطة صعبة ، شبهها بالناقة الشارف وهي
الكبيرة المسنة . الحصاء التي لا وبر لها . الهلب شعر الذنب .

ويشبهه الحقد بالجرب الذي يزول عن ظاهر الجلد ولكنه يكمن تحته
ويذشر بعد حين

إن الضغينة تأقاها وإن قدمت كالمرء يكمن حيناً ثم يفتش
فلو أن جملاً نطق فغال شعراً ما اجتمع له من التشبيهات والصور أكثر
ما اجتمع الأخطل في شعره من ذكر الإبل

والأخطل بعد هذا يتخذ مثله الفنية من قول الجاهلين ؛ فيلشيء بعض
قصائده على نهجهم مثل قصيدته .

بانث سعاد في العينين أمول من حبها وصحيح الجسم مخبول^(١)
فهر يعارض بها قصيدة كعب بن زهير المشهورة في مدح النبي ، ويتأثر
فيها ببعض ألفاظ الأعشى في مطولته (ودع هريرة) يقول فيها

غراء فرعاء مصقول عوارضها كأنها أحور العينين مكحول
وهو مأخوذ من بيت الأعشى :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهويذى كما يمشي الوحى الوحل^(٢)
وهو في قصيدته .

الم تعرض فتسأل آل هو وأروى والمدلة والربابا
متأثر بتصيدة الأعشى :

عرفت اليوم من تياً مقاما بجور أو عرفت لها خياما

(١) الممول بضم الميم المكحال الذي يكتحل به . أراد أنه مكتحل بالسهو .
(٢) غراء بياض ، فرعاء طويلة الفرع وهو الشعر . العوارض الأسنان . الوحى
الذى يشتكى حافره فيكون مشيه مثانلاً . الوحل الذى يمشى فى الوحل . وهو تشبيه
خشن لأنه يشبه فتاحته المتنبه فى سيرها . بداية تشكو حافرها وتمشى فى الوحل .

في مثل قوله :

وقد قالت مُدْلَةٌ إِنْ قَلْتَنِي أراك كبرت والصدغين شابا
فإن يك رَيْتِي قد بان مِنِّي فقد أروى به الرِّسْلَ اللهابا
فهو مأخوذ من قول الأعشى :

وقد قالت قتيلةٌ إذ رأتني وقد لا تعدمُ الحسناء ذاما
أراك كبرت واستحدثتُ خلقنا وودعت الكواعبَ والمداما
فإنْ تك لِمَتِي يا فتى أضحت كأنَّ على مفارِقها ثغاما
وأقصرَ باطلِي وصحوتُ حتى كأن لم أجِر في دَدَنٍ غلاما^(١)
فإن دوائرَ الأيام يُفني تتابعُ وقمها الذِّكْرُ الحساما

وهو يعتمد كذلك في قصيدة (عفا واسط) على كثير من صور الأعشى .
ثم هو بعد ذلك يكثر من وصف الناقة والصحراء في مدائحه ، ويسلك في
ذلك مسلك الجاهليين ، الذين يشبهونها بحمار الوحش أو الثور ، وينصرفون
عن الناقة إلى هذا الثور أو ذاك الحمار ، ليصوروا نشاطه في الصحراء ، وما
يلقى من عنات الصائد ، وقسوة الريح والمطر . وينتمون آخر الأمر إلى القول
بأن ناقتهم تشبه هذا الموصوف ، في نشاطها وقدرتها على تخطي العتبات ،
وفيما نالها من إعياء بسبب الرحلة إلى الممدوح . هذه الصورة تتكرر في الشعر
الجاهلي ، ويتداولها الشعراء على نحو متشابه ، بتفاصيلها وأجزائها ، ليس فيها
تحوير أو تفتير . وكذلك هي في شعر الأخطل بأجزائها ودقائقها .

وتأثره بالأعشى في الخمر خاصة مشهور لا يحتاج إلى التنبيه عليه . ويكون
أن أقدم له مثلين أو ثلاثة :

(١) إددن اللهو والعب . أقصر باطل ارعويت عن عبث الشباب حين كبرت .

الأعشى : محسبُ الزُّقِ لديها مُسنداً حبشياً نام عنداً فانبطح
 الأخطل : أناخوا فجروا شاصياتِ كأنها رجالُ من السودان لم يتسربلوا^(١)
 الأعشى : من خمر عانة قد أتى بلخنامها حولهُ تسلُّ غمامةَ المزكوم
 الأخطل : وإذا تعاررت الأكَفُ زجاجها نفتحَ فشم رباحها المزكوم^(٢)
 الأعشى : لا يستفيقون منها وهي راهنةُ الإيَّاتِ وإن علَّوا وإن همَّلوا
 الأخطل : فما لبَدَّتْنَا نشوةُ لِحْفَتِ بنا توابجها مما نُعلُّ وتُهَلُّ^(٣)

* * *

لم يدم الأخطل هذا التفرد في بلاط الأمويين . فزد كثرت حوله
 الوشائيات في أواخر أيام عبد الملك ، وأخذ النصارى يفقدون ما كانوا
 يستمتعرون به من حرية ، فبرزت منازلاته ، وتخلص سلطانه ، حتى أصبح يلجأ
 إلى الوليد ولي العهد ، يطلب إليه التوسط فيما ناب بترمه من غرامات ثميلة .
 وضرائب فادحة لا يطيقونها :

وحاجة العيون طوى قواها شهابُ الصيف والسفر الشديد^(٤)
 طلبن ابن الإمام فتى قریش بمخصٍ ومخصٍ غائرةٌ بعيد

(١) الزق جلد (قربة) يحفظ فيه الماء والخمر يتخذ في الأسفار خاصة . يشبه
 الأعشى الزق في أسواده رجل حبشي قد رقد على الأرض عارياً . ويشبهه الأخطل رجل
 عار من السودان . الشاصية هي الزق .

(٢) تسل غمامة المزكوم . وشم رباحها المزكوم هو تصوير لقوة رائحة الخمر التي
 تقتحم أنف المزكوم لأن حاسة الشم تكون عنده ضعيفة .

(٣) يقول الأعشى إنهم يرالون الشراب ولا يتوقفون عنه إلا رينما يقول أحدهم
 للساقي « هات ! » ويقول الأخطل إن نشوة الكأس السابق لا تلبث أن تسلمهم إلى
 اللاحق . لكثرة ما يشربون المرة بعد المرة . الملل الشرية الثانية . والنهل
 الشرية الأولى .

(٤) حاجة العيون غائرتها .

عناك إلى الرياء فقول صدق وجدَّ قَصْرَتْ عنه الجدود (١)
 وزندك من زناد وإريات إذا لم يُحمد الزند الصلُود
 وإنا معشرُ نابت علينا غرامات ومضلعة كؤود
 وعضُ الدهرِ والأيام حتى تغيّر بعدك الشعرُ الجديد
 بدأ نجم عدى بن الرقاع في الصعورد، حتى أصبح الشاعر المقدم عند
 الوليد بن عبد الملك . وانكش الأخطل على خوف ووجل ، مهدداً لا يطمع
 إلا في السلامة والعافية ، لا يكاد يقدم على الخليفة ، إلا في هذه المراسم التي
 يجتمع فيها الشعراء لمدحه كل عام ، يركد ولاءه للأميرين ، ويبدد سابق
 فضاهم عليه ، معترفاً عن بعده بما يخاف من وشاية الواشين ، التي كادت
 — لولا فضل الوليد — تودي به ، وتورده مرارداً الهلكة .

بنى أمة قد أجنت فواضلكم	منكم جيادى ومنكم قبلها نعى
فهي إذا ذكرت عندى وإن قدمت	يوماً كخط كتاب الكف بالعلم
فإن حلفت لقد أصبحت شاكرها	لا أحاف اليوم من هانا على أنم (٢)
لولا بلاؤكم في غير واحدكم	إذا لقت مقام الخائف الرزم (٣)
أسمتكم يوم أدعوا في مؤداة	لولاكم شاع لحي عندها ودمى (٤)
لولا تناولكم أياى ما علقت	كفى بأرجائها القصى ولا قدمى
وقد علمت وإن أصبحت نائيمكم	نصحى قديماً وفهلى غير ميمم

(١) الرياء يقصد به هذا فعل الخير . تمامه ونصه ورفعه . فقول صدق يقصد
 بهم أجداده .

(٢) الأثم مثل طرب وفرح الكاذب . يقول لا أحلف كاذباً

(٣) الرزم المنقطع الذليل قبيل الرهط .

(٤) المؤداة كمنظمة المهلكة والمفازة وحفرة الميت .

لقد خشيتُ وُشاةَ الناسِ عندكم ولا صحیحَ عَلى الأعداءِ والسكلم
ويقول من قصيدة أخرى يمدح فيها الوليد

وقد علمتُ أُمیةً أن ضِغنی إليها والعداءُ لها هریر
وأنى ما حیتُ على هواها وأنى بالمغیبِ لها نَصُور
وما یبقی على الأيامِ إلا بناتُ الدهرِ والسكلمُ العَقُورُ (١)
فَسنُ یك قاطعاً قرناً فإنى لفضلِ بنى أبى العاصِ شَكُورُ

ثم يقول

ومظلمةٌ تضیقُ بها ذراعى ویترکنى بها الحدیبُ النصور
كفونیبها ولم یتواکلونى بخأقٍ لا ألفٌ ولا عشُورُ (٢)
ولولا أنم کرهتُ معدُّ عِضاضى حين لاحِ بی القَتیرُ (٣)
ولكنى أهابُ وأرنجیکم ویأتینى عن الأسدِ الزئیرُ

ويقول من قصيدة أخرى يشير فيها إلى إزاد الوليد إياه من هذه المحنة التي كادت تودى بحياته .

إن الوليد أمينُ الله أقذنى وكان حصناً إلى منجاته هرِبى
إتیتهُ وهمومى غیرُ نائمٍ أخوا الحدارِ طويدَ القتلِ والهربِ

(١) السكلم العتور يعنى شعر الهجاء الذى يجرح المهجو . بنات الدهر مصائبه .

(٢) الالف الضيق الخلق الذى بالامور . العثور الكثير السقوط .

(٣) القتير الشيب ، وأصله رءرس مسامير الدرع .

وَأَمَّنَ الْإِنْسَ مَا تَخْشَى وَمَوَّلَهَا قَدَمُ الْمَوَاهِبِ أَنْوَاهِ الرُّغْبِ (١)

وَنَبَّتَ الْوَطْءَ مِنِّي عِنْدَ مُضْلِمَةٍ حَتَّى تَخْطِيَنَّهَا مَسْتَرْخِيًّا لِبَنِي (٢)

ويمثل هذه النهاية المحزنة ، تطرى حياة هذا الشاعر الكبير ، الذى أفنى عمره ، وبذل شعره ، فى تثبيت ملك الأمويين ، والدفاع عن سيادتهم ، وهجاء أعدائهم ، فخلق فى سماء الشهرة حتى بلغ أقصى ما يطمع فيه شاعر من نموذ ، تم هبط من حالى ، فوات مجفوا خاءلا ، يشكر متذاللا ، بيد أن كان يهدر بالفخر مزهواً . فى السنوات الأولى من ملك الوليد .

(١) القدم الكثرة . يقال قدم له وقم له إذا أعطاه وأكثر . النوء المطر استعاره للمطاء يقال طلب نوءه أى عطاءه . الرغب الكثرة الواسعة .

(٢) اللب ما يشد فى صدر الدابة أو الناقة يكون للرجل والسرّج يمنها من التأخر ، مسترخياً لبى يتصد به نائباً جنائى مطمئناً .

الهجاء الشخصي

هذا الفن الذي عرفناه ضئيلاً قليلاً الخطر في العصر الجاهلي ، قد نضج وتقدم في القرن الأول ، حتى أصبح من أظهر فنون الشعر وأجلها خطراً . وكان العراق بنوع خاص موطناً لهذا الفن ، فلانكاد نعرف شاعراً من شعرائه لم يأخذ منه بنصيب . وما أكثر ما يجد قارئ الأغاني هذه العبارة في تراجم شعراء العراق في هذا القرن (وكان هجاء خبيث اللسان) يقول في عينة بن مرداس الملقب بـ ابن فسوة : هجاء خبيث اللسان بذيء ، كان فاحشاً كثيراً الشر وكان لا يزال يأتي أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه^(١) . ويقول في الوليد بن حنيفة الملقب بـ ابن حزابة : شاعر بدوي حضر وسكن البصرة ، وكان شاعراً راجزاً فصيحاً خبيث اللسان هجاء^(٢) . ويقول في عبدالله بن الزبير الأسدي : شاعر كوفي المنشأ والمولد وهو أحد الهجائين للناس المرهوبين شرهم^(٣) . ويقول في الحكم بن عبدل : شاعر مجيد مقدم في طبقة هجاء خبيث اللسان ، ومنزله ومنشأه السدرة^(٤) . وأمثال هؤلاء الشعراء كثير لا نحب أن نطيل باستقصائهم وتبهم .

وكان الأشراف والوجهاء أكثر الناس تعرضاً لشر الشعراء ، الذين اصطنعوا أسلوب الخطيئة في التكسب بالهجاء . فقد وجدوا أن أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يباليون الشاعر وإن كان مجيداً إذ لم يخافوا شره . ووجدوا أن الذين يتقونهم على عرضهم ، أكثر من الذين يرغبون إليهم في تشریفهم بمدحهم . فهم إذا هجوا رجلاً ففضحوه ، خاف غيره مثل فعلهم به ، فاتقاهم بالمال والعطاء . وهذا هو المهلب ، يعنف ابنه حين تعرض

(٢) الأغاني ١٩ : ١٥٢

(٤) الأغاني ٢ : ٤٠٤

(١) الأغاني ١٩ : ١٤٣

(٣) الأغاني ١٣ : ٣٣

لبعض هؤلاء الهجائين خوفاً من شره . أكل المغيرة بن حبناء يوماً مع
المفضل بن المهلب فعرض بآفته - وكان المغيرة أبرص - فقام مغضبا . وبلغ
المهلب ماجرى فشم ابنه وقال : أردت أن يتمضغ هذا أعراضنا ؟ ما حملك
على أن أسمعته ما كره بعد مؤاكلتك إياه ؟ أما إن كنت تعافه فاجتنبه . ثم بعث
إليه بعشرة آلاف درهم واستصفحته عن ابنه^(١) . وتعرض حبيب بن المهلب
لزياد الأعجم وقد شرب فعربد عليه ، وأمر بشق قباء ديباج كان عليه . فقال زياد

لعمرك ما الديباج خرقتَ وحده ولكنما خرقت جلد المهلب
فبعث المهلب إلى ابنه حبيب فأحضره وقال له : صدق زياد . ما خرقت
إلا جلدي ، تبعث على هذا يهجونى . ثم بعث إليه فأحضره واستل سخيمته
من صدره ، وأمر له بمال وصدقة^(٢) . وبلغ من خوف الناس من شر هؤلاء
الهجائين ، أن الحكم بن عبدل كان يكتب على عصاه ، ويبحث بها إلى الولاية
والحكاهم ، فلا يرد طلبه ، حتى قال فيه يحيى بن نوفل .

عصى حكم فى الدار أول داخل ونحن على الأبواب نقصى ونحجب

وكانت عصى موسى لفرعون آية وهدى لعمر الله أدهى وأعجب

تطاع فلا تعصى ويحذر سنخطها ويرغب فى المرضاه منها ويرهب

وقدم الفرزدق المدينة وعليها عمر بن عبد العزيز . فقبل لعمر : إن الفرزدق قد
قدم فيسأل الرجل ، فإن لم يرضه هجاه ، وإن أراضه جهد نفسه ، وقومك والأنصار
مجنونون يتجولون . فبعث إليه من العقيق فأثاه - وكان به نازلا - فأعطاه
ألف درهم ، وقال إنك قدمت على قريش وقد جهدت ، فلا تسألن أحدا^(٣) .
ومن بين هؤلاء الهجائين المحترفين ، طبقة عرفت بالتهتك والمجون
وحضور النكتة ، مثل الحكم بن عبدل والأقشير . وكانت هذه الجماعة أكثر

(٢) الأغانى ١٤ : ١٠٣

(١) الأغانى ١١ : ١٦٦

(٣) ديوان الفرزدق ٣٦٠٠

الهجائين رهبة في صدور الناس ، لأنهم لا يتورعون عن شيء ، ولا يبالون ما يقولون . فهم يخوضون في أخش السباب وأكثره بذامة ، مفصلين في ذلك أقذع تفصيل وأقدره . وهجاؤهم مع ذلك أشبه بالنادرة الطريفة ، التي تصادف من النفس ارتياحاً وتشوقاً لسماعها ، وتعلقاً بحفظها وراويتها في الأسمار . ثم هو يتميز بسهولة الألفاظ ، وخفة الأوزان ، التي تبين على ذبوعه وانتشاره . ومن هنا كانت خطورته ، وشدة خوف الناس منه . أتى الحكم ابن عبدل الأسدي محمد بن حسان بن سعد التميمي - وكان على خراج الكوفة - فكلمه في رجل من العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه ، فقال : أما في الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً . فانصرف عنه وهجاه بقصيدة طويلة بدأها بقوله :

رأيتُ مجدّاً شرهاً ظلوماً وكنت أراه ذا ورع وقصد

يقول أماتني ربي خداعاً أمات الله حسان بن سعد

ولم يزل ابن عبدل يطيل فيها ويضيف إليها حتى مات . واشتهرت أبياتها وذاعت بين الناس ، حتى إن كان المكارى ليسوق بغله أو جماره فيقول : عد . أمات الله حسان بن سعد . فاذا سمع ذلك أبوه قال : بل أمات الله ابني محمدأ ، فهو عرضني لهذا البلاء في ثلاثين درهماً^(١) .

وما يصور روح الفحش الغالبة على شعرهم ، هذه الأبيات التي هجا بها الأقيشر امرأة من العباديين محتالة اسمها أم حنين . فقد قصد يوماً إلى بيت الخمار الذي كان يأتيه فلم يصادفه ، فجعل ينتظره . فزعمت له امرأة من العباديين اسمها أم حنين أنها زوج الخمار ، فأخذت منه درهين فهربت بهما . فراح يهجوها أخش هجا وأقدره . وكان بما قال فيها :

عاهدت زوجها وقد قال إني سوف أغدو لحاجتي ولدني

فدعت كالحصان أبيض جلدًا وافر الأبرمرسل الخصيتين
 قال ما أجرٌ ذا هُدَيْتِ قِئَالَتِ سوف أعطيك أجره مرتين
 فابدأ الآن بالسفاح فلما سلخته أرضته بالأخريين
 تلها للجبين نم امتطأها عالم الأير أخرج الحالبين
 بينما ذاك منهما وهي تحوى ظهره بالبنان والمعصين
 جاءها زوجها وقد شام فيها ذا انتصابٍ موثق الأخدعين
 فتأسّى وقال ويلٌ طويل لحنين من عار أم حنين

جاء حنين الخمار فقال: يا هذا ما أردت بهجائي وهجاء أمي؟ قال: أخذت مني درهمين ولم نعطني شيئاً. قال - والله ما تعرفك أمي ولا أخذت منك شيئاً قط - فانظر أمي فإن كانت هي صاحبتك غرمت لك الدرهمين. قال: لا والله ما أعرف غير أم حنين. ما قالت لي إلى ذلك. ولا أهجو إلا أم حنين وابنها. فإن كانت أمك فإياها أعني. وإن كانت أم حنين أخرى فإياها أعني. قال: إذأ لا يفرق الناس بينهما. قال: فاعلي! إذا؟ أتري درهمي يضيغان؟ فقال له: هلم إذا أغرمهما لك وأقم ما تحتاج إليه، ولا بارك الله لك (١).

هذا الفحش الذي يمنع اليوم من إذاعة مثل هذا الشعر وتداوله، هو نفسه الذي كان يدعو في تلك الأيام إلى ذبوعه وتناقله، فقد كان ملائماً لأذواق ذلك العهد الحشنة الفظة، وكان على ما فيه من تفصيل قدر، غاية في البراعة وقوة التصوير. ولولا أن ما اشتمل عليه من الفحش لا يحتمل للتفصيل والتحليل، لعرضنا لبعض نواحيه.

وبما يصور الدعابة الغالبة على هجائهم، هذه الآيات التي يقولها ابن عبدل في امرأة من همدان تزوجها ثم كره صحبتها: وهي شبيهة بآيات الأقيشر

السابقة في أم حنين . فكلاهما يذهب في هجائه مذهب القصة ، ويسوقه في صورة حوار .

أعاذلتني من لومٍ دعائي أقلا اللوم أن لم تعذراني
فإني قد دُللتُ على عجز مبرقة مخضبة البنان
تغضنَّ جلدُها واخضر إلا إذا ما ضُرِّجت بالزعفران
فلما أن دخلت وحادثتني أظلتني بيوم أرنوان^(٢)
تحدثني عن الأزمان حتى سمعتُ نداء حُرٍّ بالأذان
فقلت قد نكحتُ اثنين شتى فلما صاحباني طائفتاني
وأربعةً نكحتهم فتاوا فليت عريف حتى قد نمانى
وقالت ما تِلَادُك قلت مالى حمارٌ ظالعٌ ومزادتان
وبورىُّ وأربعة زُيوفُ ونوبا مفلسٍ متخرقان^(١)
وقطعةٌ جُلَّةٌ^(٢) لا تمر فيها ودنًا عومة متقابلان
فقلت قد رضيتُ فَمَسْمُ أَلْفَا ليسمعَ ما تقولُ الشاهدان
ومالكٍ عندنا ألفٌ عتيد ولا تسمعُ تُمُدُّ ولا ثمان
ولا سبعٌ ولا ستٌ ولكن لكم عندى الطويلُ من الهوان

وقد كانت دعابتهم هذه من أثقل الأشياء على الولاية والأشراف ، وأكثرها إزعاجاً لهم . ولى الشرطة رجل أعرج ، ثم ولى الإمارة آخر أعرج وخرج ابن عبدل - وكان أعرج - فلقى سائلاً أعرج ، وقد تعرض للأمير يسأله . فقال :

(١) البورى الحصيد المنسوج من القصب . أربعة زيوف يقصد أربعة دراهم زائفة

(٢) الجلة القفة الكبيرة تتخذ للتمر

ألقى العضا ودغ التخامع والتمس : عملاً فهدى دولة الغرجات
 لأميرنا وأمير شيرطنا معاً ياقومنا لكليهما رجلاً
 فإذا يكون أميرنا ووزيرنا وأنا فإن الرابع الشيطان
 فيبحث إليه الأمير بماتى درهم وسأله أن يكف عنه .

وقد نشأ على يد هذه الطائفة من مجان الهجائين نوع من الهجاء التصير
 اللاذع الذى لا يتجاوز البيتين أو الثلاثة . وهو هجاء خفيف الروح ، سهل
 الألفاظ ، يعتمد على الصورة الهزلية المضحكة ، كان قصره أوكد لذيوه
 وخطورته ، وثقل وقعه على المهجور . قيل للفرزدق — ما اختيارك للقصار ؟
 قال : لآنى رأيتها أثبتت فى الصدور ، وفى المحافل أجزل . وقيل للحطيئة :
 ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها فى الآذان أوج ، وفى أفواه
 الناس أعلق (١) . وهذا النوع من الهجاء القصير ، شبيه بما كان يعرف عند
 اليونان واللاتين بال . (epigram)

خطب رجل من تميم امرأة من بنى أسد ، ولم يزل يسأل عن حسبها
 وأمهاها ، حتى سأل الأقيشر . فقال فيه :

حضر موت ففتت أحسابنا وإلينا حضر موت تنتسب

أخوة القرد وهم أعمامه برئت منكم إلى الله العرب

وتولى الكوفة رجل من تميم ، فانكسر المنبر من تحته ، فقال :

أبى تميم ما لمنبر ملككم ما يستقر قراره يتمرر

إن المنابر أنكرت أستاذكم فادعوا خزيمة يستقر المنبر

وكان لابن عبدل جارية سوداء ، وكان يميل إليها فولدت له ابناً أسود ،

فقال فيه :

يارب خال لك مسودّ القفا لا يشمكى من رجليه مس الحفا
كان عينيه إذا تشوّفا عينا غراب فوق نيقٍ أشرفا
وخطب امرأة يقال لها أم رياح فلم تزوجه ، ففضحها بقوله :
ولا خير في الفتیان بعد ابن عبدلٍ ولا في الزوانى بعد أم رياح
ف... بحمد الله ماض مجرب وأم رياح عرضة لنكاحي
فتحاماها الناس ، فما تزوجت حتى أسنت .

ودخل ابن عبدل على عمر بن يزيد الأسدى وهو يأكل بطيخاً - وكان
بخيلاً - فسلم فلم يرد عليه السلام ، ولم يدعه إلى الطعام ، فقال فيه :

في عمر بن يزيد خلتما دَنَسٍ بخل وجبن ولولا (...) سادا
جئناه يأكل بطيخاً على طبق فما دعانا أبو حفص ولا كادا
ويقول الفرزدق في هجاء رجل يتهمه بالبخل اسمه عقبة بن جيار .

لو أن قدراً بكت من طول ما حُبِسَتْ

عن الحُفُوفِ بَكَتْ قِدْرُ ابن جِيَّارٍ^(١)

ما مسها دَسْمٌ مذ فَضٌّ معدُّها

ولا رَأَتْ أُعدى بعد عهد القَيْنِ من نارٍ^(٢)

وبرز في هذا العصر لون آخر من ألوان الهجاء الشخصي عرف بالنقائص
وتبادل فيه شعراء ذلك القرن السباب ، على نحو لم يعرف من قبل . وكان
محور هذا الفن ومداره شعراء العصر الثلاثة المقدمون ، جرير والفرزدق
والأخطل . ودخل بينهم عدد كبير من الشعراء ، أحصى منهم صاحب الأغاني

تسعة عشر شاعراً معروفاً من عصرهم ، في معرض قصة ساقها في لقاء جرير للحجاج ، وسؤاله إياه عن خبر الشعراء الذين هجأهم^(١) . وانشغل الناس بأمرهم والتحزب لهم ، والسؤال عما أحدثوا من هجاء ، وما أجاب به كل منهم ، ينقض هجاء خصمه ويرد عليه ، حتى لقد اختلف الناس في عسكر المهلب وهم يقاتلون الخوارج على أيهم أشعر ، فسألوا فيه بعض جند الخوارج من الأزارقة ، حين أبي المهلب أن يقول فيهم شيئاً خرفاً من شعرهم^(٢) . وكان الفرزدق وجرير يأتیان النبائل في مساجدهم فينشدهم من شعرهما . وكان أحدهما إذا سمع أن خصمه قد أتى قبيلة في مسجدها فأنشدها من شعره ، أسرع للإنشاد في نفس المسجد . وربما تعصبت القبيلة لصاحبه فمنعته الإنشاد ، كما فعل بنو الهجيم ، حين أذنوا للفرزدق أن ينشد في مسجدهم ، ومنعوا جريراً أن يفعل مثله حين علم بخبره^(٣) . وصار الهجاء جل هم هؤلاء الشعراء ، حتى كان أحدهم يمدح الخليفة من الخلفاء ، أو الوالي من الولاة ، فلا يخلو مدحه من هجاء خصمه والتعريض به ، وحتى أضاف جرير إلى تصيدته المشهورة في رثاء زوجته (لولا الحياء لهاجنى استعبار) هجاء صاحبيه الفرزدق والأخطل . ولم يسلم من الانشغال بأمرهم وتتبع نتماضهم الخلفاء والأمراء بل والفقهاء . بعث بشر بن مروان برسول إلى جرير ، يسأله أن يجيب عن شعر سراقه البارقي ، الذي يفضل فيه الفرزدق ، فلم يبرح الرسول حتى أخذ قصيدة جرير ، فقرئت في العراق ، وأحتم سراقه فلم ينطق بعدها بشيء من مناقضاته^(٤) . وروى ابن سلام أن سعيد بن المسيب قال لعبد الرحمن بن حرملة حين ورد عليهم هجاء جرير والتميمى : ترَوِّلى بما قالاً شيئاً . فأتاه عبد الرحمن وقد استقبل القبلة يريد أن يكبر ، فقال له : أرويت شيئاً ؟ قال : نعم . فأقبل عليه بوجهه . فأنشده للتميمى وهو يتولى : هيه هيه . ثم أنشده لجرير : فجعل يتولى : أكله

(٢) الأغاني ٨ : ٤٢

(٤) الأغاني ٨ : ٦٨

(١) الأغاني ٨ : ١٥

(٣) الأغاني ٨ : ٥٢

أكله^(١). وكان إقبال الناس على شعرهم ، واهتمامهم بهجائهم . داعية لإغراء معظم شعراء عصرهم أن ينهجو أنهجهم . فجواس بن قطنة يهاجى جميل ابن معمر^(٢). وتميم بن أبي بن مقبل يهاجى النجاشى . والنجاشى يهاجى عبدالرحمن ابن حسان بن ثابت^(٣). وعبد الرحمن بن حسان يهاجى عبدالرحمن بن الحكم^(٤). وشبيب بن البرصاء يهاجى عقيل بن علفة^(٥). وأبو جلدة يهاجى زياداً الأعجم . وزياد الأعجم يهاجى المغيرة بن حبياء^(٦). والمغيرة بن حبياء يهاجى أخاء صخر بن حبياء^(٧). وصخر الغنى يهاجى أبا المثلم^(٨). وأبو النجم يراجز العجاج^(٩).

اشتعل العراق بالهجاء والمناقضات حتى تجاوزته إلى الأقطار الأخرى ، فكان جرير والفرزدق يلهبان هذا الفن وينشطانه حينما ذهباً ، حتى لقد قدم الوليد المدينة وبها جرير وعمر بن لجأ يتهاجيان ، فأمر بهما فضربا وأقيما على والبأس^(١٠). وكان جلدتهما بسبب قصيدة جرير التي يبدأها بقوله :

ياتيم تيم عدى لا أبا لكم لا يوقعنكم فى سؤوة عمر
وكان أفش ما قاله جرير فيها - وهو عجيب فى حكاية ألفاظ النساء ،
على ما فيه من إغراق فى الفحش .

تقول والعبد مسكين^١ يُجرُّرها أرفقُ فديتك أنت الناكح الذكر
ولم تكن العداوة وحدها هى الدافع إلى الهجاء والمناقضة فى كل
الأحيان . فقد كان جزء كبير من هذه المناقضات يعتمد على المهارة الفنية ،

- | | |
|--|----------------------|
| (٢) الأغانى ١٩ : ١١٢ | (١) ابن سلام ١٥٣ |
| (٤) الأغانى ١٣ : ١٥٠ | (٣) ابن سلام ٥٦ |
| (٦) الأغانى ١١ : ١٦٢ | (٥) الأغانى ١١ : ٩٣ |
| (٨) الأغانى ٢ : ٢٩٨ | (٧) الأغانى ١١ : ١٦٨ |
| (١٠) الشعر والشعراء ٢٣٣ | (٩) الأغانى ٢٠ : ٢٠ |
| (١٠) البلس غرائر كبار يجعل فيها التبن ويشهر عليها من يتكل به ، وينادى عليه . | |

ويهدف إلى السبق والتفوق من الناحية الشعرية الخالصة . وقد كان الفرزدق
وجزير على ما بينهما من خصومات مريرة ، يتبادلان فيها أشنع الهجاء وأخش
السباب ، يلتقيان عند الأمراء والخلفاء ، ويترافقان في الرحلة ، فلا يكون
بينهما إلا ما يكون بين الصديقين . وربما خرجا مرتدفين على ناقة واحدة ،
كما يحدثنا ابن خلكان ، في بعض رحلاتهما إلى هشام بن عبد الملك ، وهو
يومئذ بالرصافة ^(١) بل لقد شفع جرير في الفرزدق عند هشام ، حين
كتب إلى خالد القسري عامله في العراق ، يأمره بحبسه لجرير ، به في قوله .

يَقْلُبُ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ خَلِيفَةً مَشُوّهَةً حَوْلَاءِ بَادٍ عِيُوبَهُمَا

دخل جرير يومئذك على هشام فقال — يا أمير المؤمنين إنك تريد أن
تبسط يدك على بادي مضر وحاضرها . فأطلق لها شاعرها وسيدها الفرزدق .
فقال له هشام : أو ما يسرك أن أخزاه الله ؟ قال : ما أريد أن يخزيه الله
إلا على يدي . فأمر هشام بإطلاقه ^(٢) . وتبادل جرير والأخطل الهجاء
وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، حتى التميا عند عبد الملك بن مروان ^(٣) .
ولقي ابن ميادة ابن هرمة فقال له : والله لقد كنت أحب أن ألقاك ، لا بدأن
تتهاجي ، وقد فعل الناس ذلك قبلنا ^(٤) . فالتهاجي والتناقض هنا مباراة أدبية ،
وليس ناجما عن عداوة ولا هو مرجبا لها ، إلا بمقدار ما يكون بين متنافسين
على السبق . وربما استطعنا أن نتصوره إذا قرناه بما نعرف في الأندية
الشعبية من تباري رجلين في النكته بما يعبر عنه (بالدخول في آفية) وتزداد
هذه الحقيقة وضوحاً كلما أمعن القارئ في دراسة شعر النقائص .
فالشعراء يكثر من الفخر بموهبة شعرهم ، وبتفوقهم الفني الذي لا يجارى ،
وبشدة وقع شعرهم على أعدائهم وخصومهم ، وما يتاح لهذا الشعر من ذبوع
يذهب به إلى أقاصى الأرض .

(٢) المقدم الفرزدق : ٦ : ١٧٣ .

(١) ابن خلكان ٣ : ١٥١ .

(٤) الأغاني ٤ : ٣٦٩ .

(٣) الأغاني ٧ : ٦٩ .

يقول جرير في هجاء النيرى :

أعد الله للشعراء منى
أنا البازي المظل على نمير
صواعق يخضعون لها الرقابا
إذا علفت محالبه بقرن
أُتحت من السماء لها انصبايا
أصاب القلب أوهك الحجابا

ويقول :

رجتم يابى وقبان موتى
إذا اجتمعوا على فخل عنهم
وأرجو أن تطول لكم حياتى
ويقول للبعيث :

وعاير عوى من غير شىء رميته
وإنى لقوال لكل غريبة
وقرى هندوانى إذا هز صمما
ويقول للفرزدق :

إن القصائد قد جدعن مجاشعاً
ولقوا عواصى قد عييت بنقضها
بالسم يلحم نسجها وبينار
قد كان قومك يحسبونك شاعراً
وحتى غرقت وضمك التيار
ويقول الفرزدق لجرير :

لن تدركوا كرمى بلؤم أبيكم
ويقول له :

إن كان قد أعيك نقض قصائدى
أتطلب يا حمار بنى كليب
فانظر جرير إذا تلاقى الجمع
ويقول معيراً إياه ضعف شعره زاعماً أنه سباب ليس من الفن فى شىء
بماتتك اللهم - الرغابا

وتعدل دارماً ببني كليب وتعدل بلأفمقة السببا
ويقول:

غلبتكَ بلمفقى والمعنى وبيت المحنبي والخلقات
وهو يقصد بذلك قصائده التي يتمول في إحداها
ولست وإن فقت عينك واجداً أبا عن كليب أو أبا مثل نهشل
ويقول في أخرى:

وإنك إذ تسمى لتدرك دراما لأنت المعنى يلجير المكلّف
ويتمول في ثالثة:

بيتاً زرارة محتبٍ بهنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
ويقول في رابعة:

وأين تفضي المالكان أمورها بحق وأين الخلفات اللوامع
ويبدو من هذا البيت أن الفرزدق كان يسمى قصائده، كما يبدو ذلك
أيضاً من بيته في تقيضته المشهورة (إن الذي سمك السماء) حيث يسميها الفيصل:

إن التي فقت بها أبصاركم وهي التي دمغت أباك الفيصل
وكان جرير والفرزدق يتواقفان بالمربد، وينشد كل منهما تقيضته
بإزاء صاحبه^(١).

وربما أوحى الظروف والموقف لأحدهما بشعر مرئيل لم يكن قد فكر
فيه من قبل، كما نعرف من تقيضة جرير.

أقلّ اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

(١) نقائس جرير والفرزدق ٧ : ٣٢ .

وما كان من تغطية الفرزدق لرأسه ، حين بلغ جرير قوله (ترى برصاً
بأسفل إسكنتيها) متوقفاً أن الشطر الآخر من البيت لا بد أن يصيبه .
فلم يلبث جرير أن قال : (كعنقفة الفرزدق حين شابا) .

وكان الشعراء المتناقضون ، يتربص بعضهم ببعض ، فلا يكاد أحدهم
يصيب من صاحبه سقطة ، حتى يسجلها عليه ، ويشنع بها مبالغاً في تصويرها .
يشكو الأخطل من إيقاع الجحاف يتومه حين يقول :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقمةً إلى الله منها المشتكى والمعول
فيقول له جرير :

بكي دوبل لا يرقئ الله دمه ألا إنما يبكي من الذل دوبل
وينحش الفرزدق في بعض شعره وهو مقيم بالحجاز ، فينفيه عمر بن
عبد العزيز والى الحجار وقتذاك ، فيقول جرير :

نفاك الأغرث ابن عبد العزيز وحقك تُنفى من المسجد

ويهب بعض السادة جارية لجرير ، فتمل عيشه الحشن ، ويتمول فيها جرير :
تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقق والصناب^(١)
وقالت لا تضم كضم زيد وما ضمي وليس معي شبابي !
فلا يلبث الفرزدق أن يعيره بقوله :

فإن تفركك عِلجة آل زيد ويعوزك المرقق والصناب^(٢)
قديمًا كان عيش أبيك مرا يعيش بما تعيش به الكلاب
وكانت مهارة الهجاء تتركز في إدراكه لوجه النقص البارز في خصمه ،

(١) المرقق نوع من الفطائر . الصناب لون من الطعام يتخذ من الحردل والزيب

(٢) فركت المرأة زوجها من باب نصر وطرب كرهته . الملحج من ليس عربياً .

وقدرته على الافتنان والتصرف في استخراج مختلف الصور وألوان الدعابة
الساخرة منه . فهجاء جرير للأخطل يدور في معظمه حول نصرانيته . فكل
صوره من الخمر والصليب والجزية ، المفروضة على أهل الذمة .
يقول له :

قبح الإله من الصليبُ إلههُ واللابسين برانس الرهبان
والتابعين جُرجسا وبُدَيه والتاركين مساجد الرحمن
والذابحين إذا تقارب فصَحهم شُهبَ الجلود خسيصة الأيمان
من كل ساحى الطرف أعصلَ نابهُ في كل قائمة له ظلفان
تعشى ملائكة الإله قبورنا والتغابيُّ جنازة الشيطان
يُعطى كتاب حبابه بِشماله وكتابنا بأكدنا الأيمان
ويقول له :

الضاربون على النصرى جزية وهدى لمن تبع الكتاب ونورا
إنا نسود في الحياة حياتنا ويسود من دخل القبور قبورا
الله فضلنا وأخرى تغلبا لن تستطيع لما قضى تغييرا
الباعثين برغم آف تغاب في كل منزلة عليك أميرا
أفبالصليب ومار سرجس تنقى شهباء ذاتَ كتائبِ جمهورا (١)
أمُّ الأخيطل بالرحوب إذا انتشت عاقمت بشقشقة العجان هديرا
لغحت لأشهب في الكناسة داجنا خنزيرةٌ فوالدا خنزيرا (٢)

(١) مار سرجس قديس نصراني كانت تنلب تتخذة شعارا لها في الحروب
(٢) يتيمها بأنها قد أتت بالأخطل من خنزير لامن أيه . أشهب في الكناسة داجنا
يعني خنزيرا

وَلَدَ الْأَخِيطَلْ أُمُّهُ مَخْمُورَةٌ قَبْحًا لَدَيْكَ شَارِبًا مَخْمُورًا

ويقول له :

رويدكم مسح الصليب إذا دنا هلال الجزى واستعجلوا بالدراهم^(١)

وهجاء جرير للفرزدق يدور حول ما زعم من أن أجداد كانوا يحترفون الحدادة . فكل صوايد من النار والحديد والشرر والدخان والكبير وأدوات الحدادة والرقيق الذين يتخذونهم لهذه الصناعة وما يهتم به نساءهم من ميل لهم لاء العبيد .

فانفخ بكيرك يافرزدق إننى فى باذخ محل بيدك عال

يارب معضلة دفعنا بعد ما عى التيمون بميلة المحتال

مابال أدك إذ تسربل درعها ومن الحديد مفاضة سربالى

حمت وجهك فوق كيرك قائما وسقيت أمك فضلة الجريال^(٢)

فانفخ بكيرك يافرزدق وانظر فى كرتباء هدية القفال

ويقول :

حدراء أنكرت القيون وريهم والحُرُّ يمنع ضيمه الإنكارُ

لما رأت صدا الحديد بجلده فاللون أورقُ والبنان قصار

قال الفرزدق رقى أكيارنا قالت وكيف ترقع الأكيار

رُقِعَ متاعك إن جدى خالد والقينُ جدك لم تلدك نزار

(١) الجزى جمع جزية وهى الضرائب التى كان يؤديها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) للدولة . مقابل حمايتهم .

(٢) الجريال النجر

ويقول :

فدينك يافرزدق دينُ ليلى تزور القينَ حَجًّا واعتماراً^(١)
 فظل القين بعد نكاح ليلى يُطْبِرُ على سِبَالِكُمُ الشرارا^(٢)

وهجاء الفرزدق لجرير يدور حول نقرهم واعطاعهم الحمر في تنقلهم وهو دليل الذلة لأن السادة يركبون الخيل والإبل . وهو يتماذى في ذلك إلى أغرب ألوان الخيال وأخشسه ، فيتصور رجالهم وقد هجروا مضاجعهم إلى الأتن ، ويتخيل ما يكون من غيرة نسائهم من هذه الأتن التي تنافسهن على أزواجهن .

يقول له .

يا ابن المراغة كيف تطلب دار ما وأبوك بين حمارة وحمار
 هلا غداة حبستم أعياركم بجُدودٍ واخيلان في إعصار^(٣)
 والحوفزانُ مسومٌ أفراسه والمحصناتُ حواسرُ الأبصار
 يدعون زيد مناة إذ وليتم لا يتقين على قفأً بنخمار
 قبح الإله بنى كليب إنهم لا يقدرون ولا يفون لجار
 يستيقظون إلى نهاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار^(٤)

(١) ليلى أم الفرزدق . يتهما بالصيد الذين كان يتخذهم حد الفرزدق للحدادة . ويقول له إنك تشبهها .

(٢) السبال شعر الشاربين واللحية .

(٣) جدود يوم كان بين الحوفزان (وهو من بكر بن وائل) وبين بني يربوع (قوم بربير) . وحديثه مفصل في النقائض ج ٢ ص ٣٢ - ٣٥

(٤) يجب لهم كيف يوتظهم نهاق الحمار ، ثم لا يوتظهم دم قتلام الذي يصرخ طلباً للثأر . الأوتار جمع وتروهو الثأر .

تلقى فوارسنا إذا زيقتم^(١) متلبدين لكل يوم عوار^(١)
ويقول له :

لعمري لقد قالت أمامة إذ رأت جريرا بذات الرقتين تشنعا^(٢)
أمكتفل^(٤) بلرقم إذ أنت واقف أتانك أم ماذا تريد لتصنعا
رأيتك تشفى كاذبتها ولم تكن لتركب إلا ذا السحوج الموقعا
دعت يا عبيد بن الحرام الأتري مكان الذي أخزى أباك وجدعا
أأعيا عليك الناس حتى جعلت لي خليلاً يعاديني وأتته معا
وهجاء المغيرة بن حبناء لزياد الأجم يدور حول فارسيته ، فهو عالج
مستضعف مجهول النسب ألكن لا يقيم لهجة . وليس بناته إلا ولا تدلم يجر
عليهن موسى في ختان^(٥) .

يقول له :

أزياد إنك والذي أنا عبده ما دون آدم من أب لك يعلم
فالحق بأرضك يا زياد ولا ترم ما لا تطيق وأنت عالج أجم
أظننت لؤمك يا زياد يسده قوس سترت به قفاك وأسهم
عالج تعصب ثم راق بقوسه والعالج تعرفه إذا يتعم
ألق العصابة يا زياد فإنما أخراك ربي إذ غدوت ترئم

(١) الربق بكسر الراء جبل فيه عدة عرى يشد به البهم . فكل هروة ربقة .
وربق بالتشديد جبل الرأس في الربقة . يقول إن قوم جريرو عاة لا يصلحون
للتمال .

(٢) أمامة زوجة جريرو . ذات الرقتين أتانه . تشنح هم بأمر شنيع قبيح

(٣) أكتفل الدابة ركب كفلها وهو مؤخرها ، الكاذبان أعلى الفخذين . ذوالسحوج
الموقع الأتان يريد آثار الدر في ظهورها

(٤) الأغاني ١١ : ١٦٦

وأعلممُ بأنك لست منى ناجياً
تهجو الكرام وأنت الأم من شى
ولقد سألتُ بنى نزار كلهم
بالله ما لك فى معدٍ كلها
ويقول له :

فأصبحت علجاً من يزرُك ومن يزرُ
وأصبحن قُلُفاً بغنزلن بأجرة
ففرن من موسى وأقررنَ بالى
باصطخر لم يلبسنَ من طول فاقة
وما أنت بالمسوب فى آل عامر
ولا ر ببتك الحنظلية إذ غدت
ولكن غذاك المشركون وزاحت
ولم أر مثلى يا زياد بعرضه
ولو أنى غشيتك السيف لم يُقلُ

بناتك يعلم أنهن ولائد
حواليك لم تجرح بهن الحدائد
يُقرُ عايتها المقرفات الكواسد
جديداً ولا تلقى لهن الوسائد
ولا ولدنك المحصناتُ المواجد
بنيها ولا جيبتُ عليك القلائد
قفاك وخديك البظورُ العوارد
وعرضك يستبان والسيفُ شاهد
إذا متَّ إلا مات عِلجٌ معاهد

كان الجانب الأكبر من نفاض جرير والفرزدق منافسة أدبية كما قدمنا. ولذلك حرص الشاعر حين يجيب على نقيضة خصمه أن تكون إجابته من نفس البحر والروى، حتى تظهر مزية السبق لأحدهما على الآخر. والظاهر أن الإجابة من نفس البحر والروى كانت قاعدة مقررة فى الموازنة بين شعر الشعراء. فقد كان النقاد منذ عصر امرئ القيس، إذا أرادوا أن يوازنوا بين شاعرين، وازنوا بينهما فى شعر متجد فى الغرض وفى الوزن والقافية. وقصة

علمتة بالفحل مع امرئ القيس ، حين احتمكا إلى زوجته ، أشهر من أن نحتاج إلى ذكرها . وهي قرية الدلالة على هذا الأصل من أصول النقد القديم . وقد أخذ شعراء النماض في هذا القرن أنفسهم بتميد جديد ، هو محاولة الإجابة على أبيات الخنم وتمضها بيتاً ببيتا ويكفي في ذلك أن تقدم مثلين من قصيدة الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول
ونقيضة جرير :

لمن الديار كأنها لم تحمّل بين الكاس وبين طلح الأعرل
فأول ما نلاحظ في النقيضتين كثرة اشتراك القوافي فيهما . فنقيضة جرير تشترك في قوافي أبياتها مع ثلاثة وثلاثين بيتاً من قصيدة الفرزدق ، مع أن مجموع أبياتها ثلاثة وستون بيتاً . وجرير يتتبع في نقيضته معاني الفرزدق ، فيجيب عليها بنفس الطريقة والأسلوب ، متقابلاً الفخر بفخر ، والصورة بصورة ، والحوار بحوار .

يقول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنا لنا بيتا دعائمه أعز وأطول^(١)
بيتا بناه لنا المليك وما بنا حكم السماء فإنه لا ينقل
بيتاً زُرارةٌ مُحْتَبٍ بفنائمه ومجاشعٌ وأبوا الفوارس نهشل^(٢)

(١) سمك السماء رفعها . السمك بفتح السين وسكون الميم . السقف . أعز وأطول
يعنى من بينك

(٢) زُرارة ومجاشع ونهشل كلها من بيوت درام (ودارم من تميم) ، والفرزوق من مجاشع ثم من دارم (راجع شجرة انساب تميم) الاحتماء أن يجلس الرجل على الأرض نائياً ساقية وقد شدما إلى ظهره بهامته أو نطاقه أو نجاد سيفه أو نحو ذلك ليطمئن في جلسته . والفرزوق يكنى به هنا عن السيادة والاطمئنان والحلم .

لا يبحتني بفضاء بيتك مثلهم أبداً إذا عدُّ الفعّال الأفضّل

فيجيبه جرير عن البيتين الأولين بقوله :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً علاك فإله من منقل

أخرى الذي سمك السماء مجاشعاً وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

بيتاً يحمُّ قينكم بفنائه دنساً مقاعده خبيث المدخل

ويجيبه عن البيتين الثالث في فخره ينهشل - وهم من ذير قومه لأنه من

مجاشع - بقوله :

أعينك مآثرة القيون مجاشع فانظر لملك تدعى في نهشل

ويجيبه عن البيت الرابع الذي يشير فيه إلى احتبائهم بفضاء بيتهم -

يكنى بذلك عن عزهم - بقوله :

قتل الزبير وأنت عاقدة حبوّة تباً لحبوتك التي لم تُجَلَّل^(١)

ويقول الفرزدق :

وإذا دعوتُ بنى ققيم جاءني بجرته له العدد الذي لا يُمدل

وإذا البراجم بالقروم تخاطروا حولي بأغلب عزه لا ينزل

فيجيبه جرير :

وامدح سراً بنى ققيم إنهم قتلوا أباك وثأره لم يُقتل^(٢)

(١) هو الزبير بن العوام الصحابي كان من الخارجين على علي بن أبي طالب مع طلحة وعائشة أم المؤمنين . وقد زعم جرير أنه كان جاراً للنمر بن زمام المجاشعي فقتل في جواره . وهو يقول له : قتل جاركم وأتم مطمشون لا تتحركون ولا تحملون الحبوّة ناهضين لاغائته .

(٢) بنو ققيم من دارم فهم أبناء عم مجاشع قوم الفرزدق (راجع الشجرة) معر جيش كبير .

ودع البراجيم إن شرُّ بك فيهم مرُّ عواقبه كطعم الخنظل
ويقول الفرزدق :

وهب القصائد لي النوايح إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجزول
وأخو بني قيس وهن قتلته ومهلهل الشعراء ذاك الأول (١)
فيجيبه جرير :

حسب الفرزدق أن تُسبَّ مجاشع ويعدُّ شعر مرقش ومهلهل
ويقول الفرزدق :

إنني ارتفعت عليك كل نذية وعلوت فوق بني كليب من عل (٢)
فيجيبه جرير :

إني انصبب من السماء عليكم حتى اختطفتك يافرزدق من عل
ويعير الفرزدق جريراً أمه حيث يقول :

وتركت أمك يا جرير كأنها للناس بركةً طريقاً معمل (٣)
ويمضى في تفصيل الصورة معنا في الفحش .
فيجيبه جرير معيراً بأخته (جمعن) :

بات الفرزدق يستجير لنفسه ومجرَّ جمعن كالطريق المعمل
ثم يقابل تفصيل الفرزدق في الفحش بتفصيل مثله .

(١) النوايح النابغة الذبياني والنابغة الجعدي ونابغة بنى شيبان . أبو يزيد هو الخنظل ، ذو القروح أمرؤ القيس . جزول هو الجطيعة . أخو بني قيس طرفه ابن العميد . هن قتلته يعنى القوافي .

(٢) الثانية الطريق .

(٣) طريق معمل مستعمل تدوسه الأقدام .

ويقول الفرزدق :

حُلِّلُ الملوك لباسُنَا في أهْلِنَا والسابغاتِ إلى الوغى نتسرِبَل
أحلامنا تزن الجبال رزاةً ونخالنا جنًّا إذا ما نهجَل
فيجيبه جرير :

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم بعد الزبير كحائضٍ لم تُغسَل
أبلغُ بنى وقبانَ أن حلومهم خفت فما يزنون حبة خردل
ويحتكم الفرزدق إلى دغفل اللَسَّابة في أنه أكرم من جرير أخوالا
حين يقول :

أوصى عشيَّةً حين فارق رهطه عند الشهادة والصحيفة دَغْفَلُ
أن ابنَ ضبة كان خيراً والداً وأتمَّ في حسب الكرام وأفضلُ^(١)
فيرد عليه جرير محتكماً إلى قريش في أن قومه أكرم .

فارجع إلى حكى قريش إنهم أهل النبوة والكتاب المنزل
فاسأل إذا خرج الخدامُ وأحْمِشْتُ حرب تَصْرَمُ كالخريق المشعل^(٢)
ابنو طهيةً يعدلون فوارسى وينو خضاف وذاك مالم يعدل
ويفتخر الفرزدق بأخوله من ضبة قائلاً :

يا ابن المراغة أين خالك إنى خالى حَبِيشُ ذو الفعالم الأفضَل
خالى الذى غصب الملوك نفوسهم وإليه كان حِبَاءُ حَفَنَةَ يُنْقَلُ^(٣)

(١) بنو ضبة إخوة تميم وهم أخوال الفرزدق .

(٢) الخدام الملاحيل . خرج الخدام يعني وقت الفارة إذا فرغ النساء .

(٣) الحباء العطاء . آل جفنه هم النساسة ملوك الشام . وكان حبيش بن دلف خال الفرزدق قد أسر أحدهم وجز ناصيته ثم أطلقه على أن يبعث إليه كل عام بحبائه من غير أن ينتقل إليه .

فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله مثل الذليل يعوذ تحت القرمَل (١)
 واخر بضبة إن أمك منهم ليس ابن ضبة بالمعمِ . المخول
 ويفتخر الفرزدق بقومه في الدروع والسيوف حين يقول .
 يمشون في حلق الحديد كما مشت

جُرْبُ الجِمالِ بها الكَحِيلُ المُسَعَّلُ (٢)

يَحْنِي إِذَا أَخْتَرَطَ السِّيفُ نساءنا

ضربُ تَخْرَ له السَّواعدُ أرعل

فيجيبه جرير بأنه إنما يحسن وصف السيوف لأنه حداد ابن حداد ، فهم
 يصنعون السيوف ، ولكن غيرهم يارب بها .

تصف السيوف وغيركم يعمى بها

يا ابن القيون وذاك فعلُ الصَّيقلِ (٣)

ويشير الفرزدق إلى أن جرير فيتهمه ويتهم أباه بها .

هلا سألت بني غدانة ما رأوا حيث الأتانُ إلى عمودك تُرْحَل

كسرت ثنيتك الأتانُ فشاهدُ منها بفيك مبيئُ مستقبلُ

ومحنتك حين عجلت قبل ودأقها لكن أبوك ودأقها لا يعجل (٤)

(١) القرمَل شجر ضعيف لا شوك له .

(٢) الكحيل القطران تظلي به الابل إذا أصيبت بالجرب . يشبه قومه لكثرة

ماعليهم من الحديد بالابل المطلية بالقطران .

(٣) الصيقل الذي يصقل السيوف .

(٤) الثنية من الأسنان الأربع التي في مقدم الفم ، ثنتان من فوق وثنان من أسفل .

والظاهر أن أسنان جرير الامامية كانت ساقطة ، فزعم الفرزدق أن الاثنان قد رمحته
 برجليها الخلفيتين فكسرتها . الوداق طلب الفعل .

فيجيبه جرير مشيراً إلى اشتغالهم بالحدادة ، ويتهم أمه بقين من قيونهم
أسمه نبتل .

ألهى أباك عن المكارم والعلی لئى الكنائف وارتفاع المرجل
ولدت قفيرة قد علمتم خبثاً بعد المشيب وبظرها كلاجل
أشركت إذ حمل الفرزدق خبثاً حوض الحمار بليلة من نبتل^(١)
وكثيراً ما كان يبدو للشاعر أن ينقض أبياتاً من رد خصمه ، ثم يضيفها
إلى قصيدته . فنحن نجد فى قصيدة الفرزدق هذه أبياتاً يرد بها على نقيضة
جرير التالية لها ولا شك أن مثل هذه الأبيات قد ألحقها الفرزدق بنقيضته
بعد أن سمع رد جرير وذلك مثل قوله .

يبكى على دمن الديار وأهله تلو على كمر العبيد وتسفل
فهو رد على ما ابتدأ به جرير قصيدته من الوقوف بالأطلال .
لمن الديار كأنها لم تُحلل بين الكناس وبين طلع الأعرل
ومنه قول الفرزدق :

أسألتنى عن حبوتى ما بالها فاسأل إلى خبرى وعمّا تسأل
فاللؤم يمنع منكم أن تحتبوا والعز يمنع حبوتى لا تُحلل
والله أثبتها وعز لم يرل مقعنساً وأبيك ما يتحول
وهو رد على بيت جرير :

قُتل الزبيرُ وأنت عاقدُ حبوةٍ تباً لحبوتك التى لم تُحلل

(١) قفيرة أم الفرزدق ، أشركت يخاطبها بذلك فيقول إنك قد جئت بالفرزدق من
غالب أبيه (حوض الحمار) ، ومن نبتل العبد . فكلاماً أبوه . وهما مشتركان فيه .

وتبدو هذه الظاهرة بشكل أوضح في قصيدة جرير المشهورة التي رثى بها زوجته .

لولا الحياء لهاجنى استعمار وزرتُ قبركِ والحبيبُ يزار

فالرثاء فيها ينتهى عند البيت الثانى والعشرين ، ثم ينتقل الشاعر إلى هجاء الفرزدق ، حتى يبلغ بالقصيدة سبعة عشر بيتا فوق المائة . والواقع أن جريرا رثى زوجته ، فنقض عايه الفرزدق الرثاء ، متشما بمصيبته ، مهاجما زوجته النقيدة ، فى غلظة قاسية ، لا تصدر إلا عن رجل فظ جاف كالفرزدق . ثم رد جرير على الفرزدق ، وألحق الرد بالرثاء ، فبدأ رثاؤه غربيا على القارىء الذى لا يكاد يتصور أن شاعرا حزينا منكوبا فى زوجته ، يحد فى نفسه الفراغ للنخوض فى مثل هذا الهجاء الخبيث المفحش . ودارس النقيضتين يجد ذلك واضحا لا شك فيه . فى نقيضة الفرزدق أبيات تشتمت فيها بمصيبة جرير ، ويهجو زوجته ، وهى رد على الجزء الخاص بالرثاء من قصيدة جرير . على أن الشطر الهجائى من نقيضة جرير كاة رد على نقيضة الفرزدق .

يبدأ جرير مرثيته بقوله :

لولا الحياء لهاجنى استعمار وزرتُ قبركِ والحبيبُ يزار

ولقد نظرتُ وما تمتعُ نظرةً فى اللحد حيثُ تمكَّنَ المحفار

فجزاكِ ربُّكِ عن عشيركِ نظرةً وسقى صدكِ مجلجلٌ ومدوار

وهى أبيات تقطر حزنا ووفاء . وهى من أجمل ما قيل فى الرثاء صدقا وروعة . ولكن الفرزدق ، ذلك الشاعر الفظ ، لا يتورع عن اغتنام هذه الفرصة لهجاء جرير ، فيجيب عن هذه الأبيات بقوله .

إن الزيارة فى الحياتم ولا أرى حينئذٍ إذا دخل القبورَ يزار

ويمضى فى الرد ، متصورا نظرة جرير الحزينة إلى زوجته ، نظرة خبيثة
نقيض بالإثم فهو لا يبكى فيها إلا شهوته .

ولقد هممتَ بسوأِ وفعلتها فى اللحد حيث تمكن المحفار
أبعد ما أكل الضباعُ رحيبها تدرى الدموع أهانك القهار^(١)
ورثتها وفضحتها فى قبرها ما مثلَ ذلك تفعل الأخيار
وجرير يقول فى مرثيته :

كانت مكرمة العشير ولم يكن
فيجيبه الفرزدق :

كانت مناقفة الحياة وموتها
وجرير يقول :

صلى الملائكة الذين تُخبروا
فيجيبه الفرزدق :

قال الملائكة الذين تخبروا
أبكى الإلهُ عل نبيته من بكى
جدفاً ينوحُ على صده حمار^(٢)

وبعد ، فجرير يبدأ الجزء الهجائى التالى للثناء من نقيضته بقوله :

أفام حزرة يا فرزدق عبتم غضب المليك عليكم القهار

ويمضى فى الإجابة على أبيات الفرزدق ، مقابلا الفخر بفخر ، والحوار
بحوار ، والصورة بصورة ، والفحش بفحش مثله . فالفرزدق يلح فى نقيضته
على أن جرير ، ويفتن فى استخراج الصور البالغة فى البراعة والفحش معا ،

(١) الرقيب عوة المرأة .

(٢) النبيثة التراب الذى يخرج من القبر إذا حفر .

فيقول له : فيم بكاؤك على زوجتك ، ولك منها في الأثن خير خلف ؟ فاذهب إلى أهلك يخطب لك أحدهن . . . ثم ينصحه متهاكما يتخير الأبكار .
وجرير يعدل هذه الصورة ، التي يفتن فيها الفرزدق في تصوير الحمر ، بصورة مثلها ، يفتن فيها في تصوير التين . فليس في قبراأيه إلا أدوات الحدادة ، كتيف وكابتان وميشار ، وليس يذكر أبوه بخير إلا إذا تصدع رجل ، أو كسرت قدر ، فقد كان خير من يصلحها . وحدراء ، زوج الفرزدق ، قد أنكرت القيون وريحهم . (والحُرُّ يمنعُ ضيمه الإنسكار) . ويمضى في تصور ما يكون بينه وبينها من حوار ، إذ يطلب إليها ترقيع أكياره ، فتجيبه غضبي بأنها لا تحسن ذلك ، فجدها خالد لم يكن حدادا . وهي غاضبة على قومها الذين زوجها من (قينٍ أحسمٍ لفَسْـوِهٍ إعصار) ، فجمعوا عليها بين الاغتراب عن أهلها ، والذل الذي تلقاه في بيت زوجها . ثم يتهم جرير أمَّ الفرزدق وبنات الجَلَوْبِق وهو لقب مجاشع — بالعبيد من قيونهم ، ويخص منهم عبداً اسمه جبير ، بادناً ذلك بقوله .

سَبَّوا الحمارَ فسوف أجهو نسوةً للكبير وسطَ بيوتهن أوار
ومن الخصائص الجديدة على فن الهجاء في النقائض ، هذا الأسلوب القصصي الذي ابتدعه جرير والفرزدق ، وبرع فيه براعة ظاهرة ، لا ينض منها إلا إمعانها في الفحش البذيء ، الذي تنفر منه النفس في كثير من الأحيان ولكنها مع نفورها من هذا الواقعة العارية ، التي تلتقط ما دتها من الوحل والأقذار ، لا تتمالك من الإعجاب بدقته الحية في التصوير ، وتسلسل الحوار على نحو بالغ في محاكاة الطبيعة . ونحن نكتفي في التمثيل لهذا الأسلوب بما قدمنا فيه غناء .

ولم يبق إلا أن نلاحظ على هذه الطبقة من المحترفين للهجاء ، ما أشرنا إليه في مقدمة هذا البحث ، من أن معظمهم قد دفع إلى هذه الاتجاه ، نتيجة

إحساسات مكبوتة ، أو دوافع مستترة ، هي شعور بالنقص في معظم الأحيان وشعور بالاضطهاد أو التفوق في أحيان أخرى . فالمتتبع لأخبارهم يجد أن معظمهم قد أحاط بذنأته شيء من النقص الذي يغض من قدرهم ، ويهون من أمرهم على الناس ، ويحقرهم في أعينهم ، وأنهم يصطنعون الهجاء ليكسبهم رهبة في عيون الناس . ونحن نقدم بعض الأمثلة ؛ مما نعرف عن نشأة بعض الهجائين ، الذين جاء ذكرهم في هذا الفصل .

كان جرير من أسرة فقيرة مغمورة . وكان قميئا (١) وُلِدَ لسبعة أشهر . وكان عاقا لأبيه ، لأنه ساخط على الظروف التي جاءت به إلى الدنيا عن طريق هذا الرجل الحامل المغمور ، الذي لا يجد فيه شيئا يستطيع أن يفخر به . حتى لقد استعار منه مرة فخلا يطرقه في إبله ؛ فلما استغنى عنه ، جاءه أبوه في بَتٍّ خلق يسترده ، فدفعه إليه قائلا . هذا (ترَدُّ إلى عطية (٢) تُعْتَل) وهو بذلك يشير إلى بيت الفرزدق فيه .

ليس الكِرَامُ نِنَاحِلِكِ أَبَاهُمْ حَتَّى تُرَدُّ إِلَى عَطِيَّةٍ تُعْتَلُ
 وكان الفرزدق بشع المنظر ؛ فوجهه غليظ جهم النسفات ، لا يشبهه إلا غلظ طبعه . وهو على جهامته وضخامة قسامته ، منقَرٌّ من آثار الجدري . ومن أجل ذلك لقب بالفرزدق ، وهو الرغيف الضخم . وكان مع هذا غليظا قصيرا أصلع ، كما يفهم من شعر جرير فيه ، حين يسميه (القُرَيْدُ الأَصْلَع) وحين يقول فيه .

لقد وُلِدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاجِرًا فِجَاءتْ بُوُزُوَازٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ
 وكان يجمع إلى كل هذا ، شعورا بالتفوق في النسب ، يبلغ به حد الجنون

(١) القميء الضئيل الجسم .

(٢) عطية هو والد جرير .

وكان الأخطل نصرانيا مغمورا في بلد إسلامي . وكان في طفولته مهملا من زوج أبيه ، يذوق آلام الحرمان ، ويعانى كثيرا من التضييق ، الذى جعله متمردا منذ نشأته ، يلتمس السبيل للظهور بالإفحاش على الناس ، حتى لقب بالأخطل — والأخطل النسرع إلى البذاءة والسفه —

وكان الأقيشر أحمر الوجه أقشر . وكان أبغض الأشياء إلى نفسه أن يناديه الناس بهذا اللقب ، لأنه ، يذكره بما يكره من نفسه ، وما يحس من نتصه ودماثة منظره . وقد خلق منه هذا الشعور هجاء فكها ، بارع النكتة والدعابة . وكان مع هذا فظيرا ، يستدين ولا يبالي من أى وجه اقترض ، ويمدح بدرهمين وثلاثة ، وكان عذينا ، لا يأتى النساء .

وكان المنيرة بن حبناء أبرص ، وكان من أسرة خاملة ليس فيهم إلا مبتلى بأفة عظيمة ، فأخوه صخر بن حبناء أعور ، وأخوه الآخر مجذوم ، وأبوهم مصاب بالحبس ، وهو داء فى البلبان يعظم منه ويرم ، وهو مرض الاستسقاء . وكان الحكم بن عبدل أعرج أحمب ، لا تكاد تفارقه عصاه .

وكان معظم الموالى الذين ظهروا فى هذا العصر هجائين ، كما سنبين فى فصل نفردة لهجائهم .

هؤلاء رجال قد فشلوا فى أن يحتلوا مكاتهم فى الهيئة الاجتماعية ، عن طريق حب الناس لهم ، واحترامهم إياهم لأشخاصهم ، فهم يحتلون هذه المكانة بالإرهاب والتهديد .

فن الهجاء في النقائض

نقائض جرير والفرزدق والأخطل هي أشهر ما عرف الأدب العربي في هذا الفن وأطولهُ . وليست هذه النقائض هجاء خالصاً ، فهي خليط من فنون الشعر التي عوفها الأدب في ذلك الحين ، فيها فخر وفيها مدح وفيها نسيب وفيها وصف للبادية ونباتها وحيوانها ، وهي في ذلك تتمشى مع ما عرف عن القصيدة العربية ، من تنقلها بين شتى الأغراض .

ولم يكن الهجاء هو الغرض الأساسي في كل القصائد التي اشتملت عليها النقائض ، فقد كان الشاعر ينشئ قصيدته في بعض الأحيان لغرض آخر غير الهجاء ، فلا يلبث خصمه أن ينقضها . والأمثلة على ذلك كثيرة منها لامية الأخطل :

عفا واسط من آل رضوى فنبتل فجمع الحرين فالصبر أجمل

فهو لم يذكر فيها جريراً ولم يعرض له . وإنما أنشأها في مدح خالد بن عبدالله بن أسيد . بدأها بالوقوف على الأطلال ، وشبه نفسه في ذهوله بالتمل وانهز هذه الفرصة فتخلص إلا الخمر وأطال ، ثم انتقل إلى وصف الصحراء ووحشتها وقسوتها على المسافر فيها ، وما لقيت ناقته من تعب ، وما تعرض له معها من أهوال في سبيل الوصول إلى ممدوحه ، فلم يصل إليه إلا وقد فرغ من نصف قصيدته غزلاً وخمراً ووصفاً . ثم صرف بقية قصيدته في الإشادة بممدوحه ، ولم يكدي يخرج في ذلك عما أنف العرب في مدح السادة والقواد . وقد كان يمكن أن تمر القصيدة بسلام من غير أن تسترعى انتباه جرير ، لولا أن الأحظّل قد عرض في نهايتها لوقعة الجحاف ببني تغلب في يوم البشر ، وعاتب بني مروان في ذلك عتاباً عنيفاً ، وحملهم جريرة هذا اللص الخارج

القانون ، وألزمهم ما ضاع من دماء قومه ، وكاد يصفهم بأشنع ما يوصم به
عربي من انتهاك جواره ، ملوحاً بقوة قومه بما يشبه التهديد .

فسائل نبي مروان ما بال ذمةٍ وحبلٍ ضعيف ما يزال يُوصَلُ
بنزوةٍ لص بعد ما مرَّ مصعب بأشعث لا يُفلى ولا هو يُفسلُ
أأمرك الجحاف ثم أمرته بجيرانكم وسط البيوت تُقتلُ
لقد كان للجيران ما لو دعوتهم به عاقل الأروى أتكم تنزلُ
فإن لا تغيرها قريش بملكها يكن عن قريش مُستأزٍ ومرحلُ
وتعزُّز أناساً عرَّةً يكرهونها ونحي كراماً أو نموت فنقتلُ

وقد نهت هذه الأبيات الأخيرة جريراً ، فنقض عليه قصبته ، متشمتاً
بما لقي التغابيون على يد الجحاف وقومه ، معيراً الأخطل بكاءه وضعفه عن
الانتصار بغير قريش ، الذين هم في حقيقة الأمر أبناء عمومة القيسية ،
لأنهم مضرية :

بكا دَوْبَلٌ لا يُرقى الله دمه ألا إنما يبكي من الذل دوبلُ
جزعت ابن ذات الفلُس لما تداركت من الحرب أنيابٌ عليك وكلكلُ
فإن لا تعلق من قريش بذمة فليس على أسياف قيس معولُ
لنا الفضل في الدنيا وأنفك راغم ونحن لكم يوم القيامة أفضلُ

ومن أمثلة ذلك أيضاً فائبة الفرزدق المشهورة :

عزفت بأعشاشٍ وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف
فقد أنشأها يجيب على شاعر الأنصار ، الذي تحداه أن يقول مثل قول
حسان (لنا الجففات العغرُ يلعن بالضحى) . وهي قصيدة طويلة تزيد على

مائة بيت ، لم يعرض فيها لجرير ، كلها نخر بنفسه وبقومه . ولسكن جريراً
نقضها عليه بمائتته :

ألا أيها القلب الطروب المكآف أفقُ ربما ينأى هواك ويُسِيفُ
فاضطر الفرزدق أن يلحق بتصيدته أبياتاً لا تزيد على العشرين ، يرد بها
على جرير . ومن أمثلته كذلك رائية جرير ، التي رثى بها زوجته :
لولا الحياء لهاجنى استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزار
وهي اثنان وعشرون بيتاً . وقد نقضها عليه الفرزدق متشمتاً بمصيبتها
في رائيته :

أَعَرَفْتَ بَيْنَ ذَوَيْبَتَيْنِ وَحَنْبَلٍ دِمَماً تَلُوحُ كَأَنَّهَا الْأَسْطَارُ
فاضطر جرير أن يجيبه ، وألحق رده برثائه الأول وأطال ، حتى بلغت
القصيدة مائة بيت وسبعة عشر بيتاً .

والواقع أن القصد إلى الهجاء ، لم يكن هو الدافع الأول إلى إنشاء هذه
المجموعة الضخمة من الشعر . فلم يكن هم الشاعر أن ينال من خصمه فحسب ،
ولسكن كان همه الأول أن يجيد ويبدع ويتفوق في فنه . ولذلك فقد كان
يكلف نفسه أن يجيب على خصمه بتصيدة من نقص البحر والروى ، وهو
تكليف يضيق على الناقض السبيل ، ويظهره بمظهر المتحدى الذي يترك
لخصمه اختيار نوع السلاح الذي يريد أن يبارز به . وهذا التنافس يعلل لنا
ما نجد في النقائض من نخر كثير بالبراعة في الشعر ، وشدة وقعته ، وذيوعه
على ألسن الناس وتكرار هذا الفخر في كل مكان ، بأسلوب متشابه ، يضيق
به القارىء في كثير من الأحيان .

ونحن لا نستطيع أن نزعم أن الفن الهجائي في هذه النقائض ممتاز ، يبلغ
حد الرفعة الخالدة . وقد يكون من الظلم للنقائض ، وللعصر الذي أنشئت

فيه ، أن تقارن غيرها من ألوان الهجاء في الأهم الأخرى ، أو تقارن بالشعر الهجائي العباسي ، كهجاء ابن الرومي والمتنبي والمعري . وإنما العدل أن تقاس هذه النقااض بعصرها وظروفها التي أحاطت بها . فهي أولا شعر بدوي ، لا يتذوقه المعاصري المعاصر في سهولة ويسر ، لأنه لا يترك في نفسه صدى ، ولم يتصد به أصحابه أن يخاطبوه ، وإنما خاطبوا به قومهم ، بمن هم على شاكلتهم في البداية ، وعلى طريقتهم في الحس والذوق . فالقاريء لا يستطيع أن يحس جماله ، إلا بعد أن يتامس كثيراً من الملل والسأم ، ويتجلد لما تضيّق به نفسه في أول الأمر ، حتى إذا أوغل في القراءة ، ومضى في الدراسة ، غمره جو هذا الشعر ، ونقله إلى قلب البادية ، وإلى صميم هذه الحياة البدائية الحشنة . وعند ذلك فقط ، يستطيع أن يتذوق شعرهم . فهو لا يتذوقه ، إلا بعد أن يتعرف إلى أصحابه ، ويصحبهم صحبة طويلة ، تخلق في نفسه شيئاً من الإلف لهذه الحياة ، ولهؤلاء الشعراء .

والنقااض من ناحية أخرى محدودة الغرض ، بحكم الظروف التي أحاطت بها ، والتي دعت إلى إنشائها . فهي شعر شخصي ، محوره الفرد ، لا يكاد يسمو إلى الحياة في أفتها الواسع العام ، ولا يكاد يتصل بالنفس البشرية ، يصورها في أطوارها المختلفة ، وحالاتها المتباينة . فالشاعر فيه يفتخر بنفسه وقومه ، والفخر ثقيل على القاريء ، لأنه يصور الغرور . ويهاجم لبغضه وغيظه ، والقاريء لا يشاركه هذا الشعور بالقياس إلى المهجو . ويمدح لرغبة في مال أو جاه ، والقاريء لا يصيب من وراء ذلك شيئاً . وكل هذه الأسباب مجتمعة ، تجعل النقااض أقرب إلى الخصوص والضيق ، بعيدة عن العموم والشمول ، في الاستناد إلى عاطفة يستطيع القاريء أن يشارك فيها بنصيب كبير ، فيتجاوب مع الشاعر ، ويستجيب لشعره ، ويفنى فيه وقت قزامة . وكل هذه الأسباب أيضاً ، توضح لنا أن هناك تبايناً كبيراً في العصر والظروف ،

بين شعر النقائض ، وبين الشعر العباسي أو شعر الأمم الأخرى ، يبطل المقارنة أو المفاضلة ، ويجعلها جائرة غير صحيحة .

ولعل من الحق والفصد البعيد عن التحيز ، أن نقرر أن مثل هذا الشعر لم يعد يجتذب هواة الفن الشعري ، ممن يندشون اللذة الفنية الخالصة ، والمتعة الروحية الرفيعة . ولكن شعر المختصين من الدارسين للأدب ، والعلماء الذين لا يجد أحدهم حرجاً من أن ينفق عمراً طويلاً في دراسة حشرة تافهة ؛ أو صخرة مهملة . وليس معنى هذا أننا نسلب النقائض كل قيمة فنية ، فالواقع أن فيها نواحي كثيرة جميلة ، فهي بعض صور الإنسانية في طور من أطوارها ، ولكننا نؤول إنها قد أصبحت بعيدة عن أذواق المعاصرين وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا في الشعر نفسه لذة ، ولكنهم يجدون هذه اللذة فيما قد ينشأ حوله من دراسات ، تعتمد على التحليل والتعليل ، فتخلق فيه شيئاً من النشاط والحركة ، التي ترد إليه الحياة ، وتصله بالنفس الإنسانية ، وتقربه من قلوب المعاصرين .

ومع ذلك كله ، فللنقائض قيمتها ومكانتها عند دراسي الأدب العربي . وقيمتها ترجع إلى أسباب كثيرة . فشعراؤها الثلاثة هم أبرز الشعراء في عصرهم بغير شك . وشعرهم يمثل عصرهم جملة ، ويمثل الناحية الأدبية فيه بنوع خاص . فقد رسم الحياة في ذلك العصر بخيرها وشرها ، وصور القيم الأخلاقية والاجتماعية تصويراً دقيقاً بارعاً . وهو مع هذا سجل صادق لكثير من الحوادث التاريخية التي عاصرتها والتي سبقته ، منذ وعى العرب تاريخهم وأنسابهم . ولهذا الناحية الأخيرة ترجع معظم قيمة النقائض عند الدارسين . وقد زاد في قيمة هذه الناحية وأعظم من قدرها ، هذا الشرح الطويل الذي ينسب لأبي عبيدة ، والذي يفصل ما عرضت له النقائض أو أشارت إليه من أيام العرب ، تفصيلاً قصصياً رائعاً ، يصور الحياة في هذه العصور البائدة تصويراً قوياً حياً .

وقد تباين شعراء النقائض الثلاثة في طريقة علاجهم للهجاء . فغلب على الأخطل منه الشعرى الرصين ، الذى يعنى بالألفاظ ، ويدقق فى اختيار العبارات ، فكان فى هجائه يرضى فنة الشعرى الرفيع ، بأكثر مما يستجيب لاضبه ، وللغيط الذى يأكل نفسه . فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والدهاء . ولكن رصانة ألفاظه وجزالتها ، وما تضمنته من معانى شعرية ، أضفت على هجائه كثيرا من الوقار الذى حرمه روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعينهم من الهجاء إلا التكتة المضحكة ، والسخرية البارعة المسلية . ولذلك ظل الأخطل فى هجائه — كما هو فى كل شعره — شاعر خاصة كما يقول قدماء النقاد .

وأما جرير فقد غلب عليه مرحة ودعابته ، فكان مذهبه فى الهجاء قوله : (إذا هجوت فأضحك) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظاهم عند جمهور الناس . ولم يكن يتكلف فى شعره ما يتكلف صاحبا من العناء ، فهو يكتفى بما وهبه الله من طبع شعرى خصب ، ومن حس فى دقيق رقيق ، ويأخذ فيض هذه المواهب ، دون أن يلح فى استنزافها ، أو استخلاص أقصى ما تحتمله من إجهاد . ولذلك بدا فى شعره عامة ، وفى هجائه خاصة ، وكأنه يتكلم فى غير قصد إلى الشعر ، فإذا هو يقول شعراً . وقد أحسن قدماء النقاد وأصابوا ، إذ وصفوه بأنه يغرف من بحر . وقد أتاحت له هذه السهولة قدرة عجيبة على الإطالة ، لم يكذب يجاريه فيها إلا الفرزدق ، وجعلت هجاءه أكثر ذبوعا على ألسن العامة .

أما الفرزدق فقد كان فى عامة شعره معنيا بفنه ، ولسكنه لم يكن موهوبا كجرير . ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهدا ، حتى لقد وصفه القدماء بأنه ينحت من صخر . ويزيد فى إحساس القارىء بهذا الجهد العنيف الذى يبذله فى شعره ، خشونة ألفاظه وغلابة ، التى أغرت به أصحاب اللغة والغريب .

ولكن هذه الصفة التي سمت معظم شعره ، لم تكن واضحة في فنه الهجائي وضوحها في بقية الأغراض . فهو يجارى جريرا في تناول المعاني الهجائية من قرب ، ليستطيع أن يسايره في الإطالة والدعابة .

وليس قصدنا هنا إلى أن نتكلم عن الخصائص الهجائية لكل من هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد أفردنا لكل منهم فصلا من الكتاب ، تناولنا فيه حياته وفنه بشيء من التفصيل . ولكن الذي يعنينا في هذا المقام ، أن نتكلم عن الفن الهجائي في شعر النقائض جملة ، وعن الخصائص العامة التي يشترك فيها شعراؤها الثلاثة .

فأول ما يسترعى الانتباه في هذه الخصائص العامة والابتدال . وهو ابتدال في المعاني وفي الألفاظ وفي الأخلاق جميعاً . أما المعاني فهي قريبة ، وهي في كثير من الأحيان صورة من الحياة الواقعة ، لم يخترنها الحس الفني ، ليصفيها من شوائبها ، وليضفي عليها من سحره وخياله وترفعه . فالشعر الهجائي يبدو كأنه لا يصدر عن أدنى جهد فني .

يقول جرير في هجاء الأخطل :

يا ابن الخبيثة ريحاً من عدت بنا	أم من جعلت إلى قيس إذا خطرنا
قيسٌ وخندف أهلُ المجد قبلكم	لستم إليهم ولا أنتم لهم خطر
وما لتغاب إن عدت مساعيها	نجمٌ يضيء ولا شمسٌ ولا قمر
والتغلبى لقيم حين تجهره	والتغلبى لقيم حين يُخبر
والتغلبى إذا تمت مروءته	عبدٌ يسوق ركاب القوم مؤتجر
ما كان يرضى رسولُ الله دينهم	والطيبان أبو بكر ولا عمر
جاء الرسول بدين الحق فاتكثوا	وهل يضير رسولَ الله أن كفروا

ويقول في قصيدة أخرى :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا
أنسيت يومك بالجزيرة بعد ما كانت عواقبه عليك نكالا
حمت عليك حماة قيس خيلها شعناً عوابس تحمل الأبطالا
زفرُ الرئيسُ أبو الهذيل أبادكم فسي النساء وأحرز الأموال
ويقول الفرزدق :

زار الفرزدقُ أهلَ الحجاز فلم يحظ فيهم ولم يحمد
وأخزيت قومك عند الحطيم وبين البقيعين والفرقد
وجدنا الفرزدق بالموسمين خبيثَ المداخل والمشهد
نفاك الأغرُّ ابن عبد العزيز وحتك تنفَى من المسجد
تقول توارُ فضحت التيون فليت الفرزدق لم يولد
وقالت بنى حوملٍ والرماح شهدت وأيتك لم تشهد

وكل هذا تقرير ساذج للواقع ، لا يقصد إلا إلى الإخبار والإفادة ؛
فهو خلو من كل ميرة فنية ، وليس للشاعر فيه إلا فضل النظم ، فهو يقدم
الأخبار نظماً ، بدل أن يتقدمها نثراً ، في ثرثرة لا غناء فيها .

ويقول الفرزدق لجرير :

يا ابن المراغة أنت الأم من مشى وأذل من لينائه أظفار
وإذا ذكرت أباك أو أيامه أخزاك حيث تقبل الأحجار
أنتم قرارة كل مدفع سوءة ولكل دافعة تسيل قرارُ
إني لأشتمكم وما في قومكم حسبٌ يعادلنا ولا أخطار

وهو نظم لا يتجاوز تقرير الأشياء .

ويقول في موضع آخر :

منا الذى اختير الرجال سَمَاحَةً وخيراً إذا هب الرياح الزعازع

ومنا الذى أعطى الرسول عطية أسارى تميم والعيون دوامع

ومنا الذى يعطى المئين ويشترى الـ غوالى ويعلو فضله من يدافع

ويمضى فى ذلك إلى أربعة أبيات أخرى ، لا يتجاوز فيها هذا الأسلوب

ولا يرتفع عنه . يقول منا الذى فعل ، ومنا الذى فعل وفعل . وهو سرد قد

يفيد أصحاب التاريخ ، ولكنه من الناحية الفنية ، يهبط بالشعر إلى مستوى

العامة فى التعبير .

ويقول :

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ويمضى فى سرد أسماء الشعراء ثمانية أبيات ، لاشيء فيها غير أسماء الشعراء

منظومة فيما يشبه المتون التى وضعت فى عصور متأخرة لحفظ العلوم .

ويقول لجرير :

أتى الشامَ يرجو أن يبيع حماره وفارسه إذ لم يجد من يبادلـه

فجاء بعدئـيه اللذين هما له من اللؤم كانت أورثته أوائله

وقوله (اللذين هماله) تعبير لا يخطر لشاعر يعنى بفنه أن يفسد به شعره

ويقول :

أبا مالك لا بد أنى قارع لعظـمك إنى للعظام قرؤع

و (لا بد) تعبير غريب على الشعر لا يصلح إلا للنثر .

ويقول :

يهتفن أين ذوو الحمية أين هم أم من يفار فلم يجدن غيورا

هذا وقد وثقت سبابك خيلنا زوج المراغة صاغراً مشهوراً
وربط البيتين بكلمة (هذا) ربط نثرى ، ليس من أسلوب الشعر في
شيء .
ويقول :

ولست كليب كائنين كدارم وودّ جريرٌ لو عطية غالب
و (كائنين) حشو لا يصدر إلا عن المتعجل ، الذى لا يريد أن يتوقف
ليسوى شعره ، ولكنه لا يبالي ما يقول ، ولا كيف يستوى له النظم ، وكأنه
مدفوع إلى تحجير عدد من الصفحات فى وقت محدود ، فهو ماض إلى بلوغ
أجله ، فى غير توقف أو تريث .

هذا هو ما عيننا بالعامية والابتدال فى المعانى والتعبير . أما الألفاظ فهى
فى كثير من المواضع سباب عامى مبتذل ، لا يفترق كثيراً عما نسمع من
شتائم الدهماء ، التى تتناول الآباء والأمهات ، ولا تعف عن استعمالها فى صيغها
الشعبية المسفة .

يقول الفرزدق :

إذا أنت يا ابن السكلب ألفتك نهشل ولم تك فى حلفٍ فما أنت صانع
ويقول فى موضع آخر :

تصاغرت يا ابن السكاب لما رأيتنى مع الشمس فى صعبٍ عزيز معاقله
ويقول جرير :

أخت الفرزدق من أبيه وأمه باتت وسيرتها الوجيف الأرفع
وقوله (من أبيه وأمه) تؤكد عامى مأخوذ من أفوه الدهماء .
ويقول :

كانت الفرزدق شاعراً نخصيته ناك الفرزدقُ أمه من شاعر

أُمسى الأخيطل للفرزدق ضرةً فيم المراد وقد نكحتُ ضرائري
ويقول :

إذا ما كنت ملتئماً نكاحاً فلا تعدل بليك بنى ضرار

وإن لاقيت ضيباً فنكه فكل رجالهم رخو الخنثار

وليس يعيننا أن يخرج الفرزدق أو جرير عن آداب الناس في شتائمهم ،
ويشذوا عن الذوق المهذب والخلق السليم ، وإلكن الذى يعيننا هذه الألفاظ
العامية المبتذلة ، التى تنقل السباب من أفواه الدهماء كما هو ، لا عمل فيه للخيال ،
فتهبط بمستوى الصناعة الشعرية عما ينبغى له من ترفع فنى .

أما التبذل الأخلاقى فمر كثير يملأ النمائض ، لا ينتمح القارىء فيها صفحة
إلا وقع على مثال له ، وكله تفصيل بغرض للسوءات ، وأكثر ما نجد فى شعر
جرير ، حين يتهم جعثن أخت النمرزدق بالمقرى ، أو ليلى جدته بعبد هاجير^(١) ،
ويعن فى تفصيل ما يجرى بينهم من أدق الحركات الفاضحة . والعجيب فى
الأمور والمؤلم فى نفس الوقت ، أن النمائض أخصب ما تكون فناً ، وأكثر
ما تكون افتناناً وتصرفاً ، حين تعرض لأمثال هذه الفضائح ، فى أسلوب
قصوى ، لا يفسد روعته إلا طبيعة مواضعه ، التى تحرره على الدارسين أن
يكون موضع تحليلهم ونقدهم .

وظاهرتان أخريان تحتلان من النمائض مكانا بارزا ، هما تكرار المعانى
والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية . أما التكرار فهو نتيجة طبيعية للإكثار ،
فكل واحد من الشعراء الثلاثة لا يرضى أن يسكت فىكون مغلوباً ، فليس
له بد من أن يرد . وقد طال بينهم الأمر وامتد المدى ، حتى لم يعد أمامهم إلا
أن يكرروا ما قالوا ، ويعيدوا ما أبدأوا . فجرير يعير النمرزدق أن أجداده
كانوا يصرفون بعض عبيدهم للحدادة ، فهو من بيت صناع حدادين . ويعيره

(١) لتقديم . مثال على ذلك تراجع ص ٣٤٩ بدويان جرير .

خبث أخلاقه ومنافاتها للدين ، فهو سكير زناه ، ويختلق على أخته صلتها بالمنقرى ، ويشنع على جدته ليلى بصلتها ببعض رقيقها الذين كانوا يستخدمونهم في الحدادة . وهي معان محدودة ، لا يخرج عنها في كل هذه المجموعة من الشعر ، ولكنه يسوقها في قصص لا يخلو من جمال كما قلنا ، لولا إمعانه في الفحش ، ولولا ثقل التكرار على القارئ ، الذى يسمع القصة بعينها في كل قصيدة . والفرزدق لا يعبر جريرا إلا بضعف نسبة وضعة أبيه . وهو يقابل اختلاق جرير على أخته باختلاق منله ، يشنع فيه على جرير وأبيه بصلتهم بالخير . والقارئ يسمع القصة بعينها في كل قصيدة .

ولكن اضطرار هؤلاء الشعراء إلى الإعادة والتكرار ، قد جعلهم يفتنون في هذه المعانى القليلة التى بين أيديهم ، فيخرجونها فى شتى الصور ، ويولدوا منها مختلف المعانى والأخيلة ، فأحدثوا بذلك فى الهجاء لونا طريفا من القصص الهجائى ، الذى يدور على الحوار الفكه ، والدعابة المضحكة . وكان جرير أبرع الثلاثة فى هذا اللون من القصص الهجائى . ويكاد الفرزدق يجاريه فيه ولكنه يقصر عنه . أما الأخطل فقد كان أكثرهم تخلفا فى هذه الناحية . وكان شعره لذلك أقل الثلاثة رواجاً عند جمهور الناس ، الذى لا يعنيه من هؤلاء المتشائمين إلا النادرة الحلوة ، والنسكئة المضحكة . يولد جرير من اتخاذ أجداد الفرزدق الحدادة شتى الصور . فهو مرة يتصور جد الفرزدق فى قبره ، وقد دفنت معه آلات الحدادة وأدواتها ، من كسيف وكتبتين ومنشار ، ثم يتصور الناس وقد أنكسر لأحدهم قدر أو مرجل ، فيتذكره لأنه كان يصلحها .

سنير قينكم ولا يوفى بها قينٌ بقارة الطريق مثار
وُجِدَ الكتيفُ ذخيرةً فى قبره والكلبتانُ جُعنُ والمنشار
يَبْكي صده إذ تهزَمَ مرجلٌ أو إن تثلَّمُ برمةٌ أعشار

ومرة يتصور حدراء زوج الفرزدق ، وقد أنكرت ربحه وما علا جسمه
 القصير من صدأ الحديد ، ، ويتصور الفرزدق إذ يطلب إليها إن تصلح ما فسد
 من الأكيار بترقيعه ، فتقول له إنها لا تجيد ذلك ولا تعرفه ، لأن أجدادها
 من أشراف العرب ، وليسوا كأجداده أصحاب حدادة . وهي تدعو الله أن
 يخلصها من هذا البلاء الذي ألقاها أهلها فيه ، مستعينة به من شر هذا الصهر
 المشوم ، ومن جوار هذا الحداد المذتن الرائحة .

حدراء أنكرت القيونَ وريحهم والحُرُّ يمنع ضيمه الانكارُ
 لما رأت صدأ الحديد يجلده فاللون أورقُ والبنان قصار
 قال الفرزدق رقي أكيارنا قالت وكيف ترقع الأكيار؟
 رقع متاعك إن جدى خالدٌ والقينُ جدك لم تلك نزار
 وسمعتها اتصتْ بذهلي إنهم ظلوا بصهرهم التيونَ وجاروا^(١)
 دَعَتِ المصور دعوة مسموعة ومع الدعاء تضرع وحنار
 عادت بربك أن يكون قرينها قينا أحَمَّ لفسوه إعصار
 وهو حينما يتهم قفيرة أم صعصعة بعبيدها الذين يشتغلون بالحدادة .
 ولدت قفيرة أم صعصعة ابنها فوق المُرْتَم بين وطبي جازر
 جمات قفيرة ليلتين لهُرْمَزِ والزيبان وليلةً لتنايرِ
 وبتهمها أخرى بجبير عبدها .

تسوف صنان القين من ربةً به ليجعل في ثقب المحالة محورا^(٢)

(١) ذهل بن شيبان بطن من بطون بكر وهم قوم حدراء زوج الفرزدق .
 (٢) تسوف تشم . ليجعل في ثقب المحالة محوراً ، هو مثل ضربة لفعله بها . المحالة
 البكرة التي تكون فوق الدر ويدور عليها الحبل الذي يحمل الدلو . والمحور
 الخشبة التي تدور عليها البكرة .

نزور جبيراً مرة ويزورها وترك أعمى ذا خميل مدثراً^(١)
ويخلج منها القين محيوكة القرى كأن بها حُحًا من البيض أصفراً^(٢)

ومرة يهتم ليلي جدة الفرزدق بجبير هذا ، فيقول إن غالباً أبا الفرزدق هو في الحقيقة ابن جبير ، وليس ابن صعصعة .

تلقى نساء مجاشع من رجبهم مرضى وهن إلى جبير نزع
ليلى التي زفرت وقالت حبذا عرق القيانة من جبير ينبع
كل الذى غيرتم أن قلم هذا لعمر أيبك قين موكع !
ويقول :

تركتم جبيرا عند ليلي خليفة أصمصع بئس القين قينك صعصعا
وما حفات ليلي ملامة رهطها ولا حفظت سر الحصان المنعا
أبان لكم في غالب قد علمتم بجار جبير قبل أن يتيمعا

ولذلك فهو يتصور جبيرا يهدى إلى غالب أبى الفرزدق بعض النصائح في صناعة الحديد :

وأوصى جبير إلى غالب وصية ذى الرحم المجهود
فقال ارقن بلى الكتيف وحك المشاعب بالبرد

وهكذا تجد الشاعر يتصرف فى المعنى الواحد ، فيخلق منه صوراً فنية متعددة ، وإن كان أصلها واحداً .

(١) جبير عبد كان لهم يشتغل بأخذادة . الأعمى يقصد به صعصعة جد الفرزدق .
الخميل القطينة .

(٢) يخلج يجذب . القرى يفتح القاف الظهر .

أما التهديد والفخر بالمقدرة الشعرية ، وتكراره في كل مكان من النقائض
فأمثلته كثيرة . يقول جرير للأخطل .

تعرضت من دون الفرزدق محلبا فما كنت منصورا ولا على الكعب
تصليت بالنار التي يصطلى بها فأرداك فيها واقتدى بك من حربى
ويقول :

ترى الشعراء من صعق مصاب بصكبه وآخر مستديم^(١)
لقد وجدوا رشأى مستمرا ودلوى غيرَ واهية الأديم^(٢)
ومثلك قد تصدت له فأسمى أبا حلم وما هو بالحليم^(٣)
يرى حسراته ويخاف درئى ويفضى طرفه نظرَ الأميم^(٤)
ويقول :

عوى الشعراء بعضهم لبعض على فقد أصابهم انتقام
كانهم الثعالب حين تلقى هزبرا في العرين له انتحام
إذا أوقعت صاعقة عليهم رأوا أخرى تمحرق فاستداموا
ويقول الفرزدق :

تغنى يا جرير لغير شيء فقد ذهب التمسائد بالرواة
فكيف ترد ما بعان منها وما يجبال مصر مشهرات

(١) صعق منشى عليه . مستديم منتظر لصكة أخرى .

(٢) الرشاء الحبل الذى تربط به الدلو . يتصد طول نفسه فى الشعر ، وخصب طبعه .

(٣) يقول إن خصمه يتكلف الحلم . وليس هو فى الحقيقة حلما ، ولكنه ضعف
عن مجاراته .

(٤) الدرء الدفع . الأميم المشجوج الرأس الذى بلغ جرحه أم الدماغ .

غلبتك بالفقء والمعنى وبيت المحتنى والمخافات
ويقول:

تبكى المراغة بالرغام على لعنها والناهقات ينحن بالإعوال
قالوا لها احتسبي جريرا إنه أودى الهزبرُ به أبو الأشبال
ألقى عليه يديه ذو قومية وَرَدُّ فِدْقِ مجامع الأوصال
قد كنتُ لو نفع النذير نهيتُهُ أن لا يكون فريسة الرئبال

وهذا الإكثار من الفخر بالمقدرة الشعرية، والتهديد بما سيصيب الخصم
من نكال وعار، ليس إلا مظهرا لما قدمنا من أن هذه النقائض تصور منافسة
فنية، يزعم فيها كل واحد من هؤلاء الشعراء أنه أشعر من صاحبه.

جرير

ينتسب شاعرنا إلى فرع من تميم اسمه يربوع ، كانت بعض بيوته على جانب من الشهرة في الجاهلية والإسلام . فقد كانت الرداقة في بدت منهم اسمه رياح . ومن آخر اسمه العنبر ظهرت سجاح ، التي تلبأت في حركة الردة . وقد غلب بنو يربوع في أيام الفتنة على البصرة والسكوفة وخراسان ، غلب على البصرة سلمة بن ذؤيب الرياحي ، وغلب على السكوفة مطر بن ناجية اليربوعي لابن الأشعث ، وأخرج منها عامل الحجاج ، وغلب على خراسان وكيع بن أبي سود اليربوعي ثم الغداني ، وقتل قتيبة بن مسلم الباهلي (١) . وقد افتخر جرير بذلك في قوله: (٢)

ويوم عبید الله خُضْنَا براية وزافرةٍ تَمَّت إلینا تَمِيمها (٣)

لنا ذارة عن الحفاظ وقادة مقادیم لم یذهب شعاعاً عزیمها

عن المنبر الشرقي ذات رماحنا وعن حرمة الأركان یرمی حذایمها

يقصد بالمنبر الشرقي منبر البصرة وخراسان ، ويتصد بمنع الخطيم إنجاز الخوارج لابن الزبير ، حين حاصره الحجاج في ملك يزيد ، وكان معظم الخوارج وقتذاك من تميم (٤) .

والظاهر أن بيت صاحبنا في كليب بن يربوع لم يكن ناهيا ولا مشهوراً ، وإن كنا نعرف أن الخطفي جد جرير كان مثيراً فيما يروى محمد بن حبيب (٥) ،

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٧ .

(٢) ديوان جرير ٥٤٨ .

(٣) الزافرة الأعوان . يوم عبید الله بن زیاد وذلك حين ترك الامارة بعد موت يزيد بن معاوية .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٧ ، ابن الأثير ٣ : ٣٣٦ .

(٥) ديوان جرير ٦٠١ .

في خبر أبياته المشهورة التي يعاتبه بها ، وهي الأبيات التي عاتب بها يزيد أباه معاوية وداعاها لنفسه ، لأن جريراً لم يكن قد اشتهر وقتذاك .

فَرُدِّي جِمالَ الحى ثم تحملى فما لك فيهم من مقام ولا ليا
فأنت أبى مالم تكن لى حاجة فإن عرضت أيقنت أن لا أباليا
وإنى لمغرورٌ أُعَلِّلُ بلمنى ليلى أرجو أن مالك مالياً^(١)
بأى سنانٍ تطعن القوم بعد ما نزعتم سناناً من قناتك ماضياً
بأى نجادٍ تحمى السيف بعد ما قطعت القوى من تحمى كان باقياً^(٢)
وإنى لعفُ الفقر مشترك الغنى سريعٌ إذالم أرض دارى انقالياً^(٣)
جرى الجبان لا أهاب من الردى إذا ماجعلتُ السيف قبضَ بنانيا
وليس لسيفى فى العظام بقية وللسيفِ أشوى وقعةً من لسانيا
ألا لا تخافا نبوتى فى مِلَّةِ وخافا المنايا أن تفوتكما بيا^(٤)

وهى قصيدة طويلة ، أضاف إليها الشاعر فى وقت متأخر أبياتا فى هجاء الفرزدق . وهى تصور صاحبنا جيد الشعر فى ذلك الوقت ، وإن كان حاملا غير معروف . ومع ما يروى محمد بن حبيب من خبر جده وثروته ، فنحن نعرف أن عطية الخطنى أباً جرير كان فقيراً حاملاً ، ليس فيه شىء يستطيع ولد أن يفاخر به . سأل رجل جريراً : من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى

(١) يقول لجده لقد غررت نفسى حين زعمت لها أن لا فرق بين مالك وماله .

(٢) النجاد حامل السيف . القوى الجبال . هذا مثل ضربه له ، يقول لم يعد لك من تعتمد عليه .

(٣) يقول إنه إذا افتقر كان عفيفاً ، وإن أترى أشرك الناس فى ثروته وماله .

(٤) يقول لا تخافوا قومودى عن نصرتم حين تحتاجون إلى ، فليس ينعنى من ذلك إلا الموت . فمهما قصرتم فى حقى فسأظل مخلصاً لكم حتى الموت .

أعرفك الجواب. فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به ، اخرج يا أبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال ابن العنز على لحيته . قال : ألا ترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أتعرفه ؟ قال : لا . قال : هذا أبي . أفترى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال : لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم به ، فغلهم جميعاً .

وقد يكون التحديد الدقيق لمولد شاعرنا صعباً غير يسير ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه ولد في أواخر أيام عثمان . فابن خلكان يقول في ترجمته إنه توفي بين ١١٠ هـ ، ١١٤ هـ — على خلاف في الروايات — وله نيف وثمانون عاماً . ومولده على هذا حوالى ٣٠ هـ . ويتفق ذلك مع ما يروى ابن قتبية في الشعر والشعراء ، من أنه عاش نيفاً على ثمانين عاماً . وبؤيد ذلك ما يذكر جرير من شبيهه في أول قصيدة مدح بها عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ — ٨٦ هـ) ، حين أوفده الحجاج إليه ، لأن الحجاج ولى العراق ٧٥ هـ ، ووفود جرير على عبد الملك لا بد أن يتأخر عن ذلك سنوات ، لأنه ظل مدة يمدح الحجاج . وعلى ذلك فنحن لا نستطيع أن نقبل ما يروى في التمايص^(١) ، من أن شاعرنا كان ترعيه على أبيه الغنم ، لم يقل الشعر بعد ، على عهد ان ملك ابن الزبير^(٢) .

وقد بدأ جرير حياته الشعرية بالرجز ، شأن معظم الشعراء ، فاشتبك بشاعر معروف من قومه اسمه غسان السليطي ، فكانا يتبادلان السباب بالرجز ، ثم لحم بينهما التهاجي شعراً ، فلم يزالا يتناقضان ، حتى دخل بينهما البغيث . وقد أتاح ذلك لجرير شيئاً من الشهرة الضيقة في قبيلته ، ولكنه لم يظهر في

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ : ٤

(٢) ملك ابن الزبير من ٦٤ هـ — ٧٣ هـ .

الحياة العامة إلا في ملك يزيد . روى صاحب الأغاني بسنده عن جرير أنه قال : وفدت على يزيد بن معاوية وأنا شاب يومئذ (١) . فاستؤذن لي عليه في جملة الشعراء ، فخرج الحاجب إلى وقال : يقول لك أمير المؤمنين إنه لا يصل إلينا شاعر لا تعرفه ، ولا تسمع بشيء من شعره ، وما سمعنا لك بشيء فنادن لك على بصيرة . فملت له ، تقول لأمير المؤمنين : أنا القائل :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا
فدخل الحاجب عليه فأنشده الأبيات . ثم خرج إلى وأذن لي . فدخلت
وأنشدته وأخذت الجائزة مع الشعراء ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة .
وقال لي : لقد فارق أبي الدنيا ، وما يظن أبياتك التي توصلت بها إلى إلالي . (٢)

ولم يلبث يزيد أن مات واضطرب أمر العراق . وظهر في الكوفة رجل
من بني يربوع اسمه سلمة بن ذؤيب الرياحي ، يدعو لبيعة ابن الزبير ، فاجتمع
عليه الناس حتى كثف جمعه . وضعف أمر عبيد الله بن زياد ، فكان يأمر
بالأمر فلا ينفذ ، ويرد عليه رأيه ، ويحال بينه وبين أعوانه وطلبته . فلجأ إلى
الأحنف بن قيس ، سيد تميم وشيخها في ذلك الوقت ، وطلب إليه أن يكف
سلمة . فحلف لإعائته ، ثم قعد عنه ، لما رأى قوة الداعين لابن الزبير . ولم يجد
ابن زياد بداً من الهرب خوفاً على نفسه (٣) ، فنزل في حماية سيد الأزدي ، مسعود
ابن عمرو . واستطاع الأزدي أن يستميلوا ربيعة واليمين إلى جانبهم ، فاتفقوا على
أن يردوا ابن زياد إلى دار الإمارة . وما زالوا يتحرشون بتميم حتى ثاروا ،
وعلى رأسهم الأحنف ، ومعهم القيسية ، فقتلوا مسعود بن عمرو الأزدي .
وأحرقوا دار مالك بن مسمع سيد ربيعة . واستطاع رجل آخر من بني

(١) هذه الرواية تؤيد ما ذهبنا إليه من أن مولده حوالي ٣٠ هـ .

(٢) الأغاني ٨ : ٣٦ .

(٣) ابن الأثير ٣ : ٣٢٠ .

يربوع اسمه عتاب بن ورقا، الرياحي، أن يخضع الخارجين على الجماعة من أهل الرى . وبذلك حفظ بنو تميم العراق لابن الزبير : حتى قدم عماله (١).

وكانت تميم في موقفها هذا قسمين: قسم يتعصب لابن الزبير ويدعو له ، بتزعمه بنو يربوع ، وعلى رأسهم سلمة بن ذؤيب الرياحي . وقسم لا يحارب اليمنية والربعية إلا على الحناظ ، ولأنهم بدءوهم بالعدوان ، وهؤلاء يمثلهم سعد بن زيد مائة — وهم فرع ظاهر من تميم يتميز بشرفه — وعلى رأسهم الأحننف بن قيس (٢).

من ذلك نرى بوضوح أن بعض تميم والقيسية كانوا زبيرية ، واليمن وربيعة كانوا أمويين . وليس في ديوان جرير الذي بين يدينا شعر يبين اتجاهه في هذه الفترة ، ولسكننا نستطيع أن نجزم بأنه كان زبيرياً ، شأنه في ذلك شأن قومه من بني يربوع ، الذين كانوا من أظهر فروع تميم تعصباً لابن الزبير . ولكن جريراً لم يكن من وجهاء قومه ، وأصحاب رأيهم حتى يدخل في ذلك . ثم هو رجل مسالم ، حريص على أن يبعد بنفسه عن مواطن الشبهة ، وما قد يعرضه في غده للشر ، فهو يكتفي بأن يؤيد ابن الزبير بقلبه . على أنه لم يكن معنياً بشئون الناس ومشاكل السياسة؛ فكل مواهبه الهجائية تتجلى في مهاجمة الأفراد ، ولا تتجاوز ذلك إلى الجماعات . وقد كان همه في ذلك الحين أن يجيب الذين تجمعوا عليه من شعراء قومه . فالبغيث المجاشعي قد دخل بينه وبين غسان ، معيناً أخواله السليطيين . ثم ثقل حملة بدخول الفرزدق ، حين أخفش جرير على بني مجاشع ، وتناول أعراضهم ، فخمى الفرزدق لهم ، وانضم للبعيث في مهاجمته . وما يؤيد ما نذهب إليه ، من انشغال جرير في ذلك الوقت

(١) ابن الأثير ٣ : ٣٢١ - ٣٢٦ .

(٢) ابن الأثير ، نقائص جرير والفرزدق ١ : ١٠٣ وما بعدها .

بمهاجاة هؤلاء الشعراء ، قوله في أول أمر الفرزدق ، مخاطباً الحرث بن ربيعة المخزومي ، والى ابن الزبير على البصرة :

أبا خالد أبليت حزماً وسؤدداً وكلُّ امرئٍ مثنيٌ عليه بما يُبلى
أبا خالد لا تُشمتنِ أعاديا يودون لو زلت بمهلكة نعلي

والحرث بن ربيعة المخزومي كان والياً على البصرة لابن الزبير ، بين عامي ٦٥ هـ - ٦٨ هـ ، لأن الكوفة والبصرة صمتا لمصعب عام ٤٩ (١) . ويؤيد ذلك أيضاً قول جرير للبعيث ، قبل أن يدخل الفرزدق بينهما .

ويوم عبید الله خضنا براية وزافرة تمت إلينا تميمها
عن المنبر الشرقی ذات رماحنا وعن حرمة الأركان يرمى حطيمها

وهو لا يستطيع أن يفخر بذلك في ملك الأمويين ، ولا يمكن إلا أن يكون في ملك ابن الزبير . ومما يصور زبيرية جرير ، هذه القصة التي يرويها الأغاني في وفوده على عبد الملك بن مروان ، وما لقي من مصاعب في سبيل الوصول إليه (٢) . فقد أوفده الحجاج مع ابنه محمد ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه ومعاونته . فلم يزل محمد بن الحجاج يلح على عبد الملك حتى أذن له . فلما استأذن في الإنشاد قال له : وما عساک أن تقول فينا بعد قولك في الحجاج . ألسنت القائل :

من سدَّ مطّلع النفاق عليكوا أم منْ يصول كصوله الحجاج ؟
إن الله لم ينصرني بالحجاج ، وإنما نصر دينه وخليفته . أولست القائل .
أم من يفار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيره الأزواج
يا عاض كذا وكذا من أمه ! والله لهممت أن أطير بك طيرةً بطيئاً

(٤) ابن الأنبر ، ٣ : ٣٥٦ ، ٣٩٧

(١) الأغاني ٨ : ٦٦

سقوطها اخرج عني ا فخرج بشر . فلما كان بعد ثلاث شفع إليه محمد بن الحجاج وقال له : يا أمير المؤمنين . أنى أديت رسالة عبدك الحجاج وشفاعته فى جرير ، فلما أذنت له خاطبته بما أطار لبه منى وأشمت به عدوه ، ولو لم تأذن له لكان خير آله مما سمع ، فإن رأيت أن تهب كل ذنب له لعبدك الحجاج ولى فافعل . فأذن له . فاستأذن فى الإنشاد . فقال لا تنشدنى إلا فى الحجاج فإنما أنت للحجاج خاصة . فسأله أن ينشده مديحه فيه ، فأبى وأقسم أن لا ينشده إلا من قوله فى الحجاج ، فأنشده وخرج بغير جائزة . فلما أرف الرحيل ، قال جرير لمحمد بن الحجاج : إن رحلت عن أمير المؤمنين ، ولم يسمع منى ولم آخذ له جائزة ، ستمطت آخر الدهر . ولست بارحاً بابه أو يأذن لى فى الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الأذن له . فقال جرير : ارحل أنت وأقيم أنا . فدخل محمد على عبد الملك فأخبره بتمول جرير ، واستأذنه له ، وسأله أن يسمع منه ، وقبل يده ورجله . فأذن له . فدخل فاستأذن فى الإنشاد فأمسك عبد الملك . فقال له محمد : أنشد ويحك . فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالين بطون راح
فلما وصل جرير فى إنشاده إلى هذا البيت اهتز عبد الملك وطرب .
ويؤيد زبيرية جرير كذلك ، تعصبه للقيسية ، وما يملأ ديوانه من ترديد
أيامهم مع تغلب ، التى كانت بمائة لبنى أمية . يقول للأخطل .

وقيسٌ أذاقوك الهوان وقوضوا بيوتكم فى دار ذلٍ ومخرب
فوارسنا من صلب قيس كأنهم إذا بارزوا حرباً أسنة صلب

ويقول مزيداً حذفت تميم لقيس .

وقد أوردت قيسٌ عليكٌ وخندف فارسٌ هدًى من الحياضُ التي تُنجبي^(١)
ويقول للفرزدق :

لنا قيسٌ عليكٌ وأىُّ يومٍ إذا ما احمرُّ أجنحةُ العقاب^(٢)
ويقول له :

ولقد جهلت بشم قيس بعد ما ذهبوا بريش جناحك المكسور
قيس وجد أيبك في أكياره قواد كل كتيبةٍ جمهور^(٣)
ويقول له

لقد لحق الفرزدق للنصاري لينصرهم وليس به انتصار
تخاطر من وراء حمى قيسٌ وخندفٌ عزاً ما حَمَى الدِّمار
وهنا يبدو وجه الخلاف الشديد بين جرير والفرزدق . فالفرزدق أبى^(٤)
يكرم نفسه ويعتمد بحسبه . وهو يمدح الأمويين حين لا يجد بدا من الدخول
فيما دخل فيه الناس ، ولكنه لا يقدم عليهم ولا يزورهم . أما جرير فهو يلتمس
السبيل للوصول إليهم ، ويحتمل في سبيل ذلك المكاره ، طمعاً في عطايتهم .
وهو يحتمل لذلك ، فيتصل بالحجاج أول الأمر ، لأن ذلك أهون عليه ، ولأن
الحجاج قيسى من ثقيف ، فهو أقرب إلى الصنم عنه . ويجهد جرير نفسه
في مدح الحجاج ، ويقول فيه أجود ما قال في مدح إنسان ، حتى يبلغ رضاه
ويستطيع أن يضمن شفاعته له عند الخليفة .

(١) خندف امرأة ينسب إليها بنوها . وهم مدركة بن إلياس بن مضر (جد قریش)
وطابحة بن إلياس بن مضر (جد تميم) . ومضر شعبان كبيران . خندف ويشمل
قريشاً وتميمها ، وقيس عيلان وهو يضم قبائل كثيرة مشهورة منها هوازن وسليم
وثقيف وعبس وذبيان .

(٢) العقاب الراية . وإنما تحمر من الدم .

(٣) الأكيار جمع كير ، وهو المنفاخ الذي ينفخ به الحداد اينكى النار .

كان جرير رجلا من غمار الناس ، ولم يكن بالرجل الصلب الذي يقوى على النضال والكفاح . فهو يؤثر العافية ، ويحرص على إرضاء الحكام والرؤساء . يتقرب بالمدح ، ضمانا لسلامته واطمئنانه ، وطمعا في ما لهم وعظائمهم ، ويبلغ في ذلك حد التلون والنفاق . لا يكاد يصل إلى عبد الملك حتى يرضيه بشتم ابن الزبير (أبي خبيب) ، والتعريض به في أول قصيدة مدحه بها فيقول :

دعوتَ الملحدين أبا خبيبِ جماحاً هل شُفيتُ من الجماح^(١)

قد وجدوا الخليفة هبزيّاً ألفَ العيصِ ليس من النواحي^(٢)

فما شجراتُ عيصك في قریش بعشّاتِ الفروع ولا الضواحي^(٣)

رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا ويئنتُ المراض من الصّحاح

ولا يكاد الحجاج يموت ، حتى يستبيح جرير لنفسه أن يعرض به عند سليمان بن عبد الملك ، أرضاء له ، لما هو معروف من تباغضهما . وهو لا يستحي أن يفعل ذلك ، مع ما سلف من مدائح الرائعة فيه ، ومن إحسان الحجاج إليه . يقول لسليمان إنك قد أنقذت الناس من بلاء عظيم . ويصف تعذيب الحجاج للناس في سجنه المشهور (ديماس) وتنكيله بهم . فهذا رجل مكبل في القيود ، وذاك قتيل ، وتلك امرأة قد علقت من ثديها .

أجرتَ من المظالم كل نفس وأديت الذي عهد الزنول

ويدعوك المكلفُ بعد جهْد وعانٍ قد أضرَّ به الكبُول

(١) الجماح العناد والخلاف . الملحد المخالف . و منه الالحاد بمعنى الكفر لانه انحراف

عن الدين .

(٢) الهبزي الخالص . الألف الملتف . العيص الشجر . هذا مثل ضربه ، يريد أنه

من وسط العز ليس من نواحيه .

(٣) المشة بفتح العين وتشديد الشين الشجرة اللثيمة المنتبت الدقيقة القضبان . الضواحي

التي ستنط ورقها فبنت عيدانها .

وما زالت معلقةً بشدى بنى الدِّيماس أو رجلٌ قنيل
 فرَجَّتْ لهمَّ والحلقاتِ عنهم فأحبي الناسُ والبلدُ المحُول
 كان جرب لا يبالي غير سلامته ، فهو لا يهجو إلا من تعرض له من
 الشعراء ، ولا يعرض لنقد الولاية والعمال أو مهاجمة سياستهم . وهو لا
 يرتزق بالهجاء ، لأن ذلك قد يعرضه للشر ، واسكنه يعول في ذلك على المدح ،
 ويسوم نفسه في سبيل المال أقيح الذل ، وأبغض الإلخاف . فهو لا ينتظر
 عطاء من يمدحه ، ولكنه يصرح بالسؤال مستجدياً ، ويكثر من الشكوى
 متمسكناً ، وكأنه يستكثر بذلك من العطاء ، ويراه داعياً للزيادة .

يقول لعبد العزيز بن الوليد .

إلى عبد العزيز شكوتُ جهداً من البيضاء أو زمن القتاد
 سنين مع الجراد تفرقتنا فما تبقى السنون مع الجراد^(١)
 ويقول للحجاج .

ألا نشكو إليك زمان محل وشرب الماء في زمن الجليد
 ويقول معاوية بن هشام (وهو هنا مداعب خفيف الروح) .

ماذا ترى في عيال قد برمتُ بهم لم تُخصَّ عِدَّتْهم إلا بعداد
 كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية لولا رجاؤك قد قتلت أولادى
 ومن دعايته في السؤال المحلف قوله لسليمان بن سعد صاحب ديوان
 العطاء باليامة .

تركتُ عيالى لا فواكه عندهم وعند ابن سعد سكر وزبيب
 نَحْنَى العظام الراجفت من البلى وإيس لداء الركبتين طيب

(١) البيضاء السنة التي لانبات فيها . وزمن القتاد حين يعى الناس رعى القتاد فيلبهوا
 فيه النار لتأكل شوكة ، ثم ترعاه الأبل . تفرق العظمة وعرقها أكل ما عليها
 من اللحم .

كأن النساء الأسرات حنيني عريشاً فُشي في الرجال ديب
منعت عطائي يا ابن سعد وإنما سبقت إلى الموت وهو قريب
فإن ترجعوا رزقي إلى فإنه متاع ليل والحياة كذوب
ومن قبيح إلحاف، قوله في بعض مدائح لبي أمية .

أشكو إليك فأشتكى ذرية لا يشبعون وأهم لا تشبع
كنوا على فما يموت كبيرهم حتى الحساب ولا الصغير المضع
وإذا نظرتُ بريني من أهم عين مهجبة وخذ أسفع^(١)
وإذا تقسمت العيال غبوقها كثر الأنين وفاض منها المدمع
رشي فقد دخلت على خصاصة^(٢) مما جمعت وكل خير تجمع^(٣)

ولعل الفرزدق لم يبهد كثيراً عن الصواب حين صور شره جرير في جمع
المال ، وابتذاله نفسه في السؤال ، مع أن قومه من تميم كانوا يستطيعون أن
يغنوه ويكفوه ، حيث يقول :

يطل بأسواق اليمامة عاجزا إذا قال بيتاً بالطعام يُكايله
ولو جعلوا لابن المراغة درهما على إسكتيها قال إني مزاوله
لظل مكباً يبتغي بلسانه ليخرجه إذ لم تنله أنامله
تقدم عليها يا جرير فإن تكن رقيقاً إذا استلقت فإنك نائله
أظن بنا زوج المراغة أنه من الفقر لاقية الهزال فقاتله
وقد كان في الدنيا مراد لقعبه وفي هجر تمر ثقالة جلاله
وكانت تميم مطعميه ونابتا بهم ريشه حتى توارى نواصله

(١) المهجعة الفائرة الصينين . السفح سواد يملو حرة الحدين .

(٢) الخصاصة الفقر والحاجة .

ومع ذلك فلم يكن جرير بالمادح المجيد . فالرقة والسهولة الغالبتان على شعره تحرمان مديحة ما ينبغي له من قوة وشدة أسر . وهو لا يقع على صفات الملوك والخلفاء ، ولا يعرف كيف يمدحهم ، فهو من هذه الناحية لا يقارن بشاعر كالأخطل .

يقول سليمان بن عبد الملك ، وكأني بمدح رجلا كريما من عامة الناس :

تُهينون المحاضَ لكل ضيف إذا ما حُبَّ في السنة الجميل^(١)

ولا يوصف الناس بأنهم ضيوف الخليفة ولكنهم رعيته .

ويقول لعبد العزيز بن مروان حين رحل إليه يمدحه بمصر .

إذا ما أناخ الراغبون ببابكم مع الوفد لم ترجع عبايهم صفرا

وذلك أدنى ما يقال في رجل . فلو أن هذه العباب عادت مملوءة تبتنا أو

ترا بالما كانت صفرا .

ويقول في مدح يزيد بن عبد الملك إنه نزل به ضيفا فأكرمه وغطاه من

فضل لحافه .

ما من جفانا إذا حاجاتنا نزلت كمن لنا عنده التكريم واللفظ

كم قد نزلت بكم ضيفا فتأخفتي فضل اللحاف ونعم الفضل يلتحف

وايس مثل جرير ضيفا على مثل يزيد ، وإنما هو معتف يرجو فضله

ويسعى لسببه . واستعارة اللحاف هنا للفضل من أقيح الاستعارات .

ثم يقول إن له حسادا لا يغنون غناه .

يارب قوم وقوم حاسدين لكم ما فيهم بدل^١ منكم ولا خلف

وهذا نزول بالخليفة إلى مستوى عامة الناس .

١ . الجميل الشحم المذاب . بكفي بذلك عن الجذب .

ويقول لعبد الملك .

الله طوقك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل
واليس يحسن استعمال التطويق في النعمة ، فإنما يطوق الناس البلاء
والمصائب . فالطوق أدنى إلى أن يصور التضييق والتشكيل .

ويقول للوليد بن عبد الملك :

وترى الجفان يدها قعُ الذرى مدَّ الجداول بالآتي^(١) المنعم^(٢)
والقدر تنهمُ بالحمال وترعى بالزور هممة الحصان الأدم^(٣)
وليس يوصف الخليفة بأنه يمد للناس جفانا يعلوها شحم السنام ، وبأن
قدره تغلى بالقطع من فنار الظهر ، كأنها الحصان الأدم حين يهيمهم
ويصهل . فذلك قليل جداً على الخليفة ، وإعما يمدح به عامة الناس الذين
ينتابهم الفقر .

ويقول لهشام :

وكلت أبوك قد علمت معد يفرج عنهم الكرب العظاما
وقد وجدوك أكرمهم جدودا إذا نسبوا وأثبتهم مقاما
وتحرز حين تضرب بالمعلمي من الحسب الكواهل والسناما
وليس نسب الخليفة موضع بحث ، ولا هر مما يحتاج إلى إثبات ، أنه أفضل
الناس نسباً .

ويقول له في مديحة أخرى .

فيا ابن المطمئن إذا شتونا ويا ابن الذائدين عن الحریم
فما الأم التي ولدت أباكم بمقرقة النجار ولا عقيم

(١) الدررة السنام . نعمة الدررة أعلى السنام . الجداول الأنهار . الآتي الجاري .

(٢) المحال فنار الظهر واحدها محالة . الزور الصدر . الهممة صوت دون الصهيل .

فلو أن أما ولدت شرطيا لم تكن مقرقة النجار ولا عقيما .
ويقول للعباس من الوليد :

فيا ابن المطمئنين إذا شتونا ويا ابن الذائدين عن الذمار
وتمطر من نداك يداك فضلا إلى كرم الشائل والنجار
وتوقد نار مكرمة وأخرى إذا ما المحل أخذ كل نار
وكان بيت الخليفة مجهول يحتاج إلى أن توقد أمامه النار ليهتدى إليه
الضيغان .

كانت السهولة العالبة على شعر جرير صورة من طبعه السمع ،
وزنسه الرقبة المطمئنة . فمد كان جرير رجلا مؤمناً شديداً ، التمسك بدينه ،
يؤثر السلامة والعافية في الآخرة كما يرجوها في الدنيا . كان إذا نلى الصبح
جلس في فناء منعزل أمام داره ، لا يكلم أحداً حتى تطلع الشمس ، ولا يبرح
موضعه ولو تناحر الحى^(١) . ولقد مرت به جنازة وهو يميل على رجل قصيدته
ودع أمانة حان منك رحيل إن الوداع لمن تحب قليل
فتمطع الإنشاد وجعل يبكي . ثم قال : شيبني هذه الجنازة^(٢) . ولقي
الفرزدق بنى وهما حاجان ، فقال له الفرزدق :

فإنك لاق بالمحصّب من منى فخاراً فحدثني بمن أنت فاخر
فلم يحبه إلا بقوله : لبيك اللهم لبيك^(٢)

وهذه الرقة الغالبة على طبعه ، جعلته من أكثر شعراء عصره توفيقاً في
الغزل والرثاء . وبهذا كان يمتاز من زميليه الأخطل والفرزدق . لم يفرغ
جرير للغزل ، ولم يشيء في قصائده مستقلة ، ولكنه كان يقدم لمدائح وأهاجيه
بنسب يسيل رقة وعدوبة . وكان جرير يعرف من نفسه هذه الرقة ، فهو

(١) النفاضة ١ : ٣٢

(٢) الأغاني ٨ : ١٥

(٣) الأغاني ٨ : ٣٣

يقول : ماعشقت قط . ولو عشقت لاسبت نسيبا تسمعه العجوز فتبكي على
مافاتا من شبابها^(١) أنظر إلى قوله في مقدمة قصيدة يهجو بها الفرزدق :

فلما التقى الحيان ألقيت بالعصى ومات الهوى لما أصيبت مقاتلة
لقد طال كتباني أمانة حبها فهذا أوان الحب تبدو شواكله
ويوم كإيهام القطة مزين إلى صباه غالب لي باطله
هوت بجني عليه ثموطه وأنس مجاليه وأنس شمائله
فلو كان هذا الحب حبا سلوته ولكنه داء تعود عقائله

هذا شعر معظم جماله في ألفاظه السمجة الرقيقة ، التي تطرب الأذن
وتستخف القلب . ولقد حق لجرير أن يصب ويبيكي ، حين قدم المدينة فاستمع
إلى أشعب يفتي في قوله .

يا أخت ناجية السلام عليكم قبل الفراق وقبل لوم العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل
لجعل يستعيده وهو يبكي حتى اخضلت لحيته . والذي يقرأ رثاء جرير
لزوجته ، وولده سواده ، لا يستطيع أن ينتشل نفسه من الحزن العميق الذي
أملأهما ، والرقة الباكية التي تفيضان بها . ولقد ماتت زوجة الفرزدق ، فلم
يجد النادبات من شعره ما يندبها به ، فندبها بتصيد جرير هذه التي رثى
بها زوجته .

هذه بعض مواهب جرير الشعرية وملسكاته . وإنما كانت تتجلى هذه
المواهب في كامل قوتها وروعها حين يهجو الأفراد . فتمد كان هذا الرجل
الرقيق الطبع جرو هراش كما يقول الحجاج ، يندفع في الهجاء متدفقا لا يمل ،
وكانه يمارس أحب الهوايات إلى نفسه . وكان يعينه على ذلك هدوء طبعه

وبرود أعصابه . فقد كان ينهشه ثمانون شاعراً من معاصريه ، لم يستطع أحدهم أن يحفظه أو يثير غضبه ، فهو يستمع إلى هجائهم في اطمئنان ، ثم يرد عليهم بهذا الاطمئنان نفسه ، فيطيل متماداته في اللسيب ، مستأنياً لا يستعجله الغضب ، حتى إذا أَرْضَى مِنْهُ نَفْسَهُ ، تناول خصمه متهاكاً ساخراً ، مفتناً في تهكمه وسخريته بما يضحك منهم الناس ، ويشير حولهم عراضف الضحك ، وبضيق عايمهم الدنيا . فحيثما ذهبوا ، وجدوا هجاءه فيهم قد سبق على الألسن ، يتندر به في كل مكان . يقول ابن سلام : كان الفرزدق يتضرر ويحزع إذا أنشد لجرير ، وكان جرير أصبرهما . دخل رجل على الفرزدق فقال : وردت اليرم المربد قصيدة لجرير تناشدها الناس . فامتقع لون الفرزدق . فقال الرجل : لئست فيك يا أبا فراس فقال : فيمن ؟ قال : في ابن لجأ النيسى . قال : أحفظت منها شيئاً ؟ قال : علقت منها بيتين (١) .

كان جرير ممتازاً في حسه اللانظي ، عالماً بوحى الكلمات وأسرارها . فهو إذا تغزل رأيت ألفاظه تسيل رقة وعزوبة في مثل قوله .

عوجى غدينا وأربعى ربة البغل ولا تقتليني لا بجل لسم قتلى
ليالى إذ أهلى وأهلك جيرة وإذ لا تخاف الصرم إلا على وصل
وإذ أنا لا مال أربد ابتياعه بمالى ولا أهل أبيع بهم أهلى
وإذا رثى رأيت ألفاظه تنمار حزناً وكمدأ ، في مثل قوله يرثى ولده

سرادة :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالى
فارقنى حين كف الدهر من بصرى وحين صرت كعظام الرمة البالى
إن الثوى بنى الزيتون - فاحتسبى - قد أسرع اليوم فى عقلى وفى حالى

وإذا هجا كانت ألفاظه مشحونة بالسخرية والاستهزاء ، تستعجل القارىء بالضحك ، قبل أن يفهم ما تضمنت من معنى . يقول للفرزدق :

عُدوا خضافٍ إذ الفحول تُنجبتُ والجيشلوطُ ومُحِبَّةٌ خوارا
وإذا فخرت بأمهات مجاشع فافخر بققبب واذكر النُّخوارا
وتأمل اختياره لهذه الألقاب العجيبة ، وإلى غرابتها المضحكة ، في الجيشلوط (وهو لفظ مخترع ، كأن معناه السكذاب السلاح ، مركب من جلط وجنط وسلط) وققبب والنخوار .

ويقول له :

بئس الفوارس يانوار مجاشع خور إذا أكلوا خزيرا ضفدعوا
وتأمل هؤلاء القوم الذين يصفدعون (أى يساحون ويضربون)
ويقول له :

فإن مجاشعاً فتمرُّ قوم بنو جَوْحَى وخَبَجَجِجٍ والفِذامِ
وتأمل اختياره لهذه الأسماء الغريبة ، وهى أسماء بض من كان يشتغل بالحدادة من رقيقهم ، يتهم نساء مجاشع بهم . ويقول : هؤلاء القيون هم آباؤهم ثم انظر أخيراً إلى هذه الأبيات العجيبة ، ولا تتعب نفسك فى فهمها ، فهى تؤدى ما أريد بها بمجرد ملامستها للأذن ، وتستفز للضحك بخصائصها الصوتية وحدها :

أنت ابن هاتيكَ وتيكَ تيكَا أشبهتَ منها شهباً يُجزِكا
أشبهتَ حُمرانَ وعُصْلَ كيكَا أما ترى الحمرَةَ فى بنيكا
يا ابن التى كانت تمشى رحِكا كأن بين إسكتيها ديكَا
فرجُ أسنها مثل مشقِّ فيكا تقول لما ملَّت التَّوزِكا
عال أخاك العبدُ عن أبيكا

وقد وهب جرير مع هذا الحس اللفظي الممتاز عينا نقادة ، تتمع على العيوب ووجوه النقص من أول نظرة ، وتهتدى إلى مواضع السخرية ، اهتداء المغناطيس إلى دقائق الحديد المنتشر ، ومن وراء هذه الملاحظة الدقيقة النقادة خيال خصب ، وذكاء نفاذ ، يمدّه بالصور الغريبة في الافتنان ، البارعة اللاذعة ، يتناقلها الناس متندرين . فن أمثلة هذا الهجاء الذي يعتمد على الصور ، قوله يصف بنى مجاشع بالسمن والترهل ، مع قلة الغناء في الحروب .

مق تغمز ذراع مجاشعى تجمد لحماً وليس على عظام
فما صدق اللقاء مجاشعى^١ وما جمع القناة مع اللجام
تولون الظهور إذا لقيم وتدنون الصدور من الطعام

وقوله فيهم :

تلقي ضفناً مجاشعٍ ذا لحية وله إذا وضع الإزار حِران^(١)
من كل منتفخ الوريد كأنه بغل تقاعسَ فوقه خرُجان

وقوله للقيم :

وتيم تُماشِها الكلاب إذا غدوا ولم تمش تيم في ظلال الخوافق
وتيم بأبواب الزروب أذلة وما تهتدى تيم رِباب السُرادق
وتمشح تيم قُصّة النيس وأسته ولا يمسحون الدهرَ غُرةً سابق

وقوله للبعيث المجاشعى :

يفيش ابن حمراء العِجان كأنه خِصى براذين تقاعس في الوحل^(٢)

(١) الضفن التصير المكتنز . الحر موضع العورة من المرأة .

(٢) ابن حمراء المجان يكنى بذلك عن أن أوه أعجمية ليست بعربية . والمجاز الموضع

الذي بين القبل والدبر .

وقوله في الأخطل :

والتغابي إذا تنحح للقرى
حكّ آسته وتمثل الأمثالا
وقوله للفرزدق :

إذا أسفرت يوماً نساء مجاشع
مناخر شانتها القيون كأنها
بدت سوءة مما تُجِنُّ البراقع
أنوفُ خنازير السوادِ الفواع
مباشيم من غبِّ الخزير كأنما
تصوّتُ في أعفاجهن الضفادع^(١)
وقوله له :

وأوصى جُبَيْرٌ إلى غالب
فقال أرفقنّ بليّ الكنيف
وصيةً ذى الرحم المجهّد
وحكّ المشاعب بالمبرد^(٢)
وفاز الفرزدق بالكلبتين
وعدل من الجُمَمِ الأسود^(٣)
فرقعُ لجدك أكياره وأصلح متاعك لا تفسد
وأذن العلاة وأذن القدموم ووسع لكيرك في المقعد

وهو يتهم جدة الفرزدق بعبيدها جبير ، ويقول إنها ولدت ابنها غالباً
(أب الفرزدق) منه . ثم هو يمر بذلك مرور من يلقي الخبر وكأنه حقيقة
مفروغ من صحتها لا تحتاج إلى إثبات . ومن ذلك قوله :

وجدنا جُبَيْراً أبا غالب بعيد القرابة من معبد

(١) الخزير والخزيرة دقيق يخلط بالماء ويوضع على النار حتى يتماسك قوامه ، وقد يوضع فيه لحم . أو هو مرقّة تتخذ من بلالة النخالة . الاعتجاج الأعماء . وغب كل شيء عاقبته .

(٢) الكنيف ضرباً الحديد ، والواحدة كتيفة . المشاعب جمع مشعب على وزن منبر . وهو المثقب الذي يثقب به .

(٣) الكلبتان ما يأخذ به الحداد الحديد المحمي . العذل بفتح العين وكسرهما المثل والنظير . اللحم بضم الحاء وفتح الميم الفعم .

(٤) العلاة بفتح العين السندان الذي يطرق عليه الحديد .

ومن أمثلة الهجاء الذي يعتمد على النكتة المضحكة قوله في هجاء التيم :
ولو يُدْفَنُ التَّيْمِيُّ ثم دعوته إلى فضل زاد جاء يسعى من القبر
وأية لثوم التيم أن لو عدتم أصابع تيمى نقصن عن العشر
وقوله فيهم :

يا تيم إن وجوهكم — فتقنعوا — طُبِعَتْ بِالْأَمِّ خَاتَمٌ وكتاب
قوم إذا حضر الملوك وفودهم نُتِفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الْأَبْوَابِ
وقوله فيهم :

وتيم يفخرون وَضَرَبُ تَيْمٍ كضرب الزئيف بار على التجار
وقوله للفرزدق في نفس المعنى ، حين طرد من الحجاز لسوء سيرته ،
وإخاشه في شعره :

نفاك حجيج البيت عن كل مشعر كما رُدَّ ذُو النُّهَيْتَيْنِ المزيّف
وقوله للأخطل :

أنزعم ذا المناخر كان سبطاً يهودياً وتزعمه أبابا
وهو بذلك يشير إلى مايروى من أن الخنزير كان من بني إسرائيل فمسخ.
وهذا الخيال الخصب ، وهذه النكتة البارعة ، قد جعلت جريراً من أخطر
الهجائين ، في إطلاق الألقاب على خصومه ، وترويح الإشاعات الباطلة ،
يكررها في شعره ، ويفتن في عرضها ، حتى تصبح عند الناس حقيقة مؤكدة
فهو يلفظ الأخطل بدوبل ، لأنه كان نصرانياً يأكل الخنزير. يقول له :
بكى دُوبَلٌ لا يُرْقَى اللهُ دَمَعَهُ ألا إنمائيكي من الذل دوبل^(١)
ويقول :

فكم من خبيث الریح من رهط دوبل بدجلة لا تبكى عليه النوائح

(١) الدوبل الخنزير أو ذكره أو ذكر ولده .

ويقول :

فإنك يا خنزير تغلب إن تقل ربيعة وزن من ثميم تكذب
ويلقب أبا الفرزدق بحوض الحمار ، لأنه كان أحذب داخل الصدر
طويل الحية .

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعرفوا منه قفا ومقلداً وعذارا^(١)
ويقول :

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعلموا عقْدَ الأَخَادِعِ وانسِنَاجَ المِرْفَقِ
شَرُّ الخَلِيقَةِ من علمنا منهم حوضُ الحمارِ وشر من لم يخلق
ويلقب بني نمير بالتيوس .

فصبراً يا تيوس بني نمير فإن الحرب موقدة شهابا
ويسمى الفرزدق القرد لقصره ودمامة وجهه ، ويلقبه أحياناً القرد
الأصلح لجمعه الصلح إلى القصر والدمامة .

إن البليّة لا بليّة مثلها قردٌ يعلل نفسه بالباطل
ويقول :

ولقد صككت بني الفدوّ كسِ صكّة فلقوا كما لقي القريد الأصلع^(٢)
ويلقب رجلا من سعد اسمه أبو كامل (ضرة الأرنب)
أخالفت سعدا وحكاها أيا ضرة الأرنب الحافل

(١) العذار جانباً للحية . وهو كذلك ما سأل من اللجام على خد الفرس . والمقصود
هنا المعنى الأول . المقلد . ووضع القلادة .

(٢) الأخدع عرق في الرقبة هو فرع من الوريد ، والأخداع جمعه : يقال لوى فلان
أخدعه أى أعرض وتكبر ، وسوى أخدعة أى ترك التكبر . المرفق مفصل
الذراع ، وانسناجة تقبضه .

(٣) بنو الفدوكس بيت من بيوت تغلب : وهم قوم الأخطل .

ويلقب رجلاً آخر اسمه ميحاس (دودة الحشّ).

لو كان غيرك يا ميحاسُ يشتمنا يا دودة الحشّ يا ضلُّ بن ضلُّ (١)

ويلقب شبة بن عقال (سلح النعامة).

فضح الكتبية يوم يضطر قائماً سلحُ النعامة شبةُ بن عقال

وجريز بعد هذا أمر الناس في اختراع الإشاعات وترويحها. يصهر الفردق إلى قوم من بكر حين يخضب ابدهم حدراء، فلا يزال جريز يشنع بهما، حتى يمنعها أهلها منه، كفاً لشره وهجائه. ويتهم ليلي أم غالب (جدة الفردق) يجير عبدها - وكان قيناً - ويكرر ذلك حتى يشيع بين الناس.

تلقى نساء مجاشع من ربحهم مرضى وهن إلى جبير نزع

ليلي التي زفرت وقالت حبذا عرق القيامة من جبير ينبع

ويتهم جمعن أخت الفردق برجل من منقر، ولا يزال يفتن في تصوير اتصاله بها أخص أفتنان، ويفصل أقدر تفصيل، حتى تصبح جمعن سبة الفردق وقومه، ولا يرى الناس قوله فيها إلا حقيقة.

كان الفردق يشنع بجريز، ويختلق الإشاعات حوله وحول قومه.

ولكن لم تكن له جرأة جريز وبراعته، فهو يشنع بصلة بني يربوع بالخير، وهو شيء بعيد عن المعقول، قد يتندر به الناس، ولكنهم لا يصدقونه.

فأما جريز فهو يلتقط مادة هجائه من الواقع المشاهد، القريب من المعقول.

ومن دظاهر هذه الواقعية التي تستند إلى دقة الملاحظة، براعته في حكاية الأصوات والأشياء - وإن كانت هذه البراعة فاحشة في كثير من الأحيان.

يقول في هجاء بني عقال :

وسوداء المهاجر من عقال تُباعُ من دفاة خدها وهات

ويقول لعمر بن لجأ التيمي متهماً أمه :

تقول والعبء مسكين يُجرّرها ارفق فدَيْتُكَ أذ الناكح الذكر

ويقول في جعثن أخت الفرزق :

وتقول جعثن وابنُ مرّةٍ جانح خَلَجاً رويداً قد نزعت طِحالي

وقد كان جرير يعالج موضوعاته معالجة الفنان الموهوب ، الذي يَلْسَح

ولا يصرح ، ويتناول الأشياء من أطرافها مترقفاً ، ويشير إليها ولا يلمسها .

يقول في أعور نهبان :

وأعور من نهبان أما نهاره فأعمى وأما ليلته فبصير

ويقول لعمر بن لجأ معيراً بأمه :

ما بال برزة في المنحاة إذ نذرت صومَ المحرّم إن لم يطلع القمر

ويقول له :

ولقد هممتُ بأن أدمرُ بارقا فرقتُ فيهم عمنا إسحاقا

وهو بذلك ينفهم عن العرب ، وينسبهم إلى بني إسرائيل . وأبرع ما في

البيت أنه يدخر كل ما فيه من لذع للكلمة الأخيرة . فالقارىء لا يرى بالبيت

بأساً حتى تلقى هذه الكلمة كالقنبلة .

ويقول لتيم

ترى الأبطال قد كُليوا وتيم صحبحوا الجلد من أنر الكلوم

ويقول للفرزدق :

فإن مجاشعاً جمعوا فياشاً وأستاهأ إذا فزِعوا رِطابا

يتهمهم بالجن ، ويقول إنهم يسلحون لفرط ما بهم من فزع .

ويقول في نساء بني نمير .

إذا قامت — لغير صلاة وتر — بعيد النوم أنبحت الكلابا

ويقول لبني مجاشع :

الظاعنون على أهواء نسوتهم والحافضون بدارٍ غيرٍ محلال

وجرير بعد كل هذا ساخر من خصمه ، متهم به ، لا تراه غاضباً أبداً .

وقد جعل هذا الهدوء لسخريته لذعاً كأنه السياط . انظر إلى قوله في تعبير

بني مجاشع بلقيط بن زرارة ، الذي قتل في بعض الحروب .

وخورُ مجاشع تركوا لقيطاً وقالوا حنو عيناك والغراباً^(١)

جعلهم يتحدثون إلى الميت ، ويطلبون إليه أن يحافظ على عينه من الغراب .

وقوله للتيم .

وإنك لو لقيت عبيد تيم وتيا قلت أيهم العبيد

وقوله للأخطل :

أدّ الجزى ودع الفخار بتغاب واخساً بمنزلة الذليل الصاغر

وقوله له :

قال الأخطل إذ رأى راياتنا يا مار سرجس لا نريد قتالا

وقوله :

إذا ما كان خالك تغاليا فبادلٍ إن وجدت له بديلا

أبعل التغلبية لا تطأها فلادينا أصبت ولا جمالا

(١) حنو العين عظم الحاجب المنحنى على العين : وقيل حنوها ناحيتها : يهزه هـ

فيقول احفظ الغراب بعينك ، فان انصرفت عن مراقبته سقط عليها فأكلها :

وقوله له :

قيس وخندف إن عددت فعالمهم خير وأكرم من أبيك فعلا
إن حرّموك لتحرمنّ على العدا أو حللوك لتؤكلنّ حلالا
ويقول للفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مرّ بها أبشر بطول سلامة يامربع
ويقول معيرا إياه قتل الزبير بن العوام وهو في جوار قومه مجاشع :
فأذوا خواويّ الرسول ورحله إلى أهله ثم افخروا بعدئ أو دَعُوا

كل هذه الخصال كفلت لشعر جرير السيرورة والذبيوع ، وجعلت منه
أبرع هجاء عرفه الأدب العربي في مهاجمة الأفراد . فلم يعرف الأدب العربي
شاعرا تعرض له مثل هذا العدد الضخم من الشعراء الذين تعرضوا لجرير ،
فكان لا يمل الرد عليهم ولا يضيّق به . وكان مواهب هذا الرجل الشعرية ،
لم تكن تسخو وتجوّد إلا على الهجاء .

الفـرزـدق

الحديث عن جرير لا بد أن يستدعي الحديث عن الفرزدق ، فهما صنوان لا ينفترقان ، ربطت بينهما الأقدار في الذنأة ، فكان مولدهما في عامين متمارين ، سبق إليه الفرزدق ببضع سنوات ، وربطت بينهما في الوفاة فماتا في عام واحد ، وربطت بينهما في النسب فكانا من قبيلة واحدة ، وربطت بينهما بعد كل ذلك في هذا التلاحم والتنافس ، الذي دام بينهما نحو من أربعين عاما ، يتهاجيان بما لم يتهاج بمثله شاعران في جاهلية أو إسلام ، كما يقول ابن سلام .

ويتفق الذين أرخوا لهما على أنهما ماتا في عام واحد ، تم يختلفون في تحديده ، بما لا يسبق عام ١١٠ هـ ، ولا يتأخر عن ١٤٤ (١) . ويرجح أبو الفرج أن تكون وفاتهما في عام ١١٤ هـ ، لأن للفرزدق شعراً في يوم كاظمة (١١٢ هـ) ، ولا بد أن تتأخر وفاته عنه . ويؤيد ما يذهب إليه أبو الفرج أن الفرزدق مدح خالد بن عبد الملك بن الحكم والى المدينة ، وخالد هذا قد وليها عام ١١٤ هـ . ويتفق المؤرخون كذلك على أنه جاوز التسعين . ويؤيد ذلك عندنا قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها عبد الله بن عبد الأعلى بن أبي عمرة الشيباني .

سما لك شوق من نوار ودونها مَهَامِهِ غَيْرُ آجِنَاتِ الْمَنَاهِلِ (٢)
ومن بعد أن أكلت تسعين حِجَّةً وفارقت عن حلم النهى كلَّ جاهل

وقول جرير في رثائه :

فتى عاش يبني المجد تسعين حجة وكان إلى الخيرات والمجد يرتقى

(١) المقدم الفرید ٦ : ٢٢٢ ، ابن خلكان ٢ : ٢٦٥ ، الشعراء والشعراء ١٧٦ و١٧٩

(٢) المهاج جمع مهبه وهى الصحراء : المنهل الآحن الراكد الفاسد .

فولد الفرزدق على ذلك حوالى عام ٢٤ هـ ، أو قبله بقليل ،
ويؤيد ذلك قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ
— ٩٦ هـ) ، ويفهم من جوها أنها فى أوائل عهده بالخلافة :
ألم يك جهلا بعد ستين حجة تذكر أم الفضل والرأس أشيب
ويؤيد ذلك أيضا قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك
(١٠١ هـ — ١٠٥ هـ) .

تقول أما ينهاك عن طلب الصبا لداتك قدشابوا وإن كنت أكبرا
من ابن الثمانين الذى ليس واردا ولا جائيا من غيبة مُنظرا
وقوله بعد ذلك فى مدح هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ — ١٢٥ هـ) ،
ولا بد أن يكون فى أول ملكه :

رمتنى بالثمانين الليالى وسهم الدهر أصوبُ سهم رامى
نستطيع إذن أن نطمن إلى هذا التاريخ ، الذى يصور الفرزدق أسن
من جرير ببضع سنوات ، وأن يرفض ما يتعارض معه من الروايات ، مثل
قول صاحب الأغانى (١) « حج الفرزدق بعد ما كبر وقد أتت له سبعون سنة ،
وكان هشام بن عبد الملك يد حج فى ذلك العام ، . فالمعروف أن هشاماً حج
عام ١٠٦ هـ . فولد الفرزدق على هذه الرواية عام ٣٦ هـ . ومناقض لما يروى
أبو الفرج نفسه فى موضع آخر (٢) ، من أن الفرزدق كان يجيد الهجاء فى
أيام عثمان (٢٣ — ٣٥ هـ) . ومناقض كذلك لما يروى فى موضع ثالث من (٣)
أن أباه وفد به على بن أبى طالب بعد موقعة الجمل (٣٦ هـ) ، فقال له :
إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع منه . فقال له : عليه القرآن .

(١) الأغانى ١٩ : ٤٠

(٢) الأغانى ١٩ : ٦

(٣) الأغانى ١٩ : ٤٠

وإذا كانت الأقدار قد ألفت بين جرير والفرزدق من وجوه ، فقد خالفت بينهما من وجوه أخرى ، فكانا متناقضين من نواحي كثيرة . فجرير حامل الأجداد ، شديد الشعور بنقصه ، ساخط على القدر الذي لم يحيه به إلى الدنيا إلا عن طريق أبيه ، وهو عاق له ، ضيق به . أما الفرزدق فهو عظيم الأب والجد ، شديد الشعور بامتيازته وتفوقه ، راض عن آباءه ، شديد الفخر بهم . وجرير رقيق القلب ، عميق الإيمان ، ليس في سيرته خروج على الدين أو العرف . وهو مسلم ، حسن العلاقة ، بالولادة والحكام والناس . أما الفرزدق فهو فظ غايظ التلب ، لم يدخل الإسلام نفسه ولم يتغلغل فيها ، ففي سيرته خروج على العرف والدين . وهو جلف جاف كثير الخلاف ، مولع بالمشاكسة والمراء . ولذلك ساءت علاقته بالولادة جميعاً . وكان جرير لرقته وإيثاره حياة الوداعة والهدوء لا يتكسب بالهجم . وكان يبتذل نفسه في السؤال ، ويهينها في سبيل المال . أما الفرزدق فكان شديد الاعتداد بشخصه ، يفرض نفسه على الناس فرضاً ، يسألهم في عنف ، وكأنه يرى في ما لهم حقاً له ، ويهجوم إذا امتنعوا عنه وأبوا أن يبدوا له . وهو كذلك شديد الاعتداد بنفسه حين يسأل الخلفاء والولاة ، لا يترسل إليهم إلا بنسبه ومكاثته من قبيلته . وكان جرير زيبري الهوى قيسى النزعة ، يمثل الحزب اليربوعي من تميم . أما الفرزدق فكان لا يعتد بنير قبيلته ، ولا يفكر إلا في حسبه وشرف أجداده ، فهو يمثل حزب الأحنف من تميم .

وجد الفرزدق في جرير منافساً خطيراً له حين نبغ في الشعر ، ورآه يسرع إلى المجد ، وقد أوشك أن يتلعب كل من اعترض طريقه من شعراء تميم ، حتى كاد يحتل من القبيلة مكان الشاعر الأول ، فسد هذا الرجل التياه بنفسه ، ووقف في طريقه ، ليضع حداً لتقدم هذا الخامل ، الذي يريد أن يحتل بشعره من تميم مكاناً ينافسه به . وقد يتحدث الرواة عن بعض الأسباب المباشرة لتهاجي هذين الشعارين ، ولكن المدقق لقراءة شعرهما وماتبادلا من نقائص ، يحس

أن التنافس على الزعامة الشعرية في القبيلة، والنزاع حول شرف الدفاع عنها هو الدافع الأول إلى هذه المعركة الشعرية الخطيرة، التي لم تنته إلا بموت الفرزدق. يقول الفرزدق مخاطباً جرير:

واسأل بنا وبكم إذا وردت منى أطراف كل قبيلة من يُسمع
صوتك وصوتك يخبروك من الذي عن كل مكرمة لخندف يدفع^(١)
ويقول له:

ستعلم يا حيض المراغة أبنا له حين يدعو من تميم قائمه
ألم تعو عن قيس بن عيلان باسطاً إليهم يدى مستطعم لا تطاعمه
بأعراض قوم خندفين منهم لؤى بن فهير والسعود ودارمه
ويقول له:

منعتُ تيمياً منك، إني أنا ابنها وراجأها المعروف عند المواسم
أنا ابن تميم والمحامي وراءها إذا أسلم الجاني ذماراً المحارم

ونلاحظ هذا التنافس كذلك حين يعرض الشاعران لذكر سعد — وهي من أشرف فروع تميم وأكبرها، فيها الزبرقان بن بدر والأحنف بن قيس — حيث نرى أن كلا منهما يحاول أن يكسب تأييدها، وأن يضمها إلى جانبه. يقول جرير في بعض نقائضه.

ولم أنس من سعد بقُصوان مشهدا وبالأدنى ما دامت العين تُطرفُ
وسعد إذا صاح العدو بسرّحهم أبوا أن يهدّوا للصياح فأزحفوا
ديار بنى سعد ولا سعد بعدهم عفت غير أنقاء بيبرين تُعرف
إذا نزلت أسلافُ سعد بلادها وأثقالُ سعد ظلت الأرض تُرجفُ

(١) خندف زوجة إلياس بن مضر. وهي الام التي يجتمع عندها تميم وقريش.

فيجيبه الفرزدق بقولة :

تُبَكِّيَ على سعد وسعد مقيمه بيبرين منهم من يزيد ويضعف
على ما وراء الردم لودكّ منهم لماجوا كما ماج الجراد وطوفوا^(١)
فهم يعدلون الأرض لولاهم استوت على الناس أو كادت تسير فتُنسَف
ولو أن سعداً أقبلت من بلادها لجاءت بيبرين الليالي تزحف

كان الفرزدق عميق الإحساس بتفوقه وامتيازته . فجده صعصعة بنبي الوئيدات ، الذي جعل على نفسه أن لا يسمع بموءودة إلا فداها ، فجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة أو أربعائة فيما يقول الرواة . وأبوه غالب الذي يذهب في كرمه إلى حد الإسراف والإتلاف ، يعطى الناس ولا يسألهم فيم يسألونه ، ويبلغ به جنون الكرم والحرص على التمنوق فيه أن يعقر كل أبله ، وهي تتجاوز المائة ، بل تبغ أربعائة فيما يرى بعض الرواة ، فينهبها الناس منافسة لرجل منهم سوات له نفسه أن يجاربه ويضاهي نفسه به^(٢) .
وقد كان الفرزدق يحس هذا الامتياز منذ نشأته ، فهو طمّرح على الهمة ويبدو ذلك في القطعة ، التي يظهر أنها من أول شعره ، يخاطب بها أمه وقد أرسلته في غنم يرعاهها - وكان غلاما - فأغار عليها الذئب فاخطف كبشاً ، فلما راح إليها لامته .

ولأمتي يوماً على ما أتت به صروف الليالي والخطوب القوارع
فقلت لها فيئى إليك وأقصرى فأوم الفتى سيف بوصليه قاطع^(٣)

- (١) يقصد بالرمد سد ذى القرنين الذي ورد ذكره في سورة الكهف . بناه على أهل بأجوج ومأجوج ليكف أذاهم عن الناس . طوفوا خرجوا كالطوفان .
(٢) الأغاني ١٩ : ٣ - ٥
(٣) فيئى أى ارجمى . أوم الفتى ظاؤه ورغبته . يقول إنى لآتئى الموت بسيف قاطع من إلحاحك في اللوم .

تلوم على أن صبَّح الذئبُ ضأنها فالوى بكبشٍ وهو في الزعَى راتع
وقدم حول بعد حول وأشهرُ عليه بيؤسٍ وهو ظمآن جائع
فلما رأى الإقدام حزمًا وأنه أخوالموت من سُدَّتْ عليه المطالع
أغار على خوف وصادف غرةً فلاقى التي كانت عليها المطامع
وما كنت مضياًعاً ولكنَّ همتي سوى الرعى مفطوما وإذ أنا يافع
أبيت أسوم النفس كل عظمة إذا وطوتُ بالمدِّ كثيرين المضاجع

ويبدو هذا الطمّرح الجرى، في قصة قدِّمه على معارِية، مطالباً بميراث همه الحُتات وكان قد قدم عليه وأخذ عطاءه ألب دينار، ثم لم يلبث أن مات. فرد معارِية عطاءه إلى بيت المال، فندم عليه الفرزدق - وكان غلاماً - فقال :

أبوك وعمى يا معاوى ورتنا ثرائنا فيحتاز التراثَ أقابهُ
فما بالُ ميراثِ الحُتاتِ آكاته وميراثُ حربٍ جامدٌ لك ذائبهُ
فلو كان هذا الأمرُ في جاهليَّةٍ علمتَ من المولى القليلُ حلايبهُ (١)
ولو كان هذا الأمرُ في غيرِ مدِّكم لأداهُ لى أو غصَّ بالماء شاربه
وكم من أب لى يا معاوى لم يكن أبوك اذى من عبدِ شمسٍ يُقاربه

وقد صادف هذا الطمّوح وهذا الشعور بالامتياز من طبع الفرزدق خشونة وجفاء. فبلغ به حد الجنون والمرض. فهو لا يرى أن قبيلته ستجد من يملأ فراغه ریحل محلّه إن مات :

ألا ليت شعرى ما تقول مجاشع إذا قال راعى النيبِ أودى الفرزدق

(١) الحلاب جمع حلة بفتح الحاء وسكون اللام وهى الدفعة من الخيل فى الزهان .
القليل حلايبه أى الضئيف .

ألم أك أ كفيها وأحمى ذمارها . وأبلغ أقصى ما به متعلق
ويقول مفاخرأ بتحمل غرامات قومه :

أرى كل جانٍ من تميم إذا جنى لهم حَدَثًا كانت على جرائره
وقد علم الجانون أن ابنَ غالبٍ لكلِّ ديمٍ قالوا هرقناه غارمه
وهو لا يدع الفخر بنفسه بين أيدي الملوك والأمراء حين يمدحهم
يقول في قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز وهو والى الحجاز :

وقوم أبوم غالبٌ أنا ما لهم وعام تمشى بالفراء أرامله
ومجد أذود الناس أن يَلْحَقُوا به وما أحدث أو يبلغ الشمس - نائله
أنا الخنذرفي الخنظلي الذي به إذا جمعت ركبان جمع منازله
أرى كل قوم وددٌ أكرمهم أبابا إذا ما اتنى لو كان منّا أوائله
بل هو يقرن نفسه به حين يقول :

إليك ابن ليلى يا ابن ليلى تجوزت فلاة ودوايبا ديفانا مناهله^(١)

ويند مع جرير على يزيد بن عبد الملك ، وبين يديه بديعة له ، فيقول له
الفرزدق : إن يكن دارم يضرب فيها فهي أكرم العرب^(٢) .

ويقول في قصيدة يمدح بها مسمع بن المنذر بن الجارود .

لها سورةٌ كان المعلى بنى لها مكارم ما كانت يدان تنالها
من الناس إلا من قریش ودارم إذا سبق الأيدي القصار طواها
وقد ظل الفرزدق زمانا وهو ممتنع على خلفاء بني أمية ، يمدحهم من
بعيد ، ولا يرحل إليهم . وقد كان سليمان أول من رحل إليه من ملوكهم ،

(١) ليلى أم عمر بن عبد العزيز ، واسم جدة الفرزدق لامية ليلى كذلك . الفلاة
والداوى والدوى والدو كلها أسماء للصحراء . دفان المناهل أى مطه سنة من شدة الرياح
بها . فالسافر فيها لا يجد حاجته من الماء .

(٢) الأغاني ١٩ : ٧

فهو يقول في أول قصيدة مدحه بها :

فلو كان لي بالشلم مثل الذي جبتُ
ثقيفٌ بأمصار العراق وأكثرا^(١)
فقبل آتته لم آتته الدهر ما دعا
حامٌ على ساقٍ هديلاً فقرقرا^(٢)
تركتُ بني حربٍ وكانوا أئمةً
ومروانَ لا آتيةً والمتخيراً
أباك . وقد كان الوليدُ أرادني
ليفعل خيراً أو ليؤمنَ أوجراً^(٣)
فما كنتُ من نفسي لأرجلَ طائماً
إلى الشام حتى كنتَ أنتَ المؤمراً
فخبكُ أغشاني بلاداً بغيضةً
إلى وروميّاً بعُمانَ أقشرا^(٤)
وهو لا يرى لنفسه وقبيلته كفووا إلا قريشاً . يقول :

وليس بعدل إن سببتُ مقاعيساً
بأبائي الشِّم الكرام الخضارم
ولكنَّ عدلاً لو سببتُ وسبني
بنو عبد شمس من منافٍ وهاشم

ويقول لابن الزبير ، حين احتكمت إليه النوار لحكم لها ، وتعرض الفرزدق بعد ذلك لابن الزبير بشعر أذنبه ، فقال له : يا ألام الناس ! هل أنت وقومك إلا جالية العرب ؟ يقصد بذلك إجلاء تميم عن تهامة قبل الإسلام بمائة وخمسين عاماً لو ثوبهم على البيت واستلابه . فأجاب الفرزدق بأبيات بدأها بقوله^(٥) :

فإن تغضبَ قريشٌ ثم تغضبُ
فإن الأرضَ ترعاها تميم

(١) مثل الذي جبت ثقيف يقصد الحجاج بن يوسف لأنه من ثقيف . يقول لو كان لي في الشام مثل ما يبجي الحجاج من مال العراق ما آتيتها . وإعما جئت من أجلك .

(٢) القرقررة صوت ترجيع الحمام وهديله .

(٣) الأوجر الخائف الوجل .

(٤) عمان من أعمال دمشق . سميت باسم عمان بن لوط عليه السلام . الاقشرا الاحمر

(٥) الاغانى ٩ : ٣٢٨

بل إنه لا يعدل بقميائه شيئا، ولا يرى لهم كفؤا أو نظيراً . فلو لام
لضاع الإسلام والمسلمون :

وأفضل من يمشى على الأرض حيناً وما ضمنت في الذاهبين قبورها
لنا دون من تحت السماء عليهم من الناس طرا شمسهما وبدورها
أخذنا بآفاق السماء عليهم لنا برها من دونهم وبجورها
ولو أن أرض المسلمين يحوطها سوانا من الأحياء ضاعت نفورها
لنا الجن قد دانت وكل قبيلة يدين مصلوها لنا وكفورها
ويقول :

ولو أن أمّ الناس حواء حاربت تميم بن مرّة لم تجد من يُجبرها
وقدم على يزيد بن عمير الأسدي — وكان على البصرة — فوقف على
بابه ، فأبطأ في الأذن له . فغضب الفرزدق وانصرف قائلاً :

ألم يك من نكس الزمان على أسنه وقوفى على باب الوقاح أزاوله
فإن يك شرطياً فإني ابن غالب إذا جمعت زكبان فجع منازلهُ
وكان الفرزدق يتكلف في حياته مظهر السادة ، فكان لا يرى إلا متقناً
— وكان القناع من سيما الرؤساء — قال الجاحظ : والقناع من سيما الرؤساء
والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجة القاطعة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان لا يكاد يرى إلا مقنناً (١) .

يقول له جرير :

وتقول ظبية إذ رأتك مقنناً أنت الخبيث عمامة وإزارا

ويقول له :

وتقول جعثن إذ رأتك مقنناً قُبِّحت من أسدٍ أبي أشبال

وقد كثرت الروايات واضطربت الأقوال في ميل الفرزدق السياسي ،
فبعض هذه الروايات يصوره أموياً مروانياً ، وبعضها يصوره شيعياً .
ويستطيع الباحث أن يجد لكل هذه الروايات ما يؤيدها من شعره . فما
يصور زبيرته ، قوله يؤنب مالك بن مسعم بن شيبان بن شهاب لفراقه قومه
- وكانوا زبيرية - وانضوائه لآل مروان :

عجيتُ لأقوامٍ تميمٌ أبوم وهم في بني سعدٍ عراضُ المباركِ
وكانوا سراً الحى قبل مسيرهم إلى الأزدي مُصفاً لحاها ومالكِ
ونحن نفينا مالكا عن بلادنا ونحن فقأنا عينه بالنيازكِ
فما ظنكم يا ابن الحواريِّ مُصعبِ إذا اقرت من أنيابه غيرَ ضاحكِ
أبا حاضر إن يحصر البأس تلقى على ساجحٍ إيزيمه بالسناكبِ
وما يصور تشيعه ، القصيدة المشهورة التي تنسب إليه في مدح علي بن
الحسين . وينكر بعض المؤرخين نسبتها إليه .

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلُّ والحرم
ويؤيد ذلك ما يروى عن تشيع أبيه وعمه أعين - أبي النوار - (١) أما
الشعر الذي يصور مروانته فهو كثير يملأ ديوانه . وهو في رأينا لا يدل على
شيء ، لأن كل الشعراء كانوا يمدحون الأمويين في ذلك الوقت ، عن رغبة
أورهة .
وإذا تتبعنا سياسته العصبية ، وجدناه يؤيد قبيلة كلب المعروفة بعصبيتها
الأموية في مثل قوله :

إذا انتجعت كلبٌ عليكم فكُنوا
لها الدار من سهلِ المَبَاءَةِ والشربِ (٢)

(١) الاغانى ١٩ : ٦ - نقائض جرير والاخلط ٢٠٢

(٢) الاتجاج طلب الكلاء والمرعى . المباءة المنزل :

فأبهم الأحلافُ والغيثُ مرَّةً

يكون بشرقٍ من بلادٍ ومن غرب

أشدَّ جبالٍ بين حبيْنِ مرَّةً

جبالٌ أُمِرَتْ من تميمٍ ومن كلبٍ (١)

وقوله :

وإنَّا وكلبًا إخوةٌ بيننا عرَى من العقْدِ قد شدَّ القوى من يُغيرها

فمن يأتنا يرجو تفرُّقَ بيننا يُلاقِ جبالا دون ذاكِ وُعُورها

تُجبر على كلبٍ فيمضى جوارنا ويَعقد من كلبٍ علينا مجبرها (٢)

ويهاجم قيسا مهاجمة صريحة في مثل قوله :

رمى الله فيما بين قيسٍ وبيننا على كلِّ حالٍ بالعداوة والبعد

وزادهم رَغماً وعضتْ رقابهم بأيدي تميمٍ مُصلتَابٌ من الهند

ولكنه يعتز بهم ويربط بينهم وبين قومه في مواضع أخرى فيقول :

إذا خندفٌ بالأبطحين تغطرتُ ورأى وقيسٌ ذيلتُ بالمشرقِ

فما أحدٌ إلَّا يرانا أمامه وأربابه من فوقه حين نلتقى

ومن يلقِ بحرَيْنا إذا ما تناطحا بخندفٍ أو قيسٍ بنِ عيْلانٍ يفرِّقُ

ها جبالا الله اللذان ذرأهما مع النجم في أعلى السماء المحلَّتِي

فتحنا بإذن الله كلَّ مدينةٍ من الهند أو بابٍ من الروم مغلَّتِي

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء النوة : أمر الجبل أجاد قتله : يقول إن الحلف

الذي بين قومه وبين كلب قوى متين

(٢) يقول إذا أجرنا كان لجوارنا حرمة عند كلب . وكذلك هي تميم علينا فننغد

ما عفدت ونحترم جوارها .

ويقول :

إِذَا زَحَرَتْ قَيْسٌ وَخِنْذِرٌ وَالتَّقِي صَمِيحَاهَا إِذْ طَاحَ كُلُّ صَمِيحٍ
وَمَا أَحَدٌ مِنْ غَيْرِهِمْ بِطَرِيقِهِمْ مِنْ النَّاسِ إِلَّا مِنْهُمْ بِمُقِيمٍ
إِذَا مَضَرَ الْحَمْرَاءُ يَوْمًا تَعَطَّفَتْ عَلَيَّ وَقَدْ دَقَّ اللَّجَامُ شَكِيحِي
أَبُو أَنْ أَسْوَمَ النَّاسَ إِلَّا ظَلَامَةً وَكُنْتُ ابْنَ ضِرْغَامِ الْعَدُوِّ ظَلُومِ

ويهاجم اليمينية متعصبا لقيس ، حين قتل المنذر بن الجارود عمر بن يزيد الأسيدي . ويبلغ من عنفه في ذلك ، أن يهاجم الخليفة هشام بن عبد الملك ، الذي يحمى هذا الحزب اليميني ويتهدده .

فَقَنَّ مَبَاغُ بِالْشَامِ قَيْسًا وَخِنْذِفَا أَحَادِيثَ مَا يُشْفَى بِبِرِّ سِقَامُهَا
أَحَادِيثَ مَنَا نَشْتَكِيهَا إِلَيْهِمْ وَمُظْلَمَةٌ بَغْشَى الْوَجُوهَ ظَلَامُهَا
فَإِنْ مِنْ بَهَا لَمْ يُنْكَرِ الضَّمِيمَ مِنْهُمْ فَيَغْضَبُ مِنْهَا كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا
يَهْدُ مَثَلُهَا مِنْ مَثَلِهِمْ فَيُنْكَأُوا فَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَوْرِ كَيْفَ انْتِقَامُهَا
بِغَلْبَاءِ مِنْ جُمْهُورِهَا مُضْرِبَةٌ تُزَايِلُ فِيهَا أُذْرَعُ الْقَوْمِ لَامُهَا
فَفَيْزُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَانْهَابُهَا يَمَانِيَةٌ حَمَقَاءُ أَنْتَ هِشَامُهَا

والواقع أن مثل هذه الروايات المتنافرة ، وهذا الشعر المتناقض ، يسهل فهمه إذا لم نانس ماقررنا من أن الفرزدق لم يكن يهب ولاءه وإخلاصه إلا لقومه من تميم . وهو بعد هذا مستقل في تفكيره السياسي — إن جاز لنا أن نستعير هذا الاصلاح المعاصر ، لذلك العصر الغابر — فهو ينقد كل شيء ، ولا يتمسك بتأييد الدولة في كل سياستها ، ولكنه يهاجمها حين يبدو له أن الولاية لا يسيرون سيرة عادلة ، وحين يرى أن سياسة الدولة أو الحكام ، تعارض مع تميم .

وبينما نجد جريرا في مدائحها يكثر من الشكوى ، ويبالغ في وصف
بؤسه وفقر أهله ، استدراراً للعطف ، واستكثاراً من العطاء ، نجد الفرزدق
لا يتوسل إلى ممدوحه إلا بكرمه ونسبه ، فهو يسألهم في إباء وترفع . يمدح
عبد الرحمن بن عبد الله بن شيبه الثقفي - وأمه أم الحكم ابنة أبي سفيان - فيقول :

وما ساقها من حاجةٍ أجهفتُ بها إليك ولا من قلةٍ في مجاشع
ولكنها اختارتُ بلادك رغبةً على ما سواها من ثنايا المطالع^(١)

ويمدح الوليد بن عبد الملك ، فلا يتوسل إليه بفقره كما يفعل جرير ، ولكنه
يتوسل إليه بشرفه قائلاً .

أغنى بكنهي من نزارٍ ومقبلي فإني كريمُ المشرقين وشاعره

وهو يفرض نفسه على الناس ، فيطالبهم وكأنه يجبي ضريبة مفروضة
يدفعونها اتقاء شره . كانت مية بنت الصلت بن حريث بن جابر الحنفي تعطيه
في كل سنة خمسمائة درهما ، فلم يزل يجيء إليها مطالباً بها ، حتى خرج إليه ابن
أخ لها فطرده^(١) . وأتى خالد بن عبد الله القسري ، يستحمله في ديات حملها
فقال له : إيه يافرزدق ! كأنى بك قد قلت : آتى الحائك ابن الحائك^(٢) ،
فأخذ من ماله إن أعطاني ، أو أذمه إن منعتي . فأنا حائك ابن حائك ولست
أعطيك شيئاً ، فاذمني كيف شئت . فهجاه الفرزدق بشعر كثير منه :

ليتنى في بجيلة اللؤم حتى يُعزَلُ العاملُ الذي بالعراق^(٤)

فاذا عاملُ العراقيين ولى عدتُ في أسرة الكرام العتاق

(١) وما ساقها الضمير يعود إلى ناته : الثنايا جمع نهي بكسر الفاء وسكون اللام
وهو المنعطف في الجبل .

(٢) ديوان الفرزدق ٣٩٤

(٣) الحائك بن الحائك ، لأنه يعني واليمين تعبيراً باحتراف الحياكة والملاحة . والعرب

تحقر أصحاب الصناعات كما قدمنا :

(٤) بجيلة قبيلة يمنية ينتسب إليها خالد بن عديلة القسري والى العراق :

كان الفرزدق مغروراً شديداً الاعتداد بنفسه . وقد جعله هذا الضرور عياباً للناس ، لا يعجبه شيء ، لأنه لا ينظر إليهم إلا مستخفاً ، ولا يراهم إلا دونه . وهو من هذه الناحية يشبه المتنبي شهاً كبيراً . كان الفرزدق يحس امتيازه بأبائه وأجداده إلى حد الجنون ، وكان المتنبي يحس امتيازه بمواهبه ، ويغلو في تقديرها إلى حد الهوس والخيال . وقد أسرف المتنبي في هجماء الناس حتى قتله الهجماء ، وأسرف الفرزدق في الهجماء فعرضه ذلك لشراً متصل ، فلم يكن إلا سجيناً أو فاراً من السجن ، لا جناً إلى من ينفذه منه . وقد ساءت علاقته بكل ولاية العراق ، ولم يسلم من هجمائه منهم أحد . هجا زياد بن أبيه ، وظل طول حياته فاراً منه ، لم يستقر حتى مات . ثم هجا الحجاج من بعده ، وهجا عمر بن هبيرة ، وهجا خالد بن عبد الله القسري بل لقد هجا الخليفة هشام بن عبد الملك ، حين حج معه فلم يعطه إلا خمسمائة درهم ، فقال فيه :

يُرَدُّ ذُنِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالْتِي إِلَيْهَا قُلُوبُ النَّاسِ يَهْوِي مُتَيْبُهَا
يُقَلِّبُ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ خَلِيفَةً مَشْوَهَةً حَوْلَاءِ بَادِي عَيْبِهَا^(١)
وقال فيه :

لَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُكُمْ وَبِئْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هِشَامُ
تَنَائِكُ عَيْنَاهُ إِذَا مَا لَقِيْتَهُ تَبَيَّنَ فِيهِ الشُّؤْمُ وَهُوَ غَلَامُ
وقال لزياد حين تهدده ، لهجمائه بني ققيم ، فهرب منه إلى سعيد بن العاص بالحجاز :

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ عَنِي زِيَادَا بَأْنِي قَدْ لَجَأْتُ إِلَى سَعِيدِ
وَأْنِي قَدْ فَرَرْتُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ إِلَى ذِي الْمَجْدِ وَالْحَسْبِ التَّلِيدِ

(١) كان هشام بن عبد الملك أحول .

قَرَارًا مِنْ شُدِّيمِ الْوَجْهِ وَزُدْمِ يُفِزُّ الْأَسَدُ خَوْفًا بِالْوَعِيدِ (١)
فَإِنْ شُتُّ انْتَسَبَتْ إِلَى النَّصَارَى وَإِنْ شُتُّ انْتَسَبَتْ إِلَى الْيَهُودِ
وَإِنْ شُتُّ انْتَسَبَتْ إِلَى فُقَيْمٍ وَنَاسَبْنِي وَنَاسَبْتُ الْقُرُودُ (٢)
وَأَبْغَضُهُمْ إِلَى بَنُو فُقَيْمٍ وَلَكِنْ سَوْفَ آتَى مَا أُرِيدُ
وَقَالَ يَهْجُو الْحِجَااجَ وَيَتَهَدَّدُ الْأُمُويِينَ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ :

إِنْ تَنْصَفُونَا يَا لِمَرْوَانَ تَقْتَرِبُ إِلَيْكُمْ وَإِلَّا فَادْنُوا بِيَعَادِ
فَإِنَّ لَنَا عَنْكُمْ مَرَاحًا وَمَذْهَبًا بَعِيسٍ إِلَى رِيحِ الْفَلَآةِ صَوَادِي
مُخَيَّسَةً بَزْلٍ تَخَايَلُ فِي الْبُرَى سَوَارٍ عَلَى طُولِ الْفَلَآةِ غَوَادِي (٣)
وَفِي الْأَرْضِ عَنْ ذِي الْجَوْرِ مَنَائِي وَمَذْهَبٌ وَكُلُّ بِلَادٍ أَوْطَنْتُ كِبِلَادِي
وَمَاذَا عَسَى الْحِجَااجُ يُبْلِغُ جَهْدَهُ إِذَا نَحْنُ جَاوَزْنَا حَفِيرَ زِيَادِ
فَبَاسْتِ أَبِي الْحِجَااجِ وَأَسْتِ عَجُوزِهِ عَتِيدُ بَهْمٍ تَرْتَعِي بُوَهَادِ (٤)
وَقَالَ فِي عَمْرِ بْنِ هَبِيرَةَ الْفَزَارِي ، حِينَ وُلَاهُ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعَزَلَ أَخَاهُ
مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ .

وَلْتُ بِمَسْلَمَةَ الرِّكَابُ مَوْدَعًا فَارَعَى فِزَارَةَ لَا هُنَاكَ الْمَرْتَعُ

(١) شديم الوجه كرهه . والشديم أيضا الأسد العابس . ورد هنا صفة بمعنى جرى .
يفز الأسد أي يفزعها .

(٢) في هذا البيت والبيت الذي يليه إقواء وهو .مدود من عيوب القافية . فالدال
هنا .مضمومة ، وهي في الأبيات السابقة مكسورة .

(٣) مخيصة محبوسة لا تروح ، تلف وهي في أماكنها لا تبرحها لتسمن وتشد . البازل
من النوق التي بزل ناهبا أي ظهر . البرة حلقة توضع في أنف البعير إذا كان غنيفا هائجا
تم تربط إلى جبل فاذا شد به البعير انقاد ولم يستطع المقاومة . تخايل في البري يكتنى بذلك
عن قوتها وشدة نشاطها .

(٤) عتيد .صغر عتود وهو الحولى من المز .

ولقد علمتُ لئن فزارةُ أُمرتُ أن سوف تطمَعُ في الإمارة أشجعُ
إن القيامةَ قد دنتُ أشراتها حتى أمةٌ عن فزارة تُنزَعُ
ثم قال فيه :

أميرَ المؤمنين وأنت وال شفيقٌ لستَ بالطبع الحريص^(١)
أأطعتَ العراقَ ورافديه فزارياً أحدَّ يدِ القميص^(٢)
ولم يك قبلها راعي مخاضٍ ليأمنه على وركي قلوُص^(٣)
تفهبقُ بالعراق أبو المنثى وعلممَ قومه أكلَ الخبيص^(٤)
ستحمله الدنيئةُ عن قليلٍ على سيِّسَاء زعلبةِ قَبُوص^(٥)

وقال حين ولى خالد القسرى ، مشيراً إلى هدمه منائر المساجد ، وكان قد
هدمها لصعود الناس إليها ونظر الناس إلى الجيران .

ألا قطع الرحمنُ ظهرَ مطيةٍ أتتنا تَمطى من دمشق بخالد
وكيف يؤم المسلمين وأمه تدين بأن الله ليس بواحد^(١)
بني بيعةً فيها الصليب لأمه - وهدم من كفرٍ منارَ المساجدِ

(١) الطبع الشديد الطمع .

(٢) رافداه دجلة والفرات . أخذ يد القميص ، لم يرد القميص وإنما أراد يده .
أى لس قطعت يده في الحد .

(٣) أبو المنثى كنية يكنى بها الخنثون من الرجال . الخبيص لون من الطعام يصنع
من التمر والسمن . تفهبق في كلامه تنطع وتشدق كأنه يملأ فمه به .

(٤) الدنيئة الفعل الحسيس . السيِّسَاء منتظم فقار الظهر من الفرس والحمار . القموص
الدابة التي تَقمص بصاحبها ، وذلك بأن ترفع يديها وتفرحها وتمجن برجليها . الذعلبة
الناقة السريعة يقصد بذلك أن دناءته ستحمله على مركب صعب .

(٥) كانت أمه نصرانية .

وقال فيه حين حفر النهر الذي سماه المبارك ،

أهلكت مال الله في غير حقه على نهرك المشوم غير المبارك

وتضرب أقواماً صحاصاً ظهورها وتترك حق الله في ظهر مالك^(١)

أإنفاق مال الله في غير كونه ومنعاً لحق المرملات الضوانك

وقال متشفياً في جلده ، حين غضب عليه سليمان بن عبد الملك ، فأمر به

أن يجلد ، وذلك لجلده رأس الحجة — وكان قرشياً — فأخذت سليمان الحمية

له ، وغضب حتى هم بقطع يده ، لولا شفاعة يزيد بن المهلب فيه .

لعمري لقد صابت على ظهر خالد شأيب ما استهلكن من سبل القطر^٣

أتضرب في العصيان تزعم من عصا وتعصى أمير المؤمنين أخاصر؟

وأنت ابن نصرانية طال بظرفها غدتك بأولاد الخنازير والخمر

فلولا يزيد بن المهلب حلقت بكفيك فتخاه إلى الفتخ في الوكر^(٣)

لعمري لقد سار ابن شيبه سيرة أرتك مجوم الليل ظاهرة تجرى^(٤)

فخذ بيديك الحنف إنك إنما جزيت قصاصاً بالمحدرة السمره

أظنك مفجوعاً بربع منافق^(٦) تلبس أثواب الخيانة والغدر

(١) يقصد مالك بن المنذر بن الجارود . وكان بعض الناس قد ادعى عليه قرية ،

فأبطل خالد حقه .

(٢) الشأيب الدفعات من المطر ينهل مرة بعد مرة ، وشؤبوا بعد شؤبوب . انهل

السماء بالمطر واستهلت وهو صوت المطر . أسبل المطر انهل . والسبل المطر المسبل .

(٣) الفتخ اللينة الجناح والفتخ فراخها . يقول له لولا شفاعة يزيد لقطع الخليفة

يدك فتخطفتها العقبان تطم بها صفارها .

(٤) ابن شيبه هو الحجبي الذي ضربه خالد مائة سوط لانه لم يفتح له الباب وتعاقل :

(٥) المحدرة المتولة . ويقصد بالمحدرة السمر السياط .

(٦) ربع منافق يعنى يده وكأنها ربع جسده لأن للانسان يدين ورجلين ، فاذا قطعت

منها يد فقد ربع أطرافه .

وقال فيه .

سلا خالداً لا أكرم اللهُ خالداً متى وليتُ قسرهُ قريشا تُدِينُهَا
أقبلَ رسولَ الله أم بمدى عهده فملك قريشُ قد أعتُ سمينُهَا
رجونا هداه لا هدى الله خالداً فما أمه بالأم يُهدى جنينُهَا
وبلغ من جرأة الفرزدق على الولاية ، أنه دخل على بلال بن أبي بردة ، فأنشده
قصيدته المشهورة فيهم ، التي يقول فيها .

فإن أبا موسى خليل محمد وكفاه يمينى للهدى وشمالها

فقال ابن أبي بردة : هلكتَ والله يا أبا فراس . فارتاع الفرزدق وقال :
وكيف ذلك ؟ قال : ذهب شعرك . أين مثل قولك في سعيد وفي العباس بن
الوليد . — وسمى قوماً — فقال الفرزدق : جئني بحسب مثل أحسابهم حتى
أقول فيك كقولى فيهم . فغضب بلال حتى دعى له بطست فيه ماء بارد ، فوضع
يده فيها حتى سكن . ثم كلبه فيه جلساؤه وقالوا : قد كفاك الشيخ نفسه ، وقبلها
يبقى حتى يموت . فلم يحل الحول على الفرزدق حتى مات (١) .

ولكن هذا الغرور الجنونى والكبرياء الجاحمة ، كان يقابلها ضعف
شديد عن احتمال المكاره والضمود للكفاح . فتصى الفرزدق حياته خائفاً ،
وكان شعره مزاجاً من هذين المرضين الخطيرين — شعور بالعظمة وشعور
بالرهبة والخوف . وخير ما يمثل هذا اللون من الشعر ، الذى هو مزاج من
الشعور بالرهبة والشعور بالعظمة ، قوله وهو فى سجن خالد القسرى ، يتوسل
إلى هشام أن يطلقه ويأمر بالعفو عنه :

دعوتُ أمينَ الله فى الأرض دعوةً ليفرجَ عن ساقى خيرَ الخلائف

فيا خيرَ أهل الأرض إنك لوترى بساقى آثارَ القيودِ النواسف (٢)

(١) الأغاني ١٩ : ٣٥

(٢) النواصف التي قد نسفت الجلد والشعر .

إِذَا لَرَجوتُ العَفوَ منك ورحمةً وعدلَ امامٍ بالرعيمةِ رائفِ
 فَإِنَّ أَكَّ محبوساً بغيرِ جريرةِ فقد أخذوني آمناً غيرَ خائفِ
 وما سنوني غيرَ أَنِّي ابنُ غالبِ وَأَنِّي من الأثريينَ غيرِ الزعانفِ (١)
 وَأَنِّي الذي كانت تُعدُّ لثغرها تميمٌ لأبياتِ العدوِّ المقاذفِ
 وكم من عدوٍّ دونهم قد فرستهُ إلى الموتِ لم يسطعْ إلى اللِّيمِ رائفِ
 وإني لأعداءِ الخنادفِ مدرةُ بدخْلِ غنيٍّ بالنوائبِ كالفِ
 لجامُ شجتي بين اللهاتينِ من يقعِ له في فمِ يركبُ سبيلَ المتألفِ
 وإن غبتُ كانوا بينِ راوٍ ومحتبِ وبينِ معيبِ قلبه بالشنائفِ (٢)
 وبالأمس ما قد حاذروا وقعَ صوتي فصيَّفَ عنها كلُّ باغٍ وقاذفِ (٣)
 وقد علم المقرونُ بي أنَّ رأسه سيذهبُ أو يُرمى به في النِّفانفِ (٤)
 أرى شعراءَ الناسِ - غيري - كأنهم بمكةِ قُطَّانُ الحمامِ الأوالفِ
 ولو كنتُ أخشى خالداً أن يروعي ليطرتُ بوافٍ ريشه غيرِ جادفِ (٥)
 كما طرتُ من مصرى زيادٍ وإنه لتصرفُ لي أنيابه بالتألفِ
 وما كنتُ أخشى أن أرى في مخيس قصيراً الخطأ ميثى كمشى الرواسفِ

- (١) الأثريين جمع الأثرى وهو الكثير العدد . أصل الزعانف أجنحة السمك ثم أطلقت على الدّعى الملتصق الذي ليس بصريح النسب .
- (٢) يقول إنهم - مع سابق صنيعي - إن غبت كانوا بين راوٍ لهجأى أو محتب يسمع ماهجيت به أو مضمهر للشحناء . والشنائف البفضاء والفعل شنف له وشنفة .
- (٣) صيف و صاف أى عدل عنها .
- (٤) النفف الجبل القائم كأنه الحائط . أو هو المهوى بين جبلين .
- (٥) جدفه قطعه . وجدف الطائر طار وهو مقصوص الجناحين .
- (٦) التخيس التذليل والمخيس السجن لأنه يدل .

أبيت تطوف الزُّطَّ حولي بِجُلُجُلٍ على رقيبٍ منهم كالمُحَالِفِ (١)
وقد كان الفرزدق لا يدعى إلى وال أو أمير إلاخاف وتوقع الشر .
عبث به رجلان فقالا له : أجب . الأمير يدعوك — وهما يلعبان معه —
فهرب وترك رداءه معهما . ثم قال فيهما :

وما كنتُ لو فرقتماي كلاكما بأمكما عريانتين لأفراقا
واكنما فرقتماي بضيم إذا ما رأى قرناً ابنٌ ودقدا (٢)
وكان خوفه الشديد يلجئه في كثير من الأحيان إلى التقرب من الشرط
فيمدحهم بشعر غث ضعيف استجلاباً لرضاهم (٣) وهو بعد هذا كثير
ذكر الخوف في شعره . وخير ما يتصوره في ممدوحيه من الفضائل ونبيل
الصفات ، أنهم يؤمنون الخائفين . ولم تسكد مدحة من مدائمه تخلو من طلب
الأمان أو الحماية .

يتول لبشر من قصيدة يمدحه فيها .

لو أننى كنتُ ذا نفسين قد هلكت إحداهما كانت الأخرى لمن غيرا
إذن لجئتُ على ما كان من وجلي وما وجدتُ حذاراً يغاب القدرا
كلُّ أمرئٍ آمنٍ للخوف أمنهُ بشرُ بن مروان والمذعورُ من دَعْرَا
ويقول في مدح الوليد بن عبد الملك .

وكم من كريم يشتكى ضعفَ عظمه أقمتَ له ما يشتكى بالسقائف (٤)
وآمنته مما يخاف إذا أوى إليك فأمسى آمناً غيرَ خائف

(١) الزط هم السباجمة وهم قوم من السند كانوا بالبحرة جلاوزة (جمع جلاوز
وهو الشرطي) وحراس سجن . الجلجل الجرس الصنير والجلجلة التحريك وشدة الصوت
(٢) ابن أقام . دقق سمع له صوت وجلبة .

(٣) الديوان ص ٦٦١ و ٨٧٦ .

(٤) السقائف ، الجبائر التي يوضع فيها العضو المكسور .

ويقول في مدح سليمان بن عبد الملك .

سليمانُ غيْثُ المُمحلين ومَنْ به عن البائس المسكين حُلَّتْ سلاسه
ويقول في مدح يزيد بن عبد الملك :

ولا جارَ بعد الله خيرٌ من الذي وضعتُ إلى أبوابه رَحْلَ خائف
إلى خيرِ جارٍ مُستجارٍ بجبله وأوفاهُ حبلاً للطريد المُشارف^(١)
ويمدح المهلب فيقول :

كان المهلبُ للعراق وقايةً وحيا الربيعِ ومَعْقِلَ الفُرار^(٢)
ويمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك بقوله :

من يأت رابيةَ الوليدِ ودِفْقَها من خائفٍ لجريرةٍ لا يُضَرِّرُ
ويمدح أسد بن عبد الله القسري لإنقاذه من سجن خالد فيقول :

رمى بي إليه الخوفُ حتى أتيتهُ وقد بَمِنَعُ الحامى إذا ما تمنَّما
به حطم الله القيودَ وأومنتُ مخافةً نفسٍ طومنتُ أن تَفزَّعا
فما ينجي لا أخش العدوَّ ولا أزلُّ على الناس أعلو في ذُرَى المجدِ فَمَرَّعا

وشعر الفرزدق الذي صور فيه خوفه وحاله في السجن من أروع الشعر
وأجمله . يقول للوليد بن عبد الملك مصوراً خوفه من الحجاج .

وقد خفتُ حتى لو أرى الموتَ مُقبِلاً ليأخذني والموت يكرهُ زائرُهُ
لكان من الحجاج أهونَ روعةً إذا هو أغضى وهو سامٍ نواظرُهُ
أدبٌ ودوني سَيْرُ شهرٍ كأنني أراكَ وليلٌ مستحيرٌ عساكرُهُ^(٣)

(١) المشارف الذي أشرف على الهلاك .

(٢) الحيا هو المطر .

(٣) عساكره ظنمته واستعارتها ثبوتها .

ذَكَرْتُ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ مَا رَمَى بِي مِنْ نَجْدَيْ تَهَامَةَ غَاثِرُهُ
فَأَيَقُنْتُ أَنِّي إِنْ نَأَيْتُكَ لَمْ يَرِدْ بِي النَّأْيُ إِلَّا أَكَلْتُ شَيْءًا أُحَاذِرُهُ
وَأَنْ لَوْ رَكِبْتُ الرِّيحَ ثُمَّ طَلَبْتَنِي لَكُنْتُ كَسْتَيْءٍ أَدْرَكْتُهُ مِقَادِرُهُ
فَلَمْ أَرِ شَيْئًا غَيْرَ إِقْبَالِ نَاقَتِي إِلَيْكَ وَأَمْرِي قَدْ تَعَيَّتْ مِصَادِرُهُ
وَمَا خَافَ شَيْءٌ لَمْ يَمُتْ مِنْ مَخَافَةٍ كَمَا قَدِ اسْرَرْتُ فِي فَوَادِي ضَمَائِرِهِ
أَخَافُ مِنَ الْحِجَاجِ سُورَةَ خَدْرِ ضَوَارِبِ الْأَعْنَاقِ مِنْهُ خَوَادِرُهُ
وَيَقُولُ مِصُورًا رَهْبَةَ الْحِجَاجِ فِي نَفُوسِ النَّاسِ .

إِذَا مَا بَدَأَ الْحِجَاجُ لِلنَّاسِ أُطْرَقُوا وَأَسْكَبَتْ مِنْهُمْ كُلُّ مَنْ كَانَ يَنْطِقُ
فَمَا هُوَ إِلَّا بَائِلٌ مِنْ مَخَافَةٍ وَآخِرُ مِنْهُمْ ظَلٌّ بِالرِّيقِ يَشْرُقُ
وَطَارَتْ تَلُوبُ الْأَسِّ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فَمَا النَّاسُ إِلَّا مُهْجِسٌ أَوْ مُلْتَقِلٌ (١)
وَيَقُولُ لِمَالِكِ بْنِ الْجَارُودِ مِصُورًا حَالَهُ فِي سَجْنِ خَالِدٍ ، مَتَبَّرًا مِنْ هِجَاثِهِ
وَإِذَا حُمِلْتُ إِلَى الصَّلَاةِ كَأَنِّي عَيْبٌ يَمِيلُ بِعَدْلِهِ الْمَعْدُولُ
يَمْشِي الرِّجَالُ بِهِ عَلَى أَيْدِيهِمْ اللَّهُ دَرٌّ مَقِيدٌ مَحْمُولُ
إِنْ الْقِرَى سُجِنَتْ مَعِيَ زَيْرَانُهُ عَنْ كُلِّ نَازِلِ جَنْبَةٍ وَدَخِيلِ (٢)
قَدْ كُنْتُ أُطْرِمُهُنَّ كُلَّ سَمِينَةٍ لِلطَّارِقِينَ بِأَسْرَعِ التَّعْجِيلِ
يَا مَالِرُ هَلْ لَكَ فِي أَسِيرٍ قَدْ أَتَتْ تَسْعُونَ فَوْقَ يَدَيْهِ غَيْرَ قَلِيلِ (٣)
فَتَجَزَّ نَاصِيَتِي وَتَفْرَجُ كُرْبَتِي عَنِّي وَتَطْلُقُ لِي يَدَاكَ كُبُولِي (٤)

(١) الهجس الصوت الحفي تسمعه ولا تفهمه . اللقطة اضطراب الصوت .

(٢) الجنبه الضيف الذي ينزل في ناحية من البيت . والدخيل الضيف الذي ينزل داخل

البيت .

(٣) يامال يخاطب مالك بن الجارود . مال ترخيم مالك .

(٤) يطلب منه الفرزدق أن يقص شعر رأسه ويطلقه . وجز الناصية عند العرب

فيه معنى الازدلال . وكذلك كانوا يفعلون بأسراهم إذا منوا عليهم باطلاقهم .

يامال هل أنا مهلكى مالم أقلُ وليُعرفنَّ من القصائد قبلى
 ويقول له من قصيدة يمدحه بها:
 وكيف بمن خمسون قيداً وحلقةً عليه مع الليل الذى هو أدم
 أبيت أقاسى الليلَ والقومُ منهمُ معى ساهرٌ لى لا ينامُ ونومُ
 ولو أنها صمُّ الجبال تحمَّلتُ كما حملتَ رجلاى كادتَ تحطَّمُ
 وعلمنى مشىَ المقيدِ خالدُ وما كنتُ أدنى خطوهُ أتعلمُ
 أقول نرجلى اللتين عليهما عرّى وحديدٌ يجبسُ الخطو أبهم
 أما فى بنى الجارود من رايح لنا كما راح دُفَاعُ الفرات المثلّم
 ويقول أيضا مصوراً حاله فى سجن خالد ، متبرأً من هجماته ، حين احتقر
 النهر الذى سماه المبارك من قصيدة يمدحه بها .

ألا تذكرون الرحمَ أو تُقرِضونى لكم خلقاً من واسع الحلم ماجد
 يقول لى الحدادُ هل أنت قائمٌ وهل أنا إلا مثلَ آخر قاعد^(١)
 كأنى حرورىُّ له فوق كعبه ثلاثون قيداً من قرّوضٍ ملاك^(٢)
 وراوِ علىَّ الشمرَ ما أنا قلتُهُ كعترضٍ فى الرمح دون الطرائد^(٣)
 ويقول من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك :

إذا قلتُ للحراس هل ليلتى دنتُ من الصبح أو كانتْ جنوحاً نجوماً
 يقولون ما يَنْزلن إلا تنزلاً بطيناً ومسوداً علينا أديمها
 فليت مكان الأربعين التى لها بساقى آثارُ مبینةٍ وشومها

(١) الحداد السجان لأنه يحد الناس والحد النع .
 (٢) الحرورية الحوارج . قروس قيد يقرص ويعض فى الرجل . الملاك الملازم
 (٣) الطرائد جمع طريدة وهى ما طردت من وحش أو غيره . يشبه نفسه بالذى
 يعترض دون الطريدة فيصاب بالروح خطأ وليس هو بالمقصود .

أخا نجدو عندي أخوه فجعته به والمنايا جانباً حنوماً^(١)
فنازلي بالسيف عنه ودونة مع السيف خضب الأرض بادٍ شَكِيمها
كان الفرزدق أعرابياً جافياً غليظ الطبع . وتبدو هذه الغلظة وهذا الجفاء
في فنه وفي حياته على السواء . أما فنه فالخشونة بادية في ألفاظه وفي صورته .
فالكلمات تبدو في شعره قلقمة متنافرة ، وكأنه يجمعها بقوته واقتداره ، شاءت
أو لم تشأ . فهو يؤلف بينها متعسفاً ، وكأنه ينحت من صخر كما كان يقول
النقاد القدماء في تصويره . وقد كان يقول : أنا أشعر الشعراء ، وقد يأتي على
وقت وقلع ضرس أهون على من بيت شعر . وذلك صحيح . ولكننا نضيف
إليه أن الشعراء يدعون الإنشاء في مثل هذه الأوقات ، حتى تصفو نفوسهم
وتسخو قرائحهم . وهم يجعلون الرغبة في قول الشعر هي الذريعة إلى إنشائه ،
كما كان يقول أبو تمام في وصيته للبحترى . أما الفرزدق ، فقد كان يمضى مكابراً
ويجتلب الشعر من غير وجهه ، فيبدو وكأنه يقتلعه من نفسه اقتلاعاً ، أو كأنه
يقلع أضراسه على حد تصويره . ولذلك كثرت المعاطلة في شعره . انظر إلى
تراكب الألفاظ في مثل قوله حين يتبرأ بما نسب إليه في هجاء المبارك .

فلا رفعت إن كنت قلت التي رَوُوا على رِدائي حين ألبسه يدي
يريد أن يقول : فلا رفعت يدي رِدائي حين ألبسه إن كنت قلت التي
رووا على .

وفي قوله يمدح يزيد بن عبد الملك .

فلا أمٌ إلا أمٌ عيسى علمها كأُمك خيراً أمهاتٍ وأمجدا

(١) الحنوم جمع حتم بفتح الحاء وسكون التاء وهو التضاء . الجانب الذي لا ينقاد
والغريب . وجانبه مشى إلى جنبه . الحضب بكسر الحاء وسكون الضاد نوع من الحيات
أو ذكرها الضخم . الشكيم الأنفة والانتصار من الظلم . يقول ليت لي مكان هذه القيود
فارسا ينازلي نائراً لأخيه الذي قتلته فجعته به ، ينازلي بسيفه ، ومن دونه حية ضخمة
أبدت شرستها .

وفي قوله يمدح الوليد .

إلى ابن الإمامين اللذين أبوهما إماماً له لولا النبوة يُسجد

وفي قوله يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك .

تجاوزت عنهم فضلَ حلمٍ كما عفا بمسكنَ والهنديّ تملو ذكورها

أبوك جنوداً بعد ما مرّ مصعبٌ تقلدَ عنه وهو يدعو كثيرها

وانظر إلى الارتباك الذي يبدو في رثائه لمحمد بن يوسف ومحمد بن الحجاج

ابن يوسف، وقد ماتا في جمعة واحدة، على ما في الآيات من تضمين قبيح .

لئن صيرَ الحجاجُ ما من مصيبةٍ تكون لمرزوءٍ أجلٌ وأوجها

من المصطفى والمصطفى من ثقاته خليليه إذ باناً جميعاً فودعا

... فلا صبر إلا دون صبرٍ على الذي رزقت على يومٍ من البأس أشتما

على ابنك وابن الأم إذ أدركتهما ال منايا وقد أفنين عآداً وتبعا

وإلى قوله في هجاء طيء .

وما طوى إلا بجوسٍ كأنهم بهائم تملو الأمهات فحولها

وما تلکم إلا بجوسٍ نساؤها بنائهم آباؤهن بوعولها

وانظر إلى كثرة الضمائر وتراكمها واضطرابها في قوله :

ولكن أبوها من لؤي بن غالب مناف له منها من المجد كاهله

ملوكٌ وأبناء الملوك أتتهم من الله بالفرقان منه رسائله

وانظر إلى الالتواء المتعب، الذي يجعل شعره أقرب للأحاجي والألغاز

في قوله يمدح جميل بن حمران الفزاري .

أنت ابنُ أمِ امرئٍ تَنمى إذا نُسبتُ حيث انتمت بأبيها بنتُ حسانا

نالت به الشمسَ لو كادت تناولها بالمجد إن كان مجدُّه عندها كانا

لم يوهب الفرزدق ما وهب جرير من سلامة في الذوق ، وامتياز في الحس اللفظي ، فالفاظه كالصخر دائماً ، ولذلك كان أكثر ما يصادفه التوفيق إذا افتخر . انظر إلى قوله في قصيدته المشهورة (عزفت بأعشاش) حين يصور كرم قومه وقت الجذب ، كيف يصف العراصف الباتية ، فيخيل إلى السامع أن العالم قد أوشك على نهايته ، وأن الأرض قد زلزلت زلزالها ، وأخرجت أثقالها . فالسما قد اغبرت آفاقها ، والرياح الحمراء تهجم على البيوت في عنف فتتكشف ستورها . وذعرت النوق الضخمة التي امتلأ سنامها بالشحم ، فاندفعت تتبعها صغارها ، تقطع في طريقها الجبال التي شدت إليها البيوت . وشغل عنها راعيها في هذا البرد القارص ، فهو يياشر النار بصدرة وبكفيه ، لا يتحرف عنها ، ولا يحس لذعها وحرارتها . وظهر نجم الشعري في السماء ، ينذر بشتاء شديد ، وجذب يتقشر منه وجه الأرض . وبدأت الثلوج تنساقط على أسنمة الإبل ، تعلوها كأنها قطن مندوف . وأجمد البرد الكلاب ، فاندفعت إلى النار تقايل عنها أصحابها لتربض فيها . فإذا انتهى الفرزدق من هذا التصوير الرائع لشدة البرد ، وقسوة الجذب ، قال : في مثل هذه الأزمات ، تجدنا أكرم الناس وأكثرهم بذلاً للضيفان :

إذا اغبرت آفاقُ السماء وكشفتُ كسورُ بيوتِ الحى حمراء حرجفُ^(١)

وهتكت الأطناب كل عزيمة لها تارك من صادق النى أعرفُ^(٢)

وجاء قريعُ الشول قبل إفاها يزفُ وراحت خلفه وهي زففُ^(٣)

(١) آفاق السماء جوانبها . الكسور جمع كسر وهو ما وقع على الأرض من الحباء . الحرجف الريح الشديدة .

(٢) الأطناب الجبال التي يشد بها الحباء . التارك السنام العظيم ، التي الشحم . أعرف مرتفع .

(٣) القريع فعل الإبل . الشول الإبل التي جفت ألبانها . إفاها صغارها . يزف يمدو مسرعاً .

وبأشْرَ راعِيها الصُّلا بَلْبَانِهْ وكفْنِهْ حرُّ النار ما يُتَحَرَّفُ (١)
 وأوقَدَتِ الشِّعْرَى مع الليل نارَها وأمست مُحُولًا جِلْدُها يُتَوَسَّفُ (٢)
 وأصْبَحَ موضِعُ الصَّقِيعِ كأنه على سَرَوَاتِ النَّيْبِ قَطْنٌ مُنْدَفٌ (٣)
 وقاتل كلبُ الحىُّ عن نارِ أهله ليرْبِضَ فيها والصَّلَامَتَ كَنَفٌ (٤)
 وجدتَ الثرى فينا إذا يَبْسُ الثرى ومن هو يرجو فضلَه المُتَضَيِّفُ (٥)

هذا التوفيق العجيب الذى يصادف الفرزدق فى الفخر ، وفى تصوير مناظر الصحراء ، وحياة البدو ، يحافيه وينحرف عنه ، حين يتغزل أو يرنى أو يعرض لما يحتاج إلى الرقة من فنون الشعر . أنظر إلى جفاء غزله ، حين يطلب إلى صاحبه أن تديه لأنها قد قتلته ، فإن لم تفعل قتلها بالسيف .

فلم أر مقتولا ولم أر قاتلا بغير سلاح مثلها حين أقصدا
 فإن لا تُفادى أو تديه فلا أرى لها طالبا إلا الحسام المهندا
 وحين يهددها بالتخليد فى جهنم ، لأنها تسفك دمه بغير جريرة .

ياويح أختِ بنى كنانة إنها لبخيلة بشفاء من لم يجزم
 فلئن سفكت دما يغير جريمة لتُخلدِرنَّ مع العذاب الإلام

(١) الصلا النار . اللبان الصدر . يتحرف ينحرف عن النار ويحميد .

(٢) الشعرى نجم يطلع فى أول الشتاء . وأمست يعنى الأرض . محولا من المهل وهو

الجدب . يتوسف يتقشر من الجفاف وقلة المطر .

(٣) سروات النيب أسنمتها . النيب مسان الابل .

(٤) الصلا متكنف اجتمع عليه الناس وقعدوا حوله .

(٥) الفرزدق متأثر فى بعض صورته ومعانيه بطرفة حيث يقول :

إننا إذا ما القيم أوسى كأنه سماحيق ثرب وهى حمراء حرجف
 وجاءت بصراد كأن صقيمه خلال الليوت والمنازل كرسف
 وجاء قريع الشول يرقص قلبها من الدفاء والراعى لها متحرف
 ترد العشار المنقيات شطياها إلى الحى حتى يمرع المتصيف
 تبئت إماء الحى تطهى قدورنا ويأوى إلينا الأشعث المتجرف

ولئن حملت ردى عليك لتعمانٍ ثقلاً يكونُ عليك مثل يلمم^(١)
 وإلى سوء اختياره للألفاظ ، مع تراكب العبارات ، فى قوله يرثى الحجاج
 فلم أر يوماً كان أنكى رزيةً وأكثراً لظاً للعيون الذوارف
 من اليوم للحجاج لما غدوا به وقد كان يحمى مضلعات المكاف
 فاختياره لكلمة (لظ) هنا ، على ما فيها من ثقل ، غير موفق . وسوء
 اختيار الفرزدق للكلمات ، وبلادة حسه اللفظى واضح فى اختياره لأسماء
 أولاده ، فقد سمى أحدهم خبطة ؛ وسمى الثانى سبطة ، وسمى الثالث لبطة . ولو
 أن الأسماء كانت شيئاً يشتري ، لقد كان له عن هذه الأسماء مندوحة ولو أن
 عدواهم أراد أن يلقبهم بأثقل الألقاب ، ما اختار غير الأسماء التى سماهم بها أبوهم .
 وانظر إلى خشونة التصوير ؛ حين يشبه صاحبه لفرط حياتها بمن ألح
 عليه النزف ؛ أو أنهكه السل .

يشبهن من فرط الحياء كأنها مراض سلالٍ أو هوالك نؤف
 وحين يتمنى لها ولنفسه أن يكونا بعيرين أجريين ، يخاف الناس عدواهما
 فيتركونهما منفردين ، ليعيشا فى عزلة سعيدين .

فيا ليتنا كنا بعيرين لا نردُ على منهلٍ إلا نُسَلُّ ونُقذِفُ
 كلانا به عرٌّ يخاف قِرافه على الناس مَطْلِيُّ المساعِرِ أخشف^(٢)
 وانظر إلى بشاعة تصويره لكرم العباس بن الوليد بن عبد الملك ، حين

(١) يلمم جبل .

(٢) المر بفتح العين الجرب ، القراف الخالطة ، المساعِر أصول الفخذين والباطنين
 وهى أول ما يصيب الجرب ، أخشف ، يابس الجلد من الجرب ، مَطْلِيُّ أى مَطْلِيُّ
 بالقطران ، ولكثير أبيات شبيهة بهذه حيث يقول :

ألا ليتنا ياهزُّ من غير رية بعيرين نرعى بالخلاء وننذب
 كلانا به مر فن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب
 إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما تنفك نرمى ونضرب

يقول إن الندى والجود قد صاحباه ، وقد تحالفوا على إغراق البشر - (وهو يقصد ياغراق البشر) طبعاً إغداق النعم عليهم .

إن الندى صاحب العباس حاله والجود هم أخوة قد أغرقوا البشر
وانظر إلى خشونة ذوقه ، حين يمدح يزيد بن عبد الملك ؛ فيقول له إنك فعلت ما أعيا أباك :

تناولت ما أعيا ابن حربٍ وقبله وأعيا أباك الحازم المتخيراً
وإنما يمدح الخليفة بأنه كريم ابن كرام ، شجاع ابن شجعان .
وانظر إلى جفاء ذوقه ، حين يصور لذع الخمر القوية ، وشدة تأثيرها في الشارب فيقول :

شربنا في بني جشم بن بكر شراباً ليس من سقط المتاع
شراباً يضرب الباسورُ منه ويذهب بالمليّة والصداع^(١)

وقد كان الفرزدق لجفاء طبعه بعيداً عن التأثير العميق بالإسلام ، لم يدخل الإيمان قلبه ، ولم يرقق طبعه الوحشى اللفظ . فهو يعيش بشعوره وعواطفه في الجاهلية ، يهجم على اللذة متهتكاً ، ويفتخر بذلك ، ولا يبالي أن يصم نفسه بالزنا وشرب الخمر ، في بلد إسلامي ، يتخرج فيه الناس من إعلان هذه الآثام الغليظة ، وينكرونها أشد الإنكار . يقول في نديم له اسمه (ديكل) شربتُ ونادمتُ الملوكَ فلم أجد على الكأس نداماً لها مثل دَيْكَلٍ
أقلُّ مكاساً في جزورٍ سمينة وأسرع إنضاجاً وإنزالَ مرْجَلٍ
فتي كرمٍ يهتز للمجد لا ترى نداماهُ إلا كلَّ خرْقٍ مُعدَّلٍ^(٢)
عشية نسينا قبيصة نعلَه فبات الفتى القيسى غيرَ مُنَعَلٍ

(١) المليّة وجع الظهر .

(٢) الخرق الجواد . معدل يلام على إسرافه وتبذيره .

ويقول في هجاء جرير :

إن تك كلباً من كليب فإني من الدارميين الطوال الشقاشق^(١)
نظّل ندامى للملوك وأنتم تمشون بالأرباق ميل العوائق^(٢)
وإنا لتجري الحمر بين سراتنا وبين أبي قابوس فوق النّارق
لذنّ غدوة حتى نروح وتاجه علينا وذاكي المسك فوق المفارق
ويذهب مذهب الفتاك المتعهرين من شعراء الجاهلية ، أمثال الأعشى
وامرئ القيس ، فيصف نزوله عند شيخ مسن ، وتظاهره أمامه بالتقوى ،
حتى اطمأن إليه وضيقة ، ثم غلبه على زوجته :

نبئت عند الشيخ مُهراً يبيعه من ال الحرون لم تقطع أباجه
فلما أتيت الشيخ يرجف رأسه وتُرعد من بعد المشيب مفاصله
قرأت عليه سورة الكهف واقفاً ليأخذ فيه الحلم والجهل شامله
وأطرقت إطراق الشجاع وثمّرت عن الساق تسميراً رقيقاً ذلاذله^(٣)
فما زلت حتى قال هل أنت نازل فإنك ممن لا تخاف غوائله
فلما انبرت للغي والشيخ غافل من الخدر تخفي شخصها وتضائله
فقلت أبرق لاح في مدهمة من الليل أم ريم لطيف أنامله
فبت لها في مرصد كنت أدري به الوحش لا يخشى على غوائله^(٤)

ويهجو المهلب فيقول إن قومه عن الأزد كانوا ملاحين ، فهم نبط لم
يعبدوا الأصنام في الجاهلية :

فكيف ولم يأتوا بمكة منسكا ولم يعبدوا الأوثان عند المحصب

(١) الشقشقة لهاة البعير يخرجها عند هيجانه .

(٢) الأرباق المرى التي تشد إليها البهم . الواحد ربة بكسر الراء .

(٣) الشجاع الثعبان .

(٤) أدري به الوحش أتقيه .

ولم يدعُ داعٍ يا صباحا فركبوا الى الزوع إلا في السفين المضئب (١)
ويكرر ذلك في قصيدة أخرى يهجو به :

وكيف ولم يقد فرساً أبوكم ولم يحمل بنيه إلى الدوار (٢)

ولم يعبد يغوث ولم يشاهد الحنير ما تدين ولا نزار

وما لله تسجد أزدُ بضري ولكن يسجدون بكل نار

ويفتخر بظلمه للناس ، على طريقة الجاهليين ، في مواضع كثيرة من شعره . ومن ذلك قوله :

إذا مضرُ الحمره حولي تعطفت على وقد دق اللجام شكيمة

أبوا أن أسوم الناس الا ظلاماً وكنتُ ابنَ مرغام العدو ظوم
وقوله :

نخندفَ قبل الناس بيتان فيهما عديد الحصى والمائرات العظام

إذا ما هبطنا بلدةً كان أهلها بها وُلدوا يظعنُ بها كلُّ جارم (٣)

لنا العرثُ منْ تحلُّ عليه بيوتنا بمت غرقاً أو يحتمل أنف راغم (٤)

وقد اقترن جفاء الفرزدق بفتكه ولفوره ، فأنتج قدراً ضخماً من الشعر الممغن في الفحش والفظاظة ومجافاة الذوق في آن معا . انظر إلى ما يقول هذا الرجل الغليظ القلب ، في زوجته حدراء حين ماتت :

(١) يقول إنهم لا يعرفون إلا ركوب السفن . ولم يركبوا الخيل قط في قتال حين يصبح الداعي يا صباحا .

(٢) الدوار على وزن كتان بفتح الدال الكهبة واسم لضم . وقد تضم الدال وقد تخفف الواو فلا تشدد كما هي هنا في البيت .

(٣) الظعن الرحيل . الجارم الذي ارتكب جرماً . ويتصد به هنا الشديد الجرم على الناس .

(٤) الرغام التراب . وأرغمه ألصقه بالتراب أي أذله . يحتمل أنف راغم يعني يعيش ذليلاً .

يقولون زُرْ حذرًا والتربُّدُ ونها وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولستُ وإن عزتُ على بزائر ترابا على مرسومةٍ قد تضعضعا
وأهونُ مفقودٍ إذا الموتُ ناله على المرءِ من أصحابه من تقنعا
وأهونُ رُزءٍ لامرئٍ غير عاجزٍ رزيةً مرجحُ الروادفِ أفرعا
وانظر إلى ما يقول هذا الرجل الفظ المفحش ، في رثاء جارية كانت قد
حمت منه ، ثم لم تلبث أن ماتت :

وغمدٍ سلاحٍ قد رزئتُ فلم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفي جوفه من دارم ذو حفيظةٍ لو أنَّ الليالي أنساته لياليا
ولكن رأيتُ الدهر يعثرُ بالفتى ولا يستطيع ردَّ ما كان جأيا
وكم مثله في مثاها قد وضعته وقد كنتُ وثابا أجرُّ الدواهيا
ولكن وقاني ذو الجلال بقُدرةٍ شرور زواني الناس إذ كنتُ زانيا
والفحش شيء أصيل في طبع الفرزدق . فهو ولوع بالتفصيل العارى
عن الاحتشام ، وكأنه يجد لذة في استعادة تجاربه ، وجر الناس إلى المشاركة
في التمتع بعرضها . يقول من قصيدة يمدح بها هشاما ، ويختم الغزل فيها بقوله:
مشينٌ إلىَّ لم يطمنن قبلى وهنَّ أصحُّ من بيض النعام^(١)
فبتنَّ بجانبى مُصرعاتٍ وبتُّ أفضُّ أغلاقَ الختام

وليس الفحش وحده هو الذى يسترعى النظر فى مثل هذا الشعر ، ولكننا
نلاحظ فيه أيضا أنه يذهب فيه مذهب الفتك والهجوم على اللذة .

يمدح يزيد بن عبد الملك ، فيقدم لمدحه بمقدمة طويلة تستغرق ثلاثين
بيتا ، وهى من أفحش الغزل تفصيلا ، وأكثره إمعانا فى التدقيق العارى

(١) الطمت افتضاض البكارة .

المتحلل من كل القيود الأخلاقية . يبدأها بقوله :

وَأَلْفَةٌ بَرْدٌ الْحِجَالِ احْتَوَيْتَهَا وَقَدْ نَامَ مِنْ يُخْشَى عَابِهَا وَأَصْحَرَا (١)

بل هو يحض الناس على الفجور ويدلهم على سبيله في قوله :

عَلَيْكَ الدَّوُّ إِنْ بَمَسْتَوَاهُ نَسَاءَ الْجِنِّ فِي الْبَلَدِ الرَّقَاقِ (٢)

فتنكح ما اشتبهتَ بغير مهْرٍ ولا عدوى عليك ولا صدق

ويدنما نجد جريراً يبكي حين تمر به جنازة وهو يملى بعض شعره ، فيقطع

الإملاء وقد أخذته رهبة الموت ، نجد الفرزدق يقول للحسن البصرى ، وقد

اجتمع به في جنازة فسأله : ما أعددت لهذا اليرم ؟ فيجيبه : شهادة أن لا إله

إلا الله منذ تَمَازِينِ سَنَةٍ . وقد كان يبدو للفرزدق في بعض الأحيان أن يتكلف

الذسك ، ويميل نفسه على طريق الصالحين من أهل العبادة ، فيقول في ذلك

شيئاً من الشعر . ولكن قارىء هذا الشعر لا يجد فيه أثراً الخشوع أو إيمان ،

بل هو يكاد يستفزه للضحك ، وكأن فيه شيئاً يشبه النهاون الساخر - وإن

كان غير مقصود - يقول يوم لتيه الحسن البصرى في الجنازة .

لقد خاب من أولاد دارم من مشى إلى النار مشدوداً الخناقَ أزرقا

إذا جاءني يوم القيامة قائداً عنيفاً وسواقاً يسوق الفرزدقا

أخاف وراء القبر إن لم يعاقب أشد من القبر التهاباً وأضيقا

إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم يذوبون من حر الصديد تمرقفا

هذا شعر مضحك بقافيته القافية ، وبهذه القافات التي يستكثر منها في ثنايا

البيت ، فتجعله كتحققحة الدجاج الذي يتهيا للبيض ، وبهذه الصورة التي يتخيل

فيها الفرزدق ألوان العذاب ، من شد الخناق ، والقائد العنيف ، والسواق

الذي (يسوق الفرزدقا) ، إلى آخر هذه الأخيلة ، التي تصور رجلاً يتكلف الخشوع

ويحمل نفسه عليه حملاً .

(١) الديوان ص ٤٢٧-٤٢١

(٢) الدَّوُّ - الصحراء ،

وانظر بعد هذا إلى قصيدته التي يهجو فيها إبليس ويبدأها بقوله :
 أطعتك يا إبليس سبعين حجةً فلما انتهى شبيبي وتمَّ تَمَامِي
 فرتُ إلى ربي وأيقنت أنني مُلَاقِي لآيَامِ المَسُونِ حِمَامِي
 فهي أبعد الأشياء عن هجائه . وكأنه كان ينطق فيها بلسانه ، كما قال له الحسن
 البصرى حين ذهب إليه فقال له إني هجوت إبليس فاسمع . قال — لا حاجة لنا
 بما تقول . قال — لتسمعن أو لاخرجن فأقول للناس إن الحسن ينهى عن
 هجاء إبليس . قال له الحسن اسكت فإنه بلسانه تنطق^(١) .

وبعد ، فقد كان الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذى استطاع أن يصمد
 لجرير من بين كل معاصريه ، وأن يكيّل له بمثل كيله . وهو وإن لم يستطع أن
 يبلغ مبلغه فى هدوء الأعصاب ، وامتلاك النفس ، وذكاء القلب ، فقد استطاع
 أن يدانيه من وجوه كثيرة . فمن ذلك براعته فى خلق الصور وابتكارها ،
 والتماهى فى توليدها والكشف عن أجزائها ، حتى تبدوا واضحة مشرقة من
 كل نواحيها . يقول لجرير معيراً ذلة عماته وخالاته ، وابتداهن فى رعى الغنم ،
 ويتهمن بعبد من الرعاة اسمه يسار :

كَمْ عَمَّةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةٍ
 فَدَعَاءٌ قَدْ حَلَبْتُ عَلَى عِشَارِي^(٢)
 كُنَّا نُحَازِرُ أَنْ تَضِيْعَ لِقَاحُنَا
 وَلَهَا إِذَا سَمِعَتْ دَعَاءَ يَسَارِ^(٣)
 شَغَارَةٌ تَقْدُ الفَصِيلَ بِرِجْلِهَا
 فَطَّارِقٌ لِقَوَادِمِ الأَبْكَارِ

(١) الأغانى ١٩ : ١٤٤ والديوان ص ٧٧٠

(٢) الفدع خروج مفصل الإبهام مع ميل فى القدم قليل ، يعيره بأنهاراعية لأن الرعى
 فى الرجال خاصة .

(٣) يسار اسم راع ، يقول إذا سمعت هذه المرأة دعاء الراعى تركت الإبل
 وذهبت إليه .

(٤) الشغارة التى تشتر الفصيل برجلها إذ دنا من أمه ليرضع ، الفطارة من الفطر
 وهو الحلب بالسبابة والوسطى مع الاستمانة بطرف الإبهام ، والقوادم جميع القادمين
 وهما خلف الفرع ، ويقال إن الإبكار تحلب فطراً لأنه لا يمكن حلبها ضناً لقصر الخلف
 والضب الحلب بأربع أصابع مع الاستمانة بالإبهام ، أو الحلب باليدين جميعاً .

كانت تُراوحُ عاتقَيْهَا عُلْيَةَ خَلْفَ اللِّقَاحِ سَرِيعَةَ الإِدْرَارِ (١)

ويتمول في قوم من بني يربوع نزل بهم فلم يعطوه إلا فصيلا .

أَلَا قَبَّحَ اللهُ القُلُوصَ الَّتِي سَرَتْ بِرَجُلِي إِلَى خَصْبِي عِدَّانَ المُهَمَّلِ

تَجْمَعْتُمْ لِي فِي فَصِيلِ كَأَنَّمَا تَجْمَعْتُمْ لِي فِي أُغْرَى مُحَجَّلِ

ويقول لمالك بن الجارود :

لعمرك ما أشبهتَ جَدَّكَ مالِكًا وَلَا جَدَّكَ الجارودَ يَاعَصَبَ الكلابِ

وَمَا مالِكٌ إِلَّا عَجُوزٌ كَبِيرُهُ مُضَبَّبَةٌ الأَسنانِ تَزْحَفُ فِي الرَّكْبِ

ويقول لرجل من جيرانه :

قُعودُكَ فِي الشَّرْبِ الكَرَامِ بَلِيَّةٌ ورأسُكَ فِي الإِكْلِ كَلِيلِ إِحدَى الكَبائِرِ

فَمَا نَطَفَتْ كَأْسٌ وَلَا طابَ طَعْمُهَا ضَرَبْتَ عَلَيَّ حافَتِها بِالمُشافِرِ

ومن الهجاء الذي يعتمد على السخرية قوله في هجاء طيء :

ولو أَنَّ عَصْفورًا بِمِثْ جِناحِهِ عَلَيَّ طِيءٌ فِي دارِها لاسْتَظَلَّتْ

وقوله في هجاء رجل اسمه صالح بن كدير ؛ وقد دخل عليه فوجد به

يديه دراهم مشورة ، فسأله إياها ، فتلقى له صئاراها :

يقولون صَبِّحْ صالِحًا فَاسْتَعِثْ بِهِ وَمَا صالِحٌ رِيحُ الخُرُوءِ بِصالِحِ !

وقوله يهجر محمد بن جرير بن عبد الله البجلي :

تَنَحَّ أَهانَ اللهُ مَثْواكَ خاسنًا عَنِ اسمِ نَدِيٍّ المُسَلِّينِ مُحَمَّدِ

وقوله في هجاء رجل من بني نهشل :

فِعْزَاكَ أَصْلِحِها التَّلادَ فَإِنَّها سَتَأْؤُكَ فِيها أَنْ تَنْبُ وتَرْضعا

(١) العلبة قدح ضخم من جلود الابل أو من الخشب يجلب فيها ،

سياتى ابن مسعود على نأى داره ثناء إذا غنى به الركب أقذعا^(١)
وقوله فى هجاء رجل من قومه أقرضه مائة درهم ، ثم ألح فى طلبها حتى
دفعها إليه ، وبراعة السخرية هنا تستند إلى الواقعية التى تحكى أسلوب عامة
الناس فى مألوف حديثهم .

أفى مائة أقرضتها ذا قرابة على كل باب ماء عينك يدمع ؟
تسيل ماقيك الصديد تلومنى وأنت أمروء قحم العذارين أصلع
فدونكها إني أخالك لم تزك لدن خرجت من باب بيتك تلعم
تنادى وتدعو الله فيها كأنما رزئت ابن أم لم يكن يتضعضع
وقريب من هذا الأسلوب ، قوله يتهم بالانصار ، حين تحدها رجل
منهم أن يقول مثل شعر حسان :

وبالله لولا أن تقولوا تكأرت علينا تبم ظالمين وأسرفوا
لما تركت كفت تشير بإصبع ولا تركت عين على الأرض تطرف
والفرزدق إن كان ينصر عن جرير فى الهجاء الشخصى ، فهو يتفوق عليه
تفوقا ظاهرا فى الهجاء الاجتماعى ، الذى يبدو فيه أوسع أفقا ، وأشمل نظرا
فالدارس للحياة الاجتماعيه فى ذلك العصر ، يستطيع أن يجد صورة منها فى
شعر الفرزدق ، هى أوضح بكثير مما يستطيع استخلاصه من شعر جرير .
فقد استطاع الفرزدق أن يصور فساد الحكم وتجبر الولاة ، وظلم الجباة ،
وانتشار الرشوة . وتأثر الحكم بالعصية القباية . وقدم لنا صورا واضحة
للسجون فى ذلك العصر ، فبينما كانت عين جرير النقاداة لاتقع إلا على الأفراد
من الناس ، كان الفرزدق يقف من عصره موقف الرقيب ، الذى يفتح عينه
على كل ماحوله من أحداث ، لينهال بسوطه على المنحرفين عن جادة الصواب

(١) نيب التيس صياحه عغد الفساد ، يسخر به فائلا سياتيك ثناء ، ولكنه ثناء مقنع

الموالي والهجاء

عرفت الدولة الأموية بتعصبها لعنصر العرب ولكل ما هو عربي، والاستخفاف بمن عداهم من سائر الأجناس. وبينما كان العرب ينظرون إلى هذا السيل من الموالي، الذي يتدفن عليهم مح الفتوحات، أسرى من الرجال والولدان، وسبايا من الجوارى والإماء، نظر الغالب إلى المملوب، كان هؤلاء الموالي ينظرون إليهم في تنيء من الحتمد والاستخفاف. فالعرب من ناحيتهم لا يؤمنون إلا بالقوة. عليها وحدها كانت تدور حياتهم، وفيها وحدها تركزت كل مثلهم وقيمهم الأخلاقية والاجتماعية، فهم لا يرون هذا الخليط من الأسرى والإماء إلا عبيدا أرفاء. قد أباحهم السيف لهم ليسخروا في لذاتهم ولطوهم. والموالي - ومعظمهم من الفرس - لا يرون العرب إلا بدوا جنمأة قد أتاهم الملك - نورا ليس في قديمهم ما يؤهلهم لسيادة أو تدير سياسة: وإنما هو الحظ ومحض الصدفة قد أسعدهم، فنمضى لهم الغاية، ونكب هذه الأيام البريئة، فنمضى عنها الذل والاستعباد.

ولم يكن بد لهذه الجيرش الجرارة من الموالي من أن تعيش وتلمس طريقها للحياه، وتستز هذه الحسرة اللاذع، وهذا الحقد الدفين بستار من الرياء. فانخذ بعضهم صناعة الزناء، وكسب مكانه بالزلفى والالمبة على قلوب هؤلاء البدو، الذين بهرتهم الألحان الجديدة المتقنة، وما يصاحبها من آلات موسيقية لا عهد لهم بها. ولم تكن فنتهم بهذه الطائفة نفسها من مغنين ومغنيات، بأقل من فنتهم. بألحانهم الجديدة وموسيقاهم. فمذ كانت هذه الطائفة تنشر البدع الجديدة في أساليب الحياة الاجتماعية، في نفس الوقت الذي تفتن فيه الناس بهذا البدع الجديد من ضروب الغناء.

فهذا هو ابن سريج يخفى صلعه بحمّة مركبة، ويخضب أطراف أصابعه

بالحناء ، ويلبس الثياب المصبغة ، ويسير في الطرقات عابثا ، يجر وراءه جرادة قد شدت رجاها بخيط ، يطيرها ويجذبها كلما تخلفت عنه . وهو يصحب طبقة المترفين من أشرف العرب في مواسم الحج ، يتعرضون للنساء في طوافهن . يحج مرة مع عمر بن أبي ربيعة على نجيبين ، رحالتا هما ملبستان بالديباج ، وقد خضبا النجيبين . ويحج معه مرة أخرى ، وقد ركب عمر نجيباً مخضوباً بالحناء مشهر الرحل بقراب مذهب ، وركب ابن سريج بغلة شقراء ، ومعه غلام له يقود فرساً أدهم أغر محجلاً ، في عنقه طوق ذهب ، ومع عمر جماعة من حشمه وغلمانه ومواليه ، وعليه حلة موشية يمانية ، وعلى ابن سريج ثوبان هراويان مرتفعان (١) .

وهذا هو حنين الحيرى ، يتخذ الأزياء الفارسية الزاهية الألوان ، فيغنى عند بشر بن مروان وعود ، في حجره ، وعليه قباء زاهى اللون ، وجبة واسعة من الفرو الأحمر طويلة الكم تتذبذب يداها ، وخفان موشيان (٢) . وهذا هو الغريض ، يُصنِّع نفسه ويُبْرِقها - كما يقول صاحب الأغاني (٣) - حين يغنى ، فيضرب بالعود ، وينقر بالدف ، ويوقع بالقمضيب ، فيفتن الناس بغنائه وبوضاعة وجهه وحسن زيه .

افتتن العرب بهذه الطبقة من الموالى التي اتخذت الغناء ، حتى لقد وقف ابن عائشة يغنى في الموسم ، فحبس الناس ، واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكادت الفتنة أن تقع ، فجاء به إلى هشام بن عبد الملك فقال له ، ياعدو الله ! أردت أن تفتن الناس ؟ فأمسك ابن عائشة عنه ، وكان تَيَّها . فقال له هشام : أرفق بتيهك ! فقال : حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياها . فضحك وخل سبيله (٤) . ولم يسلم الفقهاء ورجال الدين

(١) الأغاني ١ : ٤٤٩ - ٢٧٤

(٢) الأغاني ٢ : ٣٥٠

(٣) الأغاني ٢ : ٣٦٠

(٤) الأغاني ٢ : ٢٠٨

— وهم أكثر الناس تخرجاً — من هذه الفتنة . روى صاحب الأغاني أن الأوقص المخزومي ولي قضاء مكة، فما رأى الناس مثله في عفافه ونبله . فإنه لنا ثم ليلة في جناح له ، إذ مر به سكران يتغنى .

عوجى علينا ربة الهودج

فأشرف عليه فقال : يا هذا ، شربت حراماً ، وأيقظت نياماً ، وغنيت خطأ .
خده عنى ثم أصلحه له . وبلغ من فتنة الاس بهم أنهم كانوا يحتفلون بمقدمهم ! فيجتمعون لاستقبالهم بما لا يجتمع لمثله خلق في استقبال أمير أو خليفة . تدم حنين الحيرى على الحجاز ، حين دعاه إليها مغنوها الثلاثة المشهورون — ابن سريح والغريص ومعبد — فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره ، فخرجوا يتلقونه ، فلم ير يوماً كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ . ودخلوا منزل سكينه بنت الحسين ، فلما دخلوا إليها أذنت للناس أذانا عاماً ، فضاقت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح فسقط الرواق على من تحته . ومات حنين تحت الردم^(١) .

هذه طائفة من الموالى ، قد ابتغت الوسيلة للظهور والثراء بالغناء ، وانتقمت بسلاح المستضعف الذى يغزو القلوب والجيوب ، حين يعجز عن مواجهة الخصم . ويمكننا أن نضيف إلى هذه الطائفة أشعب وأضرابه من المهرجين ، الذى يكسبون مكائهم بركاتهم الجسمية ونوادهم البارعة . فقد مرنا أشعب على ألوان من الحركات العجيبة ، فكان ينفضن وجهه ويشنجه ، حتى يصير عرضه أكثر من طوله ، ويصير فى هيئة لم يعرفه أحد بها ، ثم يرسل وجهه ويطوله ، حتى يكاد ذقنه أن يجوز صدره ، ثم ينزع ثيابه ويتحاذب فيصير فى ظهره حذبة كسنام البعير ، ويصير طوله مقدار شبر أو أكثر ، ثم يقوم فيتطاول ، حتى يصير أطول ما يكون من الرجال^(٢) . وكان مع هذا من أكثر الناس نادرة ، وأحسنهم فكاهة ، وأجودهم أداء للغناء .

وطائفة أخرى من الموالى قد انصرفت للدين ودراسة القرآن والفقه ،
كالحسن البصرى ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وعطاء بن يسار وربيعة
الرأى وابن جريح^(١) . وهؤلاء قد انصرفوا للعبادة ، فأذهب الإسلام نيط
قلوبهم ، وبرأهم مما اتسم به جندهم من الحقد على العرب والسكيد لهم .

وطائفة ثالثة اتخذت الشعر وبرعت فيه ، فأتاح لهم نبوغهم شيئاً من النفوذ .
احترف بعضهم السياسة . فتعصب لهذا الفريق أو ذلك من الأحزاب العربية ،
كالذى يروى من تعصب سديف ابني هاشم ، وتعصب شبيب لبني أمية^(٢) ومناصرة
أبي العباس الأعمى للأمويين^(٣) وانتطاع اسمعيل ابن يسار لآل الزبير^(٤) .
وكان هؤلاء الشعراء فى معظمهم منافقين ، لم يعتنقوا هذا المذهب أو ذاك عن
عقيدة أو إيمان ، فالعرب عندهم سواء لا يحلمون لهم إلا البغض والأزدراء ،
ولكنهم يلتمسون السبيل للظهور ، بما يتكفون من تصنع الولاء والإخلاص
لأصحاب النفوذ . وخير ما يصور علاقتهم بهذه الأحزاب العربية ، ما يروى
صاحب الأغاني من قدوم إسمعيل بن يسار على الغمر بن يزيد بن عبد الملك
— وكان قد تحول إلى الأمويين بعد قتل ابن الزبير وإنشاء الملك إلهم —
استأذن اسماعيل على الغمر فحجبه ساعة ، ثم أذن له ، فدخل يبكي ، فقال له
الغمر — مالك يا أبا فائد تبكى ؟ قال وكيف لا أبكى ، وأنا على مروان بنى
ومروانية أبى أحجب عنك ؟ فجعل الغمر يعتذر إليه ، وهو يبكى ، فما سكت
حتى وصله الغمر بجملة لها قدر . وخرج من عنده ، فلحقه رجل فقال له :
أخبرنى ويملك يا إسمعيل ، أى مروانية لك ولأبيك ؟ قال — بغضنا إياهم .
امرأته طالق ، إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان النسيح ، وإن لم
يكن أبوه حضره الموت فقبل له قل لا إله إلا الله ، فتعال لعن الله مروان ،

(٢) الأغاني ١٤ : ١٦٢ -

(٤) الأغاني ٤ : ٤٠٨ -

(١) ضحى الاسلام ١ : ٢٧ -

(٣) الأغاني ١٥ : ٥٩ -

تقربا إلى الله تعالى وإبدالا له من التوحيد، وإقامة له مقامة^(١) وقد كان اسمعيل هذا شعريا شديدا التصب على العرب، فكان لا يزال مضروبا محروما مطرودا. وكذلك كان ابنه إبراهيم^(٢). دخل اسمعيل على هشام بن عبد الملك في خلافته، وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصر، فاستنشده — وهو يرى أنه سينشده مديحا له — فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم.

ياربع مية بالعلياء من ريم هل ترجعن إذا حيتت تسامى
إلى أن انتهى إلى قوله .

إني وجدرك ما عودي بنى خور عند الحنّاط ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدي لا يقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قرم بتاج الملك معوم
جَحَاجِحٌ سَادَةٌ بُلُجٌ مَرَازِبَةٌ جُرْدٌ عِنَاقٌ مَسَايِحٌ مَطَاعِمٌ
من مثل كسرى وسابور الجود معاً والهرمزانُ لفخرٍ أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الفرس والروم
يمشون في الخلق الماذى سابغة مشى الضراغمة الأسد اللهايم
هناك إن تسألني تنبئني بأن لا جرثومة قهرت عزّ الجرائيم

فنضب هشام وقال: يا عاض بظر أمه، أعلى تفخر؟ وإبأى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قرمك؟ عَطَّوْهُ فِي الْمَاءِ! فَنَطَّوْهُ فِي الْبِرْكَةِ حَتَّى كَادَتْ نَفْسُهُ تَخْرُجُ. ثم أمر بإخراجه وهو بشر حال، ونفاء من وقته، فأخرج عن الرصافة منفيا إلى الحجاز^(٣). وبما يصور نفاق هذه الطائفة من الموالي في

(٢) الأغانى ٤ : ٤١١ و ٤٢٧

(١) الأغانى ٤ : ٤١٠

(٣) الأغانى ٤ : ٤٢٢

علاقتهم بسادتهم ، ما يروى الطبرى ، من أن الوليد بن يزيد لما اشتد به الضيق واخذته الثوار من كل مكان ، قال - من جاء برأس فله خمسمائة . فجاء قوم بأرؤس ، فقال الوليد : اكتبوا أسماءهم ، فقال رجل من موالية بمن جاء برأس : يا أمير المؤمنين ، ليس هذا يوم يعمل فيه بنسيئة ^(١) .

وآثر بعض الشعراء من الموالى أن يبتعد عن السياسة ومغامراتها ، وما تجر على محترفيها من مكاره ، فكسبوا مكاتبتهم بهجاء الناس . وهؤلاء كثير ، منهم الحزبن السكناني ، وفيه يقول أبو الفرخ : كان هجاء خبيث اللسان ساقطا يرضيه اليسير ، ويتكسب بالشر وهجاء الناس . ^(٢) ومنهم ابن الخياط ، كان ما جنا خليعا هجاء خبيث اللسان . ^(٣) ومنهم ابن ميادة ، كان عريضا للشر يطلب مهاجاة الشعراء ومسابة الناس . وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول : اعرنزى ميساد للقوافى - واستمعين ولا تخافى - ستجدن ابنك ذا قذآف ^(٤) ومنهم أبو عطاء السندى ^(٥) . ومنهم زياد الأعمج ^(٦) . ومنهم يزيد بن مفرغ الذى اشتهر بأهاجيه فى آل زياد ، وصلابته فى احتمال أذاهم ، وصبره على اضطهادهم ^(٧) .

وقد كان كثير من هؤلاء الشعراء لا يكتبون تعصيمهم لقومهم ، وتهكمهم بكل ما هو عربى ، حتى لقد غلب عليهم الاستهتار ، وروى عن بعضهم ما يصور الاستخفاف بالإسلام ، وكأهم لم يروه إلا مذهبا سياسيا ، قد أتاح للعرب هذا النفوذ العريض ، الذى قوض دولتهم ، وجعلهم فى هذا المكان من الذل والاستعباد .

فثال تعصيم قول ابن ميسادة ، وكان بن أم ولد - ^(٨) .

- | | |
|---------------------|----------------------|
| (١) الطبرى ٥ : ٥٥٦ | (٢) الأغاني ١٤ : ٧٦ |
| (٣) الأغاني ١٨ : ٩٤ | (٤) الأغاني ٢ : ٢٦٣ |
| (٥) الأغاني ١٦ : ٨١ | (٦) الأغاني ١٤ : ١٠٢ |
| (٧) الأغاني ١٧ : ٥١ | (٨) الأغاني ٢ : ٢٦٢ |

أنا ابن أبي سلمى وجدى ظالم وأمى حصان أخلصتها الأعاجم
أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيظت عليه التمام
وقوله :

لنا الملك إلا أن شيئاً تعده قريش ولو شئنا لداخت رقابها
وإن غضبت من ذا قريش فقل لها معاذ الإله أن أكون أهابها
وقوله :

فضلنا قريشا غير رهط محمد وغير بنى مروان أهل الفضائل
وقد لقيه إبراهيم بن إسماعيل فقال له - أنت فضلت قريشا ؟ وجرده
وضربه أسواطاً^(١).

ومن أمثلة هذا التعصب كذلك ما يروى من أن زيادا الأعجم كان يخرج
وعليه قباء ديباج تشبها بالأعاجم ، حتى لقد مر به يزيد بن المهلب ذات يوم
وهو على حاله تلك ، فأمر به فقتل أسواطاً ومزق ثيابه قائلًا . والترك تشببه
لا أم لك ؟^(٢) .

أما استهتارهم ومجافاتهم للإسلام فالأمثلة عليه كثيرة . كان زياد الأعجم
عند عمر بن عبد الله بن معمر بفارس . وقدم عليه غزال بن محمد الفقيه من
مصر ، فكان غزال يحدثه بحديث الفقهاء ، فقال زياد :

يحدثنا أن القيامة قد أتت وجاء غزال يبتغي المال من مصر
فكم بين باب الترك إن كنت صادقاً

وإيوان كسرى من فلاة ومن قصر
ومر به يزيد بن حبناء الضبي وهو يثمد هجاء مفحشا ، فقال له : ألم يأن

(١) الأغانى ٢ : ٢٩٤ و ٣٣٠ (٢) الأغانى ١٤ : ١٠٤

لك أن ترهوى وتترك تمزيق أعراض الناس ؟ ويحك حتى متى تتمدى في الضلال ؟ كأنك بالموت قد سمحك أو مساك . فهجاه زياد بتوله : (١) .

يحذرنى الموت ابن حبناء والفتى إلى الموت يغدو جاهداً و يروح
وكل أمرىء لا بد للموت سائر وإن عاش دهرأ في البلاد يسيح
قل ليزيد يا ابن حبناء لا تعظ أخاك وعظ نفساً فانت جنوح
تركت التقى والدين دين محمد لأهل التقى والمسلمين يلوح
وتابمت مرأق العراقين سادرا وأنت غليط القصريين صحيح (٢)
وروى الزبير بن بكار أن أباه ولى الحجاز ، فألزم ابن الخياط حضور
الصلاة مع الجماعة ، فجاء ابن الخياط وأنشده :

قل للأمير يا كريم الجنس يا خير من بالغور أو بالجلس
وعدتي لولدى ونفسي شغلتنى بالصلوات الخمس
فقال له - ويحك . أتريد أن أستعفيه لك من الصلاة ؟ والله لا يعفيك
وإن ذلك ليبعثه على اللجاج فى أمرك ثم يضرك عنده . فمضى وقال - نصبر
إذن حتى يفرج الله تعالى (٣) وقد حد ابن الخياط فى الخبر ، جلده مالك
ابن أنس . فلما ولى ابن سعيد القضاء بالمدينة قال فيه . (٤)

بكتنى الناس لأن جلدت وسط الرحبة
وأنى أرتى وقد غنيت فى المحتسبة (٥)
أعزف فيهم بعضا ابن مالك المقتضبة

(١) الإغاني ١٤ : ١٠٧

(٢) السادر المتعير والذي لا يبالي ما صنع . القصريان ضلعان يلبان الترفوتين .

(٣) الإغاني ١٨ : ٩٧ (٤) الإغاني ١٨ : ٩٩

(٥) المحتسبة طائفة من الشرطة يمشون فى الطرقات لمراقبة الناس وأخذ المستهترين والمخالقين .

فقلت . لما . أكثروا علي . فبم الجلبة .
ذا ابنُ سعيدٍ قد قضى وحالنا مقربة
لا بل له الفضيل في ما لم أنل والغلبة
بحسن صوت مطرب وزوجة معتصبة

وكان الحزين الكنانى مدمنا للشراب فاسد الدين . وقد على - عبدالله بن عبد الملك فقال له : أى الرقيق أعجب إليك ؟ قال : ليخترلى الأمير . فاختر له عبدالله أحدهم وقال : قد رضيت لك هذا ، فإنى رأيتَه حسن الصلاح . فقال الحزين : لا حاجة لى به فأعطينى أخاه . فأعطاه إياه (١) .

وكان بعض هؤلاء الشعراء - على مكائهم فى الشعر - لا يفصحون ولا يحسنون النطق بالعربية . كان أبو عطاء السندى يجمع بين لثغة ولُكْنَه فلا يكاد يفهم كلامه . كان يقول (مرهبا مرهبا هيا كرم الله) يتمصد : مرحبا مرحبا حيا كرم الله . وكان يقول (زز) يعنى زُج . و (زرادة) يعنى : جرادة . ويقول (أزن) يعنى : أظن . ويقول (بنو سيطان) يعنى : بنو شيطان . وكان الناس يسمعونَه فيكتمون الضحك ولا يجسرون على إظهاره خوفاً من شره (٢) . أتى سليمان ابن سليم فأنشده :

أعوزتني الرواةُ يا ابنِ سلمٍ وأبى أن يُقيمَ شعري لساني
وغلا بالذى أُجمِجُ صدرى وجفاني لعجمتى ساطاني
وازدرتني العيون إذ كان لوني حالكاً مجتوى من الألوان
فضربت الأمور ظهراً لبطنٍ كيف أحتال حيلةً للساني
وتنيت . أنتى كنت بالشه ر فصيحاً وبان بعض بياني

فاكفني ما يضيئ عنه لساني فصيح من صالح الغلام
 يفهم الناس ما أقول من الشعر فإن البيان قد أعياني
 فأمر له سليمان بوصيف بربري فصيح، فسماه عطاء، وتكنى به، ورواه
 الشعر، فكان إذا مدح من يحتديه أو يبتجعه أمره بإنشاده ما قاله. (١)
 وكان زياد الأعجم لا يحسن النطق بالعربية على ما أتيج له من التقدم
 في الشعر. وقد ضرب أبو الفرج مثلاً لعجمته بقوله لغلام نه دعاه فأبطأ
 عليه (منذ لدن د أوتك إلى أن قلت لي ما كنت تسناً؟) يقصد: منذ لدن
 دعوتك إلى أن قلت لي ما كنت تصنع؟ .

وقد حقق الهجاء لهذه الطائفة ما طمحوا إليه من مكانة، فكان سلاحاً
 مرهوباً يخشاه الناس، ويتقونه بإكرامهم ومداراتهم. روى رجل أنه كان
 جالساً عند المهلب، فأقبل عليه رجل طويل مضطرب؛ فلما رآه المهلب قال
 اللهم إني أعوذ بك من شره. فجاء فقال: أصلح الله الأمير. إني قد مدحتك
 بيت صفده مائة ألف درهم. فسكت المهلب. فأعاد عليه القول. فقال:
 أنشدنيه. فأنشده:

فتى زاده السلطان في الخير رغبة إذا غيرَ السلطانُ كلَّ خليل

فقال له المهلب: يا أبا أمامه، مائة ألف فوالله ما هي عندنا. ولكن
 ثلاثون ألفاً فيها عروض (٣). فالمهلب لم يدفع الثلاثين ألفاً ثمناً لهذا البيت التافه
 من الشعر، فهو لا يساوي شيئاً. وإنما دفعها اتقاء هجائه، واشترى بها عرضه.
 ولقد بلغ من رهبة هؤلاء الموالى عند الناس، وجرأتهم عليهم، أن زيادا

(١) الأغانى ١٦ : ٨١

(٢) العروض جمع عرض بفتح العين وسكون الراء وهو المتاع وكل شيء سوى
 النقد. يريد المهلب أن يعطيه بعض المبلغ تقدماً وبمضه متاعاً .

(٣) الأغانى ١٤ : ١٠٧

هذا شرب يوماً مع حبيب بن المهلب ، فسجعت حمامة على شجرة ، فقال لها زياد .

تَعْنَى أَنْتِ فِي ذِمِّي وَعَهْدِي وَذِمَّةُ وَالِدِي إِنْ لَمْ تُطَارِي
فَأِمَّا يَقْتُلُوكَ طَلَبْتُ نَارًا لَهُ نَبَأَ لِأَنَّكَ فِي جَوَارِي

فتحده ابن المهلب فأصاب الحمامة بسهم تهكما به ، فانطلق زياد إلى المهلب ابن أبي صفرة شاكياً ، فألزم ابنه دية الحمامة ألف دينار لانهاجارته (١) . وإنما فعل ذلك خوفاً من شره . وحج عبدالله بن عبد الملك بن مروان ، فقال أبوه : سيأتيك الحزين السكناني الشاعر بالمدينة ، وهو ذرب اللسان ، فإياك أن تحتجب عنه ، وأرضه . ووصفه له ، فقال إنه أشعر ذو بطن عظيم الأنف . فلما قدم عبدالله المدينة وصفه لحاجبه ، وقال له : إياك أن ترده (٢) . بل لقد بلغ من جرأة الحزين السكناني ، أنه كان يفرض الضرائب على أشرف الناس وعلى القرشيين أنفسهم .

روى صاحب الأغاني أنه ضرب على كل رجل من قريش درهمين في كل شهر ، منهم ابن أبي عتيق ، فجاء يوماً لأخذ درهميه وهو على حمار أعجمي ، وكان كثير الشاعر جالساً مع ابن أبي عتيق . فدعا ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين . فقال له الحزين : من هذا الذي معك ؟ قال : هذا أبو صخر كثير — وكان قصير آدمياً — فقال له الحزين : أتأذن لي أن أهجوه بيتاً ؟ قال : لا لعمرى لا أذن لك أن تهجو جليسي ، ولكن أشتري عرضه منك بدرهمين آخرين . ودعا له بهما . فأصغى ثم قال : لا بد من هجائه بيت . قال : أو أشتري ذلك منك بدرهمين آخرين . ودعا له بهما . فأخذهما وقال : ما أنا بتاركه حتى أهجوه . قال : أو أشتري منك ذلك بدرهمين آخرين . فقال له كثير : ائذن له وما عسى أن يقول في ؟ فأذن له ابن أبي عتيق فقال :

(٢) الأغاني ١٤ : ٧٧

(١) الأغاني ١٤ : ١٠٣

قصيرُ القميصُ فاحشٌ عند بيته يعضُّ القُرَادُ بأسته وهو قائم
 فوثب كثير إليه فوكزه فسقط هو والحمار ، وخلص ابن أبي عتيق بينهما (١) .
 وقد كان معظم هجاء هذه الطبقة غثاً تافهاً إذا وزن بموازين الشعر .
 وكان شطر كبير منه مرتجلاً ينشئه الشاعر لساعته . كان الحزين الكناني يمدح
 محمد بن مروان ويهجو عمرو بن عمرو بن الزبير . ثم إن ابن مروان سأله أن
 يكف عن عمرو فأبى ، وقال : لا والله ولا بجمر النعم وسودها ، لو أعطيتها
 ما كففت عنه ، لأنه ما علمت كثير الشر ، قليل الخير ، متسلط على صديقه
 فظ على أهله . (وخير ابن عمرو بالثريا معلق) فتال له محمد بن مروان :
 هذا شعر ؟ فقال : بعد ساعة يصير شعراً ، ولو شدت لعجلته ، ثم قال (٢) :

شُرُّ ابن عمرو حاضر لصديقه وخير ابن عمرو بالثريا معلق
 ووجه ابن عمرو بأسرُّ إن طلبته نوالا إذا جاء الكريم الموفق
 فنفس الفتى عمرو بن عمرو إذا غدت كتائب هيجاء المنية تبرق (٣)
 فلا زال عمرو للبلايا رَدِيَّةً تباكره حتى يموت وتطرق (٤)
 يهرُّ هريزُ الكلب عمرو إذا رأى طعاماً فما ينفك يبكي ويشق

وهذا شعر تافه كما هو بين . ولكن أمثال هؤلاء الهجائيين كانوا من
 الضعة وضياع الحسب بحيث يكبر على الأشراف ما يقولون لهم وإن كان
 تافهاً . ثم هم لا يباليون أن يهجوهم الناس . ولذلك كانوا أكثر ما يتعرضون
 للسادة والوجهاء . ولم يكونوا يتعرضون للذين لا يباليون أن يهجوهم ؛
 ويظهرون عدم الاكتراث بشعرهم . هجا ابن الخياط موسى ابن طلحة
 ابن بلال التيمي فقال :

(٢) الأغانى ١٤ : ٨٣
 (٤) ردية أى هدف وغرض

(١) الأغانى ١٤ : ٧٦
 (٣) برق كطرب تحير

هجب الناس للعجيب الحال حاض موسى بن طلحة بن بلال
زعموه ببيض في كل شهر ويرى صفرة لكل هلال
فلقبه موسى فقال : يا هذا ، وأى شيء عليك ؟ نعم حضت وحملت
وولدت وأرضعت . فقال له ابن الخياط : أزدك الله أن لا يسمع هذا
منك أحد فيجترى على شعري الناس فلا يكون شيئاً ، ولن يبلغك مني
ما تكره بعد الآن (١)

وقد غلب على هجاء هذه الطبقة الاقتضاب والقصر ، فكان ذلك أدهى
لذيوه وخفته على الألسن ، وأشد للذءونكايته . كان عبید الله بن زياد يقول :
ما هجيت بشيء أشد على من قول ابن مفرغ :

فكر في ذلك إن فكرت معتبر هل نلت مكرمة إلا بتأمير
عاشت سمية ما تدرى وقد عمرت أن ابنها من قريش في الجماهير
وقال في هجاء زياد بن أبي سفيان :

فأقسم ما زياد من قريش ولا كانت سمية من تميم
ولكن نسل عبد من بني عريق الأصل في النسب اللثيم
وقال فيه :

إن زيادا ونافعا وأبا بكر رة دندی من أعجب العجب
إن رجلا ثلاثة خلقوا في رحم أنثى ما كلهم لأب
ذا قرشي كما يقول وذا مولى وهذا بزعمه عربي
ويقول زياد الأعم لكعب الأشقرى الشاعر حين هجاه :

قبيلة خيرها شرها وأصدقها الكاذب الأثم

وضيفهم وسطاً أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائماً
ويقول له :

إذا عذَّبَ اللهُ الرجالَ بِشعرهم أمنتُ لكعبٍ أن يُعذَّبَ بالشعر
وقال لرجل من جرم :

قضى اللهُ خلقَ الناسِ ثم خلقتهم بقية خلق اللهُ آخرَ آخرٍ
فلم تُسمِعُوا إلا بما كان قبلكم ولم تُدرِكُوا إلا بدق الحوافر
فلورَدَ أهلُ الحقِّ من مات منكم إلى حقِّه لم يدفنوا في المقابر

هذه طبقة من المستضعفين المغلوبين على أمرهم ، فرضت عليهم القوة والذل ، وقضى عليهم التعصب المتطرف أن يعيشوا مستعبدين مهضومي الحقوق ، فتسلح بعضهم بالرياء يستر به حقه الكامن ، وتسلح فريق منهم بالهجاء ، ودفع الأيسر فريقاً ثالثاً إلى الزهد ، يلتمسون في نعيم الآخرة المقيم عوضاً من جاه الدنيا الحائل . ولكنهم في جملتهم ظلوا يكيدون للعرب ، وينشرون حضارتهم الفارسية في بطن وتصميم ، حتى أتيج لهم الظفر الكامل ، فقوضوا ملك الأمويين ، وأقاموا على أنقاضه دولة عربية المظهر ، فارسية الروح والتصميم .

[انتهى القسم الثاني في العصر الاسلامي]

المراجع

نصوص :

- ديوان جرير
د الفرزدق
د الأختل
د أعشى همدان
نقائص جرير والفرزدق
نقائص جرير والأختل
وقعة صفين
المفضليات
حماسة أبي تمام
شرح حماسة أبي تمام
جمهرة أشعار العرب
شعراء النصرانية
- ط . : الصاوى
ط . : الصاوى
ط . : اليسوعيين
ط . : أوروبا
ط . : أوروبا
ط . : اليسوعيين
ط . : هارون
ط . : هارون ١٣٦١ هـ
ط . : مصر
ط . : مصطفى محمد
ط . : مصر ١٣٤٥ هـ
ط . : اليسوعيين

نتمد :

- العمدة لابن رشيق
الموازنة للآموى
ديوان المعاني للعسكرى
الصناعتين للعسكرى
الوساطة للجرجاني
الموشع للبرزبانى
نقد الشعر لقدماء
نقد النثر لقدماء
- ط . : مصطفى محمد
ط . : صبيح
ط . : مصر ١٣٥٢ هـ
ط . : الأستانة ١٣١٩ هـ
ط . : مصر ١٣٦٤ هـ
ط . : مصر ١٣٤٢ هـ
ط . : مصر ١٩٣٤ .
ط . : الجامعة المصرية

أدب :

ط . دار الكتب	نهاية الأرب للنويرى
ط . العربان ١٩٤٠ م	العقد الزريد
ط . السندوبى ١٩٢٦ م	البيان والتبيين
ط . مصطفى محمد	الكامل للبرد
ط . دار الكتب	الأمالى للقالى
ط . الصاوى ١٩٣٤ م	المعارف لابن قتيبة

تراجم وطبقات :

ط . دار الكتب فى الأجزاء العشرة الأولى . وبولاق فيما يليها	الأغانى
ط . بولاق ، مصر (فريد رفاعى)	وفيات الأعيان
ط . مصر (السقا) ١٩٣٢ م	الشعر والشعراء لابن قتيبة
ط . مصر (السعادة)	طبقات الشعراء لابن سلام
ط . مصر (الحلبي) ١٩٣٠ م	خزانة الأدب للبيدادي
ط . مصر ١٣٤٨ هـ	الفهرست لابن النديم
ط . مصر (القدسى) ١٣٥٤ هـ	معجم الشعراء للمرزبانى
ط . مصر (القدسى) ١٣٥٤ هـ	المؤتلف والمختلف للآمدى
ط . أوروبا	الطبقات الكبرى لابن سعد
ط . مصر (فريد رفاعى)	معجم الأدباء لياقوت

تاريخ :

ط . مصر ١٩٣٩ م (مصطفى محمد)	تاريخ الطبرى
ط . مصر ١٣٤٨ هـ (المنيرية)	تاريخ ابن الأثير
ط . ١٣٤٦ هـ	مروج الذهب للمسعودى
ط . مصر	معجم البلدان لياقوت

- نسب عدنان وقحطان للمبرد ط . مصر (لجنة التأليف)
 الإنباه على قبائل الرواه لابن عبد البر ط . مصر (السعادة) ١٣٥٠ هـ
 شرح نفااض جرير والفرزدق ط . أوروبا
 مقدمة ابن خلدون ط . مصر ١٩٣١ م
 فتوح البلدان للبلاذري ط . مصر ١٩٣٢ م
 الخراج لأبي يوسف ط . مصر (السلفية)
 الخراج للقرشي ط . مصر (شاكر)
 التنبيه والإشراف للمسعودي ط . ١٩٣٨ م
 مختصر الفرق بين الفرق ط . مصر ١٩٢٤ م (الهلال)
 التبصير في الدين الاسفراييني ط . مصر ١٩٤٠ م
 النزاع والتخاصم بين بني أمية ط . مصر
 وبني هاشم للمقريني

معاجم :

لسان العرب	لابن منظور	بجمع الأمثال	للميداني
القاموس المحيط	للغيروزبادي	شرح القاموس	للزبيدي
أساس البلاغة	للزحشرى	المعرب	للجويقي

كتب حديثة :

بلوغ الأرب	للألوس
تاريخ آداب اللغة العربية	لجورجي زيدان
تاريخ التمدن الإسلامي	لجورجي زيدان
تاريخ آداب العرب	لرافعي
النصرانية وآدابها	لشيخو
الروائع	للبيستاني
فجر الإسلام	لأحمد أمين
ضحى الإسلام	لأحمد أمين
حدث الأربعا	لطله حسين

فهرس

نشأة الأحزاب السياسية

(مره - ١٦)

العقلية العربية لم تسع للنظام الجديد الذي جاء به الاسلام ، ولم تنس وطنها الأول الصغير (القبيلة) لتتفانى في الوطن الكبير — تصورهم الاسلام على أنه سيادة لقريش على بقية القبائل — العرب ينفرون من الزكاة — ظهورالمتنبئين من مختلف قبائل العرب منافسة لقريش — الردة حركة عصبية والشعر الذي قيل فيها منصب كله على القبائل لاعلى مبادئ الاسلام — الجزيرة العربية تتحول سريعاً إلى أمبراطورية واسعة — حاجة الظروف الجديدة إلى نظم سياسية وإدارية واجتماعية — عدم صلاحية النظام القديم للظروف الجديدة — اضطراب الجزيرة بالفتن وظهور الأحزاب الثلاثة الكبيرة (الشيعة ، والخوارج والامويين) — بين علي ومعاوية — معاوية رجل الساعة الذي أنقذ الامبراطورية الاسلامية ووطد أساسها — عودة إلى الاضطرابات والفتن بعد موت معاوية الثاني — آثار هاتين الثورتين في التفكير العربي — مناقشة نظام الحكم المرة الأولى بين العرب — العصبية القديمة تتخذ صورة حزبية مهذبة — اختلاف برامج الأحزاب — أثر العصبية القديمة في الاحزاب الجديدة — حرب العراق والشام -- العراق موطن المعارضة في العصر الأموى .

الهجاء السياسي

(ص ١٧ -- ٥٧)

الهجاء السياسي من أظهر فنون الشعر في العصر الأموى — حرص معارفة

على تشجيع الشعراء وتألف الناس بالمال — عودة الشعر للظهور بعد أن خفت
صوته منذ وفاة النبي — اعتماد الزعماء والملوك على الشعراء في تهيئة الناس لمشاريعهم
والترريح لها في الدفاع عنهم ومهاجمة خصومهم — السياسة الحزبية حرفة يتكسب
بها الشعراء — استفحال الهجاء السياسي — الهجاء بدع العصر — المربد في
العراق يحتل مكان عكاظ في الجاهلية — اختلاف صور الهجاء السياسي وتعدد
مذاهبه — بعضه جاهلي الأسلوب يقوم على العصبية ، وبعضه يهاجم أصحاب
الدعوة والمطالبين بالملك ، وبعضه يهاجم الولاة ، وبعضه يصور سخطا على جميع
المتنافسين في الملك من قريش يصفهم بالطمع والجشع — شعر العصبية امتداد
لشعر الحروب في الجاهلية لم يتأثر بالمثل الاسلامية — القنن الاسلامية منفذ للحزازات
القديمة التي تلمست طريقها للظهور عن طريق الزعماء المتقاتلين على الحكم —
ظهور لون جديد من الهجاء العصبي هو هجاء الاقليم — عصبية الشام وعصبية
العراق — الشعر الذي يتصل بأصحاب الدعوة ويهاجم المطالبين بالملك يتميز
بادراكه للحياة الجديدة وتأثره بمثل الاسلام وأسلوب القرآن — بعضه ينصب على
نظام الحكم وبعضه ينصب على أشخاص الحكام — غلبة الحزن على شعر العلويين
وغلبة الفدائية على شعر الخوارج — الشعر الذي يعارض الولاة وينقد سياستهم
من أمتع ألوان الشعر السياسي، وأكثرها دقة ووضوحا في تصوير المجتمع والكشف
عن معايبه — تدفق الأموال على الناس — تميز طائفة الحكام — الحجاب —
تأثر الخلفاء والولاة بالمعصية — عنف الولاة وتجهيرهم لاعادة الناس إلى احترام
القانون — كثرة شكوى شعراء العراق من ظلم العمال في جباية الاموال .

الأخطل

(ص ٥٨ - ٩٦)

طفولته — حرمانه وتمرده — تعرضه لكعب بن جعيل التماسا للشهرة — هجاء

الأفصار واتصاله بيزيد - دخوله في السياسة ودفاعه عن الدولة ومهاجمة أعدائها
حظوته عند الأمويين وعلو شأنه في قبيلته - الأخطل شاعر القبيلة وزعيمها -
سعيه في الإصلاح بين قومه وجمع كلمتهم - ربطه بين قبيلته وبين الأمويين -
أثره في موقف تغلب أيام الفتنة الثانية - اشتباك قيس بتغلب وموقف الأخطل -
قسوته وبشاعة تصويره لمناظر القتال - الأخطل في قمة مجده السياسي - تيمه
وإدلاله على عبد الملك - الأخطل لسان الحكومة الذي يعبر عن رأيها واتجاهاتها
هجاء القيسية في النقائص - (خف القطين) مثال رائع للشعر السياسي - الغلظة
القاسية طابع الأخطل في أهاجيه - ألفاظه بدوية خشنة - تأييده لسياسة الولاة
وتبرير مسلكهم في عنفهم وشدتهم - حق الأمويين في الملك - القوى الغالب
هو صاحب الحق لأن الله لا ينصر الظالمين - المثل الجاهلية التي تعتمد على القوة
تابس ثوب الحق الإلهي على يد الأخطل - الأخطل بدوى يعيش على المثل
الجاهلية في حياته وفي فنه - كثرة الوشائيات حول الأخطل وضعف نفوذه في
البلاط الأموي - عدى بن الرقاع يحتمل مكان الأخطل عند الوليد .

الهجاء الشخصي

(ص ٩٧ - ١٢٥)

الهجاء الشخصي من أظهر فنون الشعر في العصر الأموي - العراق بنوع
خاص موضع هذا الفن - الشعراء يصطنعون أسلوب الحطيفة في التكسب بالهجاء
خوف الأشراف والوجهاء من الهجائين - المتهتكون من الهجائين المحترفين -
الحكم بن عبدل ، الأقيشر - الهجاء القصير اللادع - فن النقائص - محور هذا
الفن شعراء العصر الثلاثة ، كثرة عدد الشعراء الذين دخلوا بينهم وانشغال الناس
بأمرهم ، المداوة وحدها ليست هي الدافع للهجاء ، المناقضة منافسة فنية ومباراة

أدبية ، الارتجال في النقائض ، الشعراء يتربصون بخصوصهم ، مهارة الهجاء تتركز في إدراكه لوجه النقص البارز في خصمه وقدرته على الافتنان والتصرف فيه ، الإجابة من نفس البحر والروى . مظهر للتنافس الفنى ، الشاعر يستكمل قصيدته بإضافة الأبيات بعد سماع نقيضة خصمه . الشاعر يقابل نقيضته بقصيدة خصمه في الأسلوب والمعانى والأغراض . الأسلوب القصصى فى الهجاء ، الواقعية العارية - الهجاء والعقد النفسية ، أمثلة من جرير والفرزدق والأخطل والأقيشر والمغيرة ابن حنبل والحكم بن عبدل وشعراء الموالى .

نقائض جرير والفرزدق والأخطل

(ص ١٢٦ - ١٤٣)

النقائض ليست هجاء خالصاً فهي خليط من فنون الشعر التي عرفها العرب لم يكن الهجاء هو الغرض الأساسى فى كل النقائض . النقائض منافسة فنية . التزام نفس البحر والروى فى النقيضة مظهر للتحدى الفنى . كثرة فخر المتناقضين بالبراعة الشعرية - من الظلم للنقائض أن تقارن بغيرها من فنون الشعر المتأخرة أو شعر الأمم الأخرى والإناصاف يقتضى أن تقاس بعصرها وبيئتها ، النقائض محدودة الغرض فهي شعر شخصى محوره الفرد لا يكاد يسمو إلى الحياة فى أفقها الواسع ، النقائض على قيمتها التاريخية والعلمية بعيدة عن أذواق المعاصرين ، النقائض تصور عصرها جملة وتصور الناحية الأدبية فيه خاصة . النقائض سجل لكثير من الأحداث التاريخية التي عاصرتها والتي سبقتها منذ وعى العرب تاريخهم - تباين شعراء النقائض الثلاثة فى أسلوبهم الفنى - الأخطل يرضى فنه - جزالة ألفاظه تضعف هجاءه وتمرحه بروح الدعابة - الأخطل شاعر خاصة - جرير مرح ، مداعب ، جرير لا يجهد نفسه فى الشعر - ذبوع شعره وغلبته على قلوب الناس - الفرزدق معنى

بفنه ولكنه ليس موهوبا كجرير — الفرزدق يجارى جريرا في تناول المعانى الهجائية من قرب — الخصاص العامة للقائض : العامة والابتدال فى المعانى والألفاظ والأخلاق ، تكرار المعانى والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية ، القصص الهجائى ، جرير أكثرهم تفوقا فى هذا المذهب والأخطل أكثرهم تخلفا .

جرير

(ص ١٤٤ - ١٦٨)

بنو يربوع - غلبتهم على البصرة والسكوفة وخراسان فى أيام الفتنة الثانية - ثروة الخطفى جد جرير وخمول عطية أبيه - مولده فى أواخر أيام عثمان حوالى ٣٠ هجرية اشتباكه بفسان السليطى - وفوده على يزيد - بنو يربوع يدعون لابن الزبير - تميم فى موقفها من الفتنة حزبان يتزعم أحدهما سلمة بن ذؤيب الرياحى ويتزعم الآخر الأحنف بن قيس - خلوشعر جرير مما يدل على لونه السياسى فى هذه الفترة وتعليل ذلك - زبيرية جرير وتعصبه للقيسية - ضعف جرير ونفاقه وصلابة الفرزدق وأفته - جرير يعول فى النكسب على المدح ولا يهجو إلا من هاجمه - إلحافه فى سؤال ممدوحية - شعر جرير رقيق سهل - عدم أصابته المدح - رقة شعر جرير صورة من طبعه السموح ونفسه المطمئنة - إجادته فى الغزل والرثاء - مواهب جرير الشعرية تبدوا كاملة حين يهاجم الأفراد - هدوء طبعه وبرود أعصابه - تهكمه وسخرية - امتياز حسه اللفظى - عينه نقادة تقع على العيوب وتهندى إلى مواضع السخرية - خياله الخصب وذكاؤه النفاذ يمد به بالصور الغربية فى الافتنان وبالنكت البارعة اللادعة - جرير من أخطر الهجائين فى اطلاق الالتاب على خصومه وترويح الأشاعات الباطلة عنهم - هجاء جرير واقعى يستند إلى دقة الملاحظة وبراعة الحكاية للأصوات والأشياء .

الفـرزدق

(ص ١٩٦ - ٢٠٤)

بين جرير والفرزدق - مولد الفرزدق حوالى ٢٤ هـ - الفت الظروف بين جرير والفرزدق من وجوه وخالفت بينهما من وجوه . ضعة جرير وشرف الفرزدق رقة جرير وغلظة الفرزدق ، جرير رقيق يؤسر السلام والفرزدق عنيف يحيا حياة نضال ، جرير زبيرى قيسى والفرزدق لا يعتد إلا بقبيلته ؛ جرير ينافس الفرزدق على زعامة تميم فى الشعر - الفرزدق يحاول أن يضع حداً لتقدم جرير وشهرته - التنافس على الزعامة الشعرية للقبيلة هو الدافع الاول لتهاجيها - الفرزدق طموح شديد الاحساس بالتفوق والامتياز إلى حد الجنون والمرض - والفرزدق لا يرحل إلى الخلفاء - الفرزدق يتكلف فى حياته مظهر السادة - اضطراب الروايات وتناقض الآراء فى مذهبه السياسى - الفرزدق مستقل فى تفكيره السياسى لا يعدر فى شعره وتصرفاته إلا عن مصلحة قبيلته - الفرزدق لا يستجدى ممدوحيه كجرير ولكنه يسألم فى أنفة وترفع - الفرزدق هجاء لانه مغرور بنفسه لا ينظر إلى الناس إلا مستخفا هازئاً - تشابه الفرزدق والمتنبى - سوء علاقة الفرزدق بالولادة وهجاؤه لهم وجرأته عليهم - الفرزدق يجمع بين نقيضتين فهو مجنون بالغرور والكبرياء ولكنه شديد الضعف فى احتمال المكاره والصمود للكفاح - شعر الفرزدق مزاج من الشعور بالعظمة والشعور بالرهبة والخوف - شعر الفرزدق رائع فى وصف السجون وتصوير خوفه - الفرزدق جاف غليظ الطبع فى فنه وفى حياته - الفرزدق ينحت من صخر - تراكب الالفاظ واضطرب الضمائر والتعسف فى التراكيب - ملاءمة طبعه الشعرى للفخر ولوصف المظاهر العنيفة وتصوير حياة الصحراء والبادية - فشله فى الغزل والمدح -

الفرزدق لجفاء طبعه بعيد عن الإيمان العميق والإسلام الصحيح — مثله جاهلية تدور حول القوة — يذهب مذهب الفتاك المنعمرين كأمريء القيس والأعشى — يفتخر بالزنا وشرب الخمر ويجهر بذلك في شعره — اقتران جفائه بفتكه وفجوره قد أنتج قدرا ضخما من الشعر الممغن في الفحش — الفرزدق ولوع بالتصوير العارى يجد في ذلك لذة حسية — الفرزدق يبدو مضحكا حين يتكلف النسك والخشوع — الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذي استطاع أن يصمد لجرير — موارنة أخيرة بينه وبين جرير في الفن الهجائي — تفوق جرير في الهجاء الشخصي ونبوغ الفرزدق في الهجاء الاجتماعي .

الهجاء والموالى

(ص ٢٠٥ — ٢١٨)

العرب يرون الموالى عبيدا أرقاء والموالى لا يرون العرب إلا بدوا جفاة — الموالى يسترون حقدهم بسنار من الرياء — بعض الموالى يحترفون الغناء ويتغزلون في البيوت العربية الكبيرة ويفتنونهم بموسيقاهم وأزيائهم وبما ينشرون من ألوان الحضارة والبدع — فريق آخر من الموالى ينصرف إلى الدراسات الدينية فيذهب تعصبهم — فريق ثالث يتخذ الشعر صناعه — بعضهم يحترف السياسة وبعضهم يكسب عيشه ومكائنه بهجاء الناس — رقة دين معظم هؤلاء الموالى صورة لاستخفافهم بكل ما هو عربي — بعض شعراء الموالى لا يحسنون النطق بالعربية — الهجاء يحقق لشعراء الموالى مكانة وجاها — خوف الناس من شعرهم على تفاهته من الناحية الفنية — غلبة المقطوعات القصيرة على هجائهم — الموالى ثلاث فرق فريق منافق يستر حقه مدهانا ، وفريق يدفع عن نفسه بالهجاء ، وفريق دفعه يأسه إلى الزهد والانصراف عن الدنيا — ولكنهم في مجموعهم يكيّدون للعرب حتى يتحقق لهم الظفر بالقضاء على الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية .

فهرست الأخطاء المهمة

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
٦	٧	بن خويلد	٦٥	٢	النضار(بالهامش)
٧	٢	فأبصرا	٦٦	٩	وَعَالَتْ مالكا
٧	٢	والدافع إليها	٦٧	٤	أَغْلَيْتَ حين
٨	١١	يجرف في طريقه	٦٧	١٢	تَوَّؤُوكَلَّتْ أعناقها
١١	١٥	على فتية	٦٨	١٢	عند قبيلته من جهة ،
١٥	١٩	بالأرض الفضاء			وعند البيت الحاكم . .
٢٠	٧	أنا سترضى	٧٠	٤	في تصوير
٢١	١٢	يتجالدون بالسيوف	٧١	١٨	وكنتم بنى العجلان
٢٧	١٠	والحكلم من مضر	٧٢	١	ترى كعبها
٢٩	٥	إلا تهتدا	٧٣	٧	تنوشه
٣٣	٢	رميناهم	٧٤	١٠	من بكر
٣٣	١١	المتخلف الرجعى	٨٠	١	من بى أمية
٤٢	٥	يخوض الناس فيه	٨٢	١	العقبان
٤٥	٦	سبرة بن الجمذ	٩٠	٩	وعتاد
٤٥	٦	سمير الحجاج	٩٥	١٥	طريد القتل
٤٥	١٠	يجر الخرز	٩٦	١	من أنوائه
٤٦	٧	عند التهايج	٩٩	٥	تعين على
٤٨	٤	فشيبه الفتاة	١٠٠	١١	إلا ذلك
٤٩	١٦	ذلك المتن			

الموضوع	الصفحة	السطر	الموضوع	الصفحة	السطر
حوارى الرسول	١٦٨	٧	رأت بعد عهد ...	١٠٣	١٥
١١٤	١٦٩	٩	المحتبى	١٠٨	٣
غُبْرٌ	١٦٩	١٥	عن سبائككم	١١٢	٣
رُكبانَ فِجْرٍ	١٧٧	١٣	مِذْرَارٍ	١٢١	١٧
الأصطلاح	١٨٠	١٨	على القانون	١٢٧	١
مُنْيِبِهَا	١٨٢	١٣	لستم إليهم	١٣٢	١٦
وما سجنونى	١٨٧	٣	شهدتْ	١٣٣	١٢
وبين مغيبٍ	١٨٧	٨	أوائله	١٣٤	١٦
وقد يَمْنَعُ	١٨٩	١١	كان الفرزدق	١٣٥	٢٢
سُورَةُ مُخْدِرٍ	١٩٠	٦	ويولدون	١٣٧	١١
والهنديُّ	١٩٣	٤	محبوكة القرى	١٣٩	٢
كُورٍ ... حمراء	١٩٤	١٦	قصت له	١٤٠	٨
ونعزب (هـ)ش	١٩٦	٥	وادعاه لنفسه	١٤٥	٢
فانك بلسانه ...	٢٠٢	٧	عريشاً	١٥٤	١
لِقَقْوَادٍ... الأَبْكَارِ	٢٠٢	١٧	عياهم صفرا	١٥٥	٩
بِحِجَّةٍ مَرَكَبَةٍ	٢٠٥	٢١	لا تخاف	١٥٩	١٥
والهرمزان	٢٠٩	١٢	أنت	١٦٦	٢

